ستيفان زفاريغ

الحب ليس شفقة

رواية

تقديم ومراجعة

علي عبد المنعم

الكتاب: الحب ليس شفقة (رواية)

الكاتب: ستيفان زفاريغ

تقديم ومراجعة: علي عبد المنعم

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

زفاريغ، ستيفان
الحب ليس شفقة (رواية)/ ستيفان زفاريغ، تقديم ومراجعة: علي عبد المنعم
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٨١ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٤ – ٦٧ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٧٩٥ / ٢٠٢٠

الحب ليس شفقة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

ولد الكاتب النمساوي ستيفان زفايج في مدينة "فيينا" في ٢٨ نوفمبر ١٨٨١م وينحدر من أصول يهودية اشتهر كروائي، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة بأطروحة تناولت الناقد الفرنسي الشهير "تين" كما كتب الشعر وفازت قصائده بجائزة "بوير نفليد" للشعر، وهي إحدى الجوائز الرفيعة في النمسا وقت ذاك، وترجم بعض الأعمال الأدبية وألف قصص وروايات ومسرحيات.

وكان زفايج قد سافر إلى باريس في عام ١٩٠٤ وعاشر فيها لفترة دفعته لأن يترجم أعمال بودلير ورامبو ورومان رولان، وغيرهم من كبار الكتاب رالفرنسيين، وقد قال عنه الروائي الفرنسي جول رومانس: " زفايج هو أحد المفكرين السبعة الأكثر عمقاً في أوروبا بأسرها".. وكان من دعاة السلام ونموذجا للأوروبي المسالم، ولذلك كان جرحه عميقا حينما نشبت الحرب العالمية الأولى، وهو أكثر كتاب جيله شهرا، ليس فقط في النمسا، بل بين كل كتاب أوروبا في ذلك الوقت.

كان زفايج يرسم ملامح أعماق النفس البشرية، ويكشف عن أدق خفاياها وأعنف انفعالاتها كالحب والكراهية والخوف والشغف، مما دفع البعض لمقارنة رواياته بدراسات فرويد في علم النفس. وقد ترجمت أعماله إلى أكثر مــن خمسين لغة، وقد أطلق عليه اسم دوستويفسكي النمساوي. أشهر أعماله "السر الحارق" ١٩١١، "التباس الأحاسيس" ١٩٢٧،

"الخوف" ١٩٢٠، " آموك أو سعار الحب " ١٩٢٢، "أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة" ١٩٢٧ وأغلب هذه الروايات تمت ترجمتها إلى أكثر من خمسين لغة، ومنها الرواية التي تعيد "وكالة الصحافة العربية / ناشرون" تقديمها اليوم للقارىء العربي، وقد صدرت طبعتها الأولى باللغة الألمانية في عام ١٩٣٨، بينما تأخر صدور ترجمتها العربية لنحو خمسة عشر سنة.

وقد اضطر ستيفان زفايج للهجرة إلى في عام ١٩٣٨ فعانى الشتات لأربعة أعوام، فهو سافر أولا إلى بريطانيا بصحبة زوجته الأولى فردريكه، وفي عام ١٩٣٩ تزوج من سكرتيرته "لوتاه" وسافر معها إلى الولايات المتحدة التي لم يحتمل الحياة فيها لأكثر من عام، ثم سافر إلى البرازيل في ١٩٤٠ لتكون مستقره الأخير. وهناك كتب عددا من أعماله المهمة ومنها "لاعب الشطرنج" ١٩٤٢ كما قدم كتابا عن البرازيل نفسها بعنوان "البرازيل أرض المستقبل" وهو آخر كتاب نشره زفايج في حياته، وقد صدرت بعد رحيله عدة كتب كان قد انتهى من تأليفها قبل انتحاره منها كتابه الشهير عن الروائي الفرنسي "بلزاك".

وكان زفايج قد كتب مذكراته بعنوان " مذكرات أوروبي" كما قدم سيرته الذاتية في عمل أدبي فذ منحه إسم " عالم الأمس"، وذلك في مطلع أربعينيات القرن العشرين، حين كانت الحرب العالمية الثانية في أوجها، كتب زفايج في سيرته :

"ما أرويه في واقع الأمر ليس مجرد قدري الخاص بل قدر جيل كامل، جيل قد هزت أعماق وجوده وثوابته انفجارات بركانية متواصلة في أرضنا الأوروبية، إنني كنمساوي ويهودي وكاتب ومؤمن بالحركة الإنسانية ونصير

للسلام، قد وقفت على الدوام في المواضع التي ضربتها أعنف تلك الزلازل، لقد دمروا منزلي ووجودي ثلاث مرات، وفصلوني عن الماضي وكل ما كان، ثم قذفوا بي بغتة إلى الفراغ. فصلت حقًا عن كل جذوري وعن التربة التي تغذيها، كما لم يفصل أحد في الماضي إلا نادرًا، أرغمت على مغادرة بلدي مثل مجرم، وأما عملي الأدبي باللغة التي كتبته بها، فقد أحرق في البلاد ذاتها التي جعلت كتبي ملايين القراء أصدقاءً لي، وهكذا فأنا لا أنتمي إلى أي بلاد، فحيثما حللت فأنا غريب أو ضيف في أحسن الأحوال، فأوروبا التي اختارها قلبي موطنًا قد أقدمت على الانتحار حين انقسمت مرة أخرى إلى جبهتين يحارب فيهما الأخ أخاه، وشهدت رغمًا عني أفظع هزيمة للعقل وأشرس انتصار للوحشية في كل العصور".

هكذا كانت "عالم الأمس" بمثابة اختتام ليس فقط لحياته الأدبية بل لحياته بعامة، إذ انتحر بعدها، وذلك في مدينة بتروليوس البرازيلية في منتصف ليلة الثاني والعشرين من فبراير عام ١٩٤٢، حيث فاجأ العالم بانتحاره، ويتضمن هذا الكتاب إشارات قوية إلى الرعب الذي استشعره بعد وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا التي كانت تحكم النمسا في ذلك الوقت، وهو الأمر الذي دفعه إلى أن يغادر النمسا هربا بحياته، إثر تكرار الهجمات التي تعرض لها منزله من قبل القوميين الجرمان الشوفينيين، لكنه في المنفى لم يجد الأمان المنشود بل استشعر السأم والفراغ القاتل، وحيثما حل وارتحل يشعر بالوحدة والغربة، فهو في أي مكان خارج وطنه مجرد ضيف.

وأوروبا التي أحبها أقدمت في نظره على الانتحار حين انقسمت إلى معسكرين متحاربين، لقد كان زفايج شاهدا على عصر الأيديولوجيات الفاشية

في إيطاليا، والاشتراكية القومية النازية في ألمانيا، والبلشفية في روسيا. والتي ساهمت في تفشي التعصب القومي الذي أسماه "الوباء الأكبر الذي سمم الثقافة الأوروبية".

هذه المشاعر سممت حياته، وبلغ به اليأس منتهاه فقرر أن يضع بيده حدا لحياته، فقرر أن ينتحر، وترك رسالة بمثابة الوداع يبلغ فيها العالم بدوافع قراره، وقال في رسالته الأخيرة :

"قبل مفارقتي الحياة بمحض إرادتي، وأنا في كامل وعيي، أجد نفسي مرغما على الوفاء بالتزام أخير، بأن أوجه من القلب خالص شكري إلى البرازيل، هذا البلد الرائع الذي منحني ومنح أعمالي راحة تكشف عن بالغ الود وكرم الضيافة.

لقد تعاظم حبي لتلك البلاد يوما وراء يوم، ولم أكن لأوثر بناء حياة جديدة إلا هنا في البرازيل. لكن الآن، و بعد أن توارى عالمي الفني بعيدا عني، وبعد أن هدم وطني الروحي أوروبا نفسه بنفسه. يحتاج الإنسان بعد أن ناهز الستين من العمر إلى طاقات استثنائية كي يستطيع أن يبدأ بداية جديدة من الصفر. وما لدي من طاقات استنزفتها مني أعوام التيه المديدة. لذلك اعتقد أنه من الأفضل أن أضع حدا لحياتي في هذا الوقت المناسب وأنا مرفوع الرأس. أحب كل أصدقائي راجيا أن تتسنى لهم رؤية الفجر بعد ليل مظلم طويل وها أنذا أتقدمهم وقد فرغ صبري تماما، لذلك أرحل قبلهم".

"أنا أعلم أنك لم تضعف إلا بتأثير شفقتك عليه، وهي أنبل الدوافع، ولكن أحسبني حذَّرتك من هذا الخطر من قبل، فالشفقة سلاحٌ ذو حدين، وكل من لا يتقن استعماله يجب أن يكفَّ يديه – وقبل كل شيء قلبه – عن لمسه!

في البداية فقط تكون الشفقة كالمورفين، مسكِّنٌ يخفِّف آلام المريض، ولكن ما لم تعرف بالضبط مقدار الجرعة التي تعطيه إياها منه، ومتى تكفُّ عن إعطائها، فإن المسكِّن ينقلب سماً قاتلاً.

وكما يدمن الجهاز العصبي المورفين فيظل يصرخ في طلب المزيد منه كل حين، كذلك تدمن النفس الشفقة فتصرخ في طلب المزيد منها يوماً بعد يوم، حتى تطلب في النهاية أكثر مما يمكن للإنسان أن يعطى...

وحين تأتي تلك اللحظة، ينبغي للمرء أن يتوقع من المريض مقتاً وكراهيةً يفوقان ما كان يناله منهما لو لم يمدَّ لمريضه يد المساعدة على الإطلاق، منذ البداية!".

هذه الفقرات من رواية زفايج "حب أم شفقة" تضع الشفقة في مواجهة الحب، وتطرح نفس السؤال الماثل في عنوان الرواية، فتضعنا تماما في قلب موضوعها. وقد طرح ستيفان زفايج في أعماله سؤال الحب مرارا، في أعمال عديدة منها جنون الحب، أربعة وعشرون ساعة من حياة أمراة، آموك أو سعار الحب، التباس الأحاسيس، عاشقات في الخريف، ولعل أشهر رواياته التي تناولت الحب عي رواية رسالة من إمرأة مجهولة، وهو في هذه الأعمال يتميز برؤيته الخاصة التي لا تجدها لدى أي روائي آخر، ويرى بعض نقاده أن أحدا

من الروائيين لم يقترب من تلك المنطقة التي أعمل فيها زفايج قلمه إلا الروائي الروسي تولستوي خصوصا في " آنا كارنينا" حيث اهتم ببيان تأثير الحب وعواصفه المدمرة على النفس البشرية، لا الحب الذي نهايته سعيدة ومثالية، بل الحب الذي كان بمثابة الموت.

القصة في "الحب ليس شفقة؟" بسيطة للغاية، فهي تصور ضابط شاب ينتمي إلى الطبقة المتوسطة، يحدث أن يزور هذا الضابط قصر عائلة ارستقراطية في محاولة منه لاكتشاف نمط حياة جديدة تعينه في حياته العسكرية والعامة.

وفي الوقت الذي كانت رقصة الفالس تصدح في قاعة القصر الكبيرة، يتقدم الضابط طالبا من ابنة صاحب القصر أن تشاركه الرقص. كان الرد غير متوقعاً ولا يمكن تصوره، إذ كيف يتقدم هذا الضابط الشاب الممتلئ حيوية ونشاطاً لطلب الرقص مع فتاة لا تستطيع المشي على قدميها بسبب حالتها الصحية السيئة.

كيف ستتحول نظرة هذا الشاب لهذه الفتاة بعد أن يكتشف أن من يدعوها للرقص فتاة مشلولة لا تعرف للسير طريقاً!

في هذه الرواية يقدم ستيفان زفايج رؤيته الخاصة للحب والشفقة من خلال علاقة الضابط والفتاة المعوقة. موضحا أو مفسرا لأنواع التأثيرات المدمرة لكل من الحب والشفقة من خلال الفعل ورد الفعل.

تبدأ العلاقة بصداقة مثالية دافعها الشفقة والرحمة، هذه الشفقة تتحول بصورة أو بأخرى إلى نوع من الاعجاب والصداقة والحب. لكن، إن كان للحب هذا التأثير، فهل يكون للشفقة تأثير مماثل؟ وما هو المصير المنتظر لعلاقة تقوم أساسا على الشفقة ابتداءً؟

كل هذه الأسئلة يتوقف عندها زفايج عبر أحداث الرواية. فنرى الحب يحمل ذلك التأثير الهائل القادر على أن يحقق المعجزات و أن يكون دواءً وشفاءً.

ونرى الحب من جهة أخرى يخلق أزمة وجودية لا قدرة للفرد على تحملها، ولا يوجد منفذ من هذا الحب المدمر إلا في الهروب إلى مكان آخر ينتهي فيه التفكير بأي شيء على الاطلاق، أي الموت.

وفي المقابل فالشفقة دافعها الرحمة والعطف، ولكن، هل هناك وجه آخر للشفقة لم يرى من قبل؟ كأن تكون الشفقة مدمرة، قاتلة؟ مجرد التصور بأن للشفقة اتجاه مغاير عن الصورة المثالية يصعب تصورها، لكن زفايج يجعلها في موضع الاختبار، ويجعل الشفقة والحب في حالة صراع دائم يؤذن بانهيارهما وزوالهما معا.

علي عبد المنعم

مقدمة المؤلف

يظن البعض أن الخيال الروائي دائب النشاط في رأس الكاتب، وأن قدرته على الابتكار والخلق والابداع لها رصيد من الحكايات لا ينضب، ومعين من الحوادث لانهاية لها ، والواقع أن كاتب القصة ليس في حاجة إلى أن يبحث عن موضوع لها، بقدر حاجته إلى أن يدع الشخصيات والوقائع تبحث عن هذا الموضوع، كما تفعل دائما إذا ما توافرت للمؤلف ملكات الملاحظة والإصغاء والتأمل، وبطبيعة الحال يحدث أن يفضى الكثيرون – بمحض إرادتهم ووعيهم – بقصصهم إلى الشخص الذي طالما حاول أن يتعقب مصائر البشر ولديه مخزون من التجارب والقصص.

والقصة التالية قد رويت لي بأكملها تقريبا في القالب الذي أقدمها به هنا: ففي ذات ليلة – خلال فترة إقامتي الأخيرة بمدينة "فينا"– شعرت بالتعب، في أعقاب يوم حافل بالعمل، فذهبت إلى مطعم في ضواحي المدينة خيل إلى أنه فقد –منذ زمن– شهرته وتميزه وقل الإقبال عليه، لكنى لم أكد أخطو إلى داخله، حتى تبينت على الفور خطأ هذا الظن، فقد جاء إلى تحيتي شخص ممن أعرفهم، وعلى وجهه علائم السرور والبهجة، ثم دعاني إلى الجلوس معه، غير أني لم أستجب لتحيته ودعوته بمثل حماسته.

ولست أزعم أنه كان إنسانا بغيضًا، يضيق المرء بصحبته، فالواقع أنه كان من ذوي النفوس المحبة للأنس والمخالطة .. أو، بعبارة أخرى، من

أولئك الذين "يجمعون" الأصدقاء الجدد بمثل المثابرة والحماسة اللتين يجمع بهما الأطفال طوابع البريد، ويفخرون بكل صديق يضيفونه إلى مجموعاتهم، سيما إذا كان هذا الصديق الجديد يمثل نموذجا نادرًا أو مشهورًا .. والذين يعرفون شخصًا من هذا الطراز يلمسون طيبة قلبه، وحرصه على إدخال السرور على نفوس أفراد "مجموعته". ومن ثم يقدرون مدى "القسوة" التي ينطوي عليها عدم الاستجابة لحفاوته وترحيبه... وهكذا استسلمت لقدري، وجلست إلى جوار صاحبي. وانقضى نحو ربع ساعة في ثرثرة تافهة، ثم دخل المطعم رجل طويل القامة، يصدم الناظر إليه، حيث التناقض بين الشباب النضير الذي يلوح على طلعته وبشرته، والشيب المبكر الذي ألم بعارضيه.. وكانت مشيته تنم على أنه "ضابط سابق"، ولم يكد جاري يلمحه، حتى هب يحييه في لهفة– بإشارة من يده– فرد له الرجل التحية في فتور وعدم اهتمام، ثم جلس إلى مائدة غير بعيدة .. ومال جليسي على أذني هامسًا: "أتعرف من يكون؟". فأجبته في اقتضاب، كي أتجنب إسهابه في الإيضاح: "كلا " .. ثم انهمكت في تشريح قطعة اللحم التي أمامي، لكن "بلادتي" هذه ضاعفت من حماسة صاحبي "صياد الشخصيات"، فوضع يده على فمه وهمس بصوت خافت: كيف؟ أنه "هو فميلر" موظف القوميسيرية، ذاك الذي فاز بوسام "ماريا تريزا" لحسن بلائه في الحرب، ورأى محدثي أن هذه المعلومات لم تثر انفعالي كما قدر، فاندفع يصف لي جانبًا من الأفعال الباهرة التي أداها الكابتن هو فميلر في الحرب، والتي لا أرى معنى لتصديع رأس القارئ بتفصيلاتها، فلم يسعني إلا أن ألتفت في حركة غير إرادية إلى ذلك "البطل" المقصود بالحديث، وإذا به قد ارتسمت على وجهه نظرة سخط صارمة، ثم أدار مقعده بحيث أعطانا ظهره في حركة عدائية، فشعرت بشيء من الخزي، وما ليث قليلا حتى استأذنت محدثي الثرثار في الانصراف

.. وفيما أنا أغادر المطعم، لمحته ينتقل إلى مائدة بطله المرموق، كي يرسم له– ولا شك– صورة لامعة عني مثلما رسم لي عنه.

.. وكان يمكن أن أنسى كل شيء عن هذا اللقاء العابر بالضابط السابق، لولا أن شاءت المصادفة أن أجد نفسي وإياه وجها لوجه، في حفلة صغيرة حضرتها في الليلة التالية وقد بدا لي– في ثياب السهرة– أكثر أناقة ووجاهة منه في سترته العادية التي كان يرتديها في الليلة السابقة.

ووجد كلانا بعض الصعوبة في قمع ابتسامة خفيفة سعت إلى شفاهنا في وقت واحد: تلك الابتسامة، ذات المعنى، التي يتبادلها– في مكان عامر بالناس– شخصان يتقاسمان سرًا خفيا.. لقد عرفني هو، كما عرفته، لكن كلا منا تجنب التحدث مع الآخر، ولو حاولنا ذلك لتعذر علينا الأمر في تلك الساعة، فإن نقاشا حاميا كان محتدما حولنا. ويستطيع القارئ أن يستنتج موضوع ذلك النقاش، لو علم أن تاريخ هذه المحادثة يرجع إلى سنة ١٩٣٧، حين كان كل حديث يجري في أي بلد من بلاد أوروبا الحائرة لا يكاد يخرج عن موضوع واحد، هو: الحرب العالمية الجديدة، وهل نشوبها محتمل أو غير محتمل؟!

وبدأ مضيفنا المناقشة– وهو محام معتز برأيه– فسخر من فكرة احتمال نشوب الحرب، في جيل لم أبناؤه أهوال الحروب السابقة .. وضايقتني هذه المغالاة في استبعاد خطر الحرب، فأعلنت رأيي المضاد– في حزم وقوة– قائلا: "أنه لا ينبغي ترك الرغبة تتحكم في الفكرة، والأمنية تغير الأمر الواقع. فلا شك أنه في هذه اللحظة التي يذاع فيها نبأ التعبئة العامة، لن

يجرؤ معارض على رفع صوته، ولا يعود لحياة الإنسان– المخلوق من التراب – أي قيمة أو وزن في اعتبار الحكام والساسة".

وانحاز الحاضرون جميعا إلى الرأي الأول، المضاد لرأيي، من واقع تأثير غريزة خداع النفس التي تجعل البشر يحاولون أن ينفوا من أذهانهم المخاطر التي يحسون بوجودها في أعماقهم، فضلا عن أن تحذيرا كالذي جاهرت به، ضد التفاؤل الرخيص السائد، كان خليفا ألا يلقى ترحيبا في وقت كان فيه عشاء شهي فاخر معدا في انتظارنا، في الحجرة المجاورة .. وأدهشني أن فوجئت في تلك اللحظة بتدخل الضابط السابق في النقاش، مؤيدا رأيي بقوله: "إن إرادة الشعوب لن يكون لها وزن في ترجيح كفة الاشتباك في حرب أو الإحجام عنها، وان النصيب الأكبر من القتال في الحرب القادمة سوف يكون نصيب الآلات. ولن يكون الإنسان أكثر من جزء من أجزاء تلك الآلات، ومتى نشبت الحرب فسوف يندفع إلى القتال عشرات ومئات الألوف من الرجال، أما هربا من أنفسهم وظروفهم السيئة، وإما خوفا من معارضة التيار الجارف والتصدي له"..

ثم أضاف الكابتن هو فميلر إلى ذلك قوله: "أن اللون الوحيد من الشجاعة الذي صادفني في الحرب هو شجاعة الجماعات، تلك الشجاعة التي تنبع من شعور الشخص بأنه واحد من قطيع جرار، وهي شجاعة تتألف من عناصر عجيبة مختلطة، منها: الغرور، والاستهتار، والضجر .. ومنها، قبل ذلك كله: الخوف من التخلف عن موكب المحاربين، والخوف من سخرية الناس، أو الخوف من اتخاذ موقف مخالف لموقف المجموع، ولحماسة الزملاء والإخوان ولم أدرك إلا فيما بعد، عقب تسريحي من الجيش وعودتي

إلى الحياة المدنية، أن الكثيرين من الذين اشتهروا بأنهم من أشجع المحاربين في الميدان، كانت بطولتهم موضع شك، ولست أستسني منهم نفسي"

وأعجبتني طريقته في الكلام، وكدت أتقدم لأحييه، ولكن مضيفنا دعانا إلى قاعة الطعام، حيث أجلسنا في مقعدين متباعدين .. وهكذا لم تتح فرصة اللقاء إلا بعد انتهاء الحفلة، في حجرة المعاطف "الأمانات" حيث بادرني بالحديث قائلا وهو يبتسم: "أعتقد أن صديقنا المشترك قد تولى تقديمنا– بصفة غير مباشرة– أحدنا إلى الآخر" .. فأجبته بعبارة مناسبة، وأنا أبتسم بدوري .. وعندئذ أردف قائلا: "يخيل إلى أنه قد خلق مني "بطلا"، فإنه جد فخور بوسامي، كما هو فخور بكتبك".

ثم خرجنا معا، وفي أثناء سيرنا التفت إلى فجأة قائلا: "صدقني .. إني لا أغالي إذا قلت أن شيئا لم يثقل على صدري ويضايقني خلال السنوات الأخيرة مثل وسام "ماريا تريزا" هذا الذي أحمله .. صحيح أني فرحت به حين منحته– من فرط ما سمعت عنه أثناء دراستي الحربية، مما يدخله في باب الأساطير، وصحيح أنه لا يمنح لأكثر من اثنى عشر شخصا في كل حرب .. وأنني يوم منحته كنت شابا في الثامنة والعشرين، ووقفت– مرموقا من الفرقة بأسرها– وهو يلمع على صدري كالشمس الصغيرة، وصاحب الجلالة الإمبراطور يهز يدي مصافحا مهنئا، لكن هذه الأوسمة الحربية تنتهي نشوتها بانتهاء الحرب، وبالفعل بدا لي من السخف– بعد استقرار السلام– أن أظل طيلة حياتي مكللا بالغار، باعتباري بطلا، لا لشيء إلا لأني في مناسبة ما تصرفت تصرفا ينطوي على الشجاعة لمدة عشرين دقيقة، وقد لا أكون فعلت

أكثر مما فعل غيري من المحاربين، وإنما كان من حسن حظي أن تنبه الرؤساء إلى صنيعي، كما كان من حسن حظي أن عدت من الحرب حيا!

".. ولكن لم ينقض على ذلك عام حتى كنت قد ضقت ذرعا بنظرات الفضول التي يرمق بها الناس الوسام المعلق على صدري، ثم ينتقلون بها- إمعانا في الأعجاب- إلى وجهي .. وقد كان حنقي عليهم، من أجل هذا، أحد الأسباب التي جعلتني أترك الجيش عند نهاية الحرب كي أعود إلى الحياة المدنية."

وصمت قليلا، ثم أستأنف كلامه فقال: "أما السبب الرئيسي الذي دفعني إلى اتخاذ تلك الخطوة فقد يكون أولى بتقديرك: ذلك أنني أنا نفسي صرت أنظر إلى بطولتي المزعومة نظرة تشكك، فقد كنت أعرف الناس بأن الرجل الذي ظفر بهذا الوسام هو أبعد ما يكون عن استحقاق لقب البطل، بل لعله يستحق عكسه تماما، إنني لم أكن غير واحد من أولئك الذين هرعوا إلى الحرب كي ينجو بأنفسهم من موقف تعس، وهكذا بدت لي حياتي وسط "هالة من المجد"، حياة غير طبيعية، ولا تكاد تطاق، حتى لقد تنفست الصعداء حين أعفيت من أسير في الطريق حاملا دليل بطولتي محفورا على سترتي الرسمية! .. وما يزال يضايقني إلى اليوم أن ينبش الناس ماضي المجيد، فيرمقوني بتلك النظرة المفعمة خشوعا وإعجابا، كما رمقتني أنت حين أشار صديقك إلي بالأمس.

أنك لا تستطيع تصور مبلغ الضجر الذي تملكني إذ ذاك، حتى لقد فكرت في أن أجبرك على أن تسمع من شفتي مدى العذاب الذي تكبدته، وفداحة الضريبة التي دفعتها، ثمنا لتلك البطولة المزعومة، إنها قصة غريبة

للغاية، تظهر كيف أن الشجاعة كثيرا ما تكون ضعفا وجبنا، وليس يضيرني أن أقصها عليك الآن، فإن الجرح الذي يرجع تاريخه إلى ربع قرن مضى لا يعود ملمسه حساسا .. فهل لديك الوقت؟ وهل لا يضجرك الأمر؟"

وقد كان لدي من الوقت والصبر، فمضينا نذرع الشوارع، التي بدت مهجورة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وصاحبي ماض في سرد قصته .. ولست في حاجة إلى القول بأنها استغرقت أكثر من حديث واحد .. كما تغنيني فطنة القارئ عن الإشارة إلى أني لم أدخل عليها غير بضع تغييرات اقتضتها ضرورة إخفاء شخصيات أبطالها، ومعالم الأمكنة التي جرت فيها وقائعها .. أما فيما عدا ذلك فلست أنا– بل بطل القصة الفعلي– الذي يرويها .

ستيفان زفاريج

الفصل الأول

"متى وأين كان الحد الفاصل بين حماقتي غير المقصودة، وفعلتي الأثمة؟"

يا له من سؤال لعين لا يكف عن الطنين الدائم في أذني، ولا أجد له جوابا يخلصني من تلك الحيرة المسيطرة على نفسي.. الأمر كله بدأ بهفوة ارتكبتها دون قصد، سقطة خرقاء حاولت كثيرا أن أصلحها لكن لم أستطع.

وإني حتى اليوم، وقد مرت على ذلك الأمر أعوام، ما زلت عاجزا . يومها كنت في الخامسة والعشرين، كنت ضابطا برتبة "ملازم ثان" في إحدى فرق بجيش الإمبراطور.

ولست ازعم بأنني كنت يوما شغوفا بالجندية، أو مؤمنا بانها مستقبلي المرسوم، ولكنك حين تكون واحدا من أربعة أولاد ذوي شهية ضارية، وبنتين، في أسرة ضابط نمسوي لا يملك ما يكاد يقوم بأودهم، فانك لن تلوم أباك إذا لم يعبا كثيرا بنوع المهنة التي يختارها لك، فألقى بك إلى أية مهنة تخلصه من الإنفاق عليك! .. وهكذا اختار أبي لأخي الأصغر الذي كان ضعيف البصر، مدرسة اللاهوت .. بينما قذف بي، أنا قوي البنية، إلى الكلية الحربية، حيث تتكفل الدولة بكل شيء لمدة

سنوات، حتى تخرج الفتى المراهق ضابطا ذا شارب وقور، ثم تسلمه الجيش "معدا للاستعمال!"

وهكذا جاء اليوم الذي تخرجت فيه في الكلية- وكان يوم عيد ميلاد الإمبراطور، كما جرت التقاليد- ولم اكن قد أكملت بعد عامي الثامن عشر .. وبعد فترة وجيزة لمعت على سترتي النجمة الأولى، وصار لي مرتب، إلى جانب الرتبة!

وفي نوفمبر من عام ١٩١٣- الذي تبدأ فيه حوادث هذه القصة- صدر الأمر بانتقال فرقتنا من بلدة "ياروسلو" إلى بلدة صغيرة أخرى على الحدود الهنغارية، لا يهم ذكر اسمها، فأن الزرين في السترة الواحدة لا يمكن أن يتشابها أكثر من تشابه قرى الريف النمسوي "التي تعسكر فيها فرق الجيش"، الواحدة بالأخرى .. ففي كل منها ما في الأخرى من مؤسسات عسكرية، وثكنات للجنود، ومدرسة للفروسية، وساحة للاستعراض، ومطعم للضباط، يضاف إلى ذلك ثلاثة فنادق، ومقهيان، وحانوت للحلوى، وحانة للخمر، وصالة موسيقى قذرة فيها بضع نسوة رخيصات يقسمن أنفسهن بالعدل والقسطاط بين رواد الصالة من الضباط والمدنيين. وأينما حل العسكريون في معسكرات الأقاليم تكون حياتهم نهبا للملل والسآمة والتشابه والرتيب، سواء في أوقات عملهم أو فراغهم، ففي "ميس" الضباط تجد الوجوه نفسها، والأحأديث نفسها !.. وفي المقهى تجد ألعاب الورق والبليياردو وما إليها، هي هي في كل حين!

على أن القرية التي عسكرنا فيها هذه المرة كانت تمتاز عن سابقتها بميزة كبيرة، هي وقوف القطارات السريعة بمحطتها الصغيرة، القريبة من "فينا" ومن "بودابيست" في وقت واحد، بحيث يستطيع كل من يملك مالا– وما أكثر أبناء الأغنياء في سلاح الفرسان– أن يستقل قطار الساعة الخامسة مساء إلى فينا ثم يعود في قطار الثانية صباحا، وهي فترة تكفي لأن يذهب إلى المسرح أو يتسكع في حي "رنجستراس"، أو يستمتع بإحدى مغامرات الهوى العابرة! .. بل أن بعض الزملاء كان له حظ استئجار مسكن دائم في العاصمة لمثل هذه الأغراض!

على أن هذه الرحلات المروحة عن النفس كانت فوق طاقة إيرادي الشهري، لسوء الحظ، فلم يكن في استطاعتي غير ارتياد المقهى أو حانوت الحلوى، ولعب البلياردو أو الألعاب الأرخص منها كالشطرنج .. أما ألعاب الورق فكانت باهظة التكاليف، فلم يكن لي بد من تجنبها!

وفي ذات مساء– حوالي منتصف مايو سنة ١٩١٤– كنت جالسا في حانوت الحلوى مع صيدلي القرية ونائب العمدة، وكنا قد فرغنا من مبارياتنا الثلاث التقليدية في الشطرنج، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث. لكن حديثنا كان قد بدأ يفتر ويتباعد، كما يتضاءل عقب السيجارة!

وفجأة فتح الباب ودلفت منه لفحة هواء، أعقبتها فتاة جميلة سمراء، ذات عينين لوزيتين، ترتدي ثوبا أنيقا لا يدع مجالا للشك في أنها من غير سكان الأقاليم!

كانت "وجها جديدا" بالنسبة لنا في ذلك المنفى اللعين، لكنها لم تتعطف علينا بنظرة حين رفعنا أعيننا نحوها في أعجاب ورهبة، وإنما سارت في خطى رشيقة عبر الموائد، متجهة رأسا إلى صاحب المحل. وهناك راحت توصي على كميات كبيرة من أصناف الحلوى وزجاجات "الليكير" والمشروبات الفاتحة للشهية .. وأدهشتني الطريقة التي أنحنى بها الرجل تأدبا واحتراما، فضلا عن نهوض زوجته من مقعدها خلف الخزانة ومسارعتها إليها لتتلقى توصياتها وهي تكاد تذوب توقيرا .. وطبعا لم تحمل الشابة الفاتنة يديها الجميلتين شيئا من المشروبات، ولا دار بخاطرها أن تدفع الثمن نقدا كما يفعل أمثالنا .. فأدركنا توا أنها ولا شك عميلة ممتازة، ورفيعة المقام!

وحين همت بالانصراف، خف "هر جروسماير" ليفتح لها الباب، كما نهض صديقي الصيدلي وانحنى تحية لها وهى مارة بنا، فردت له التحية في جلال فاتن! .. يا الله ! ما أجمل رقعتي القطيفة السمراء المدعوتين عينيها! وانتظرت في صبر نافذ حتى خرجت بتحيات الوداع المعسولة، ثم انهلت على صاحبي الصيدلي استفسارا عن هذه "البجعة" الممتازة في بركة "البط" التي نعيش فيها، فهتف لي قائلا في دهشة:

"أتعني أنك لا تعرفها؟ إنها أبنة أخت الهر فون كيكسفالفا .. أنت تعرف طبعا أسرة كيكسفالفا ؟"

وقد ألقى إلى بالاسم وكأنه يلقي قطعة نقود ذات رنين فضي أو ذهبي، متوقعا أن أجيبه بالإيجاب .. فلما ذكرت له أنني حديث العهد بالنقل إلى البلدة، اندفع يفيض في إمدادي بالمعلومات عن الأسرة الكبيرة صاحبة ذلك الاسم المرموق، فقال أن الهير كيكسفالفا أغنى رجل في المنطقة، ويكاد يمتلك كل شيء فيها .. وهو إلى جانب ضيعته الواسعة وقصره الأصفر الشامخ ذي البرج المسطح والحديقة الغناء، يملك مصنعا ضخم للسكر، ومطحنا للغلال، ومزرعة لتربية الجياد، وهذا عدا ما يملك من المباني الضخمة في كل من فيينا وبودابست .. وهو يعيش في الشتاء في قصر آخر له في العاصمة، ويقضي أشهر الصيف متنقلا بين مدن المياه المعدنية والشواطئ المختلفة .. أما قصره الريفي هنا فلا يفتح في غير أشهر الربيع المعدودة .. وحدث ولا حرج عن المعيشة الترفة الفاخرة التي يحيياها. أنه- بحكم مهنته- على صلة طيبة بهذا الثري الكبير، وفي استطاعته، بكلمة واحدة منه، أن يجعلني ألتقى من الرجل دعوة إلى احدى سهراته، ولا سيما أن "الهر كيكسفالفا" يرحب دائما باستقبال الضباط في بيته.

وتلقيت هذا العرض مغتبطا شاكرا، ولا عجب في ذلك، فإن الأشهر القليلة التي قضيتها في تلك القرية كانت كافية للألمام بكل ملاهيها المحدودة، ولرؤية جميع نسائها اللواتي يتنزهن في الطرقات،

حتى كدنا نعرف ثياب كل واحدة منهن، وقبعاتها المختارة للصيف والشتاء، بل كدنا نعرف كلابهن، وخادماتهن، وأطفالهن! .. هذا إلى تبرمنا جميعا بألوان الطعام التي يعدها في "الميس" طاهية البوهيمي البدين، وإلى تشابه الألوان التي تقدم بالفندق .. وحفظنا عن ظهر قلب أشكال واجهات العرض في كل متجر، في كل شارع، وشكل كل مبنى من مباني البلدة التي لا تزيد على ستمائة بيت أو سبعمائة!

وعدا ذلك كله، كان كل منا قد عرف على وجه الدقة– مثله مثل "يوجين" رئيس السقاة– في أي موعد يحضر كل واحد من رواد المقهى الدائمين، وعلى أي مقعد يجلس، وأي شراب يطلب .. كما خبر كل وجه، وكل جواد، وكل حوذي، وكل متسول، في المنطقة كلها .. بل لقد خبر كل منا نفسه حتى ملها وسئمها! .. فلم لا أفر من هذه الطاحونة الرهيبة، ولو مرة؟ .. ثم هناك تلك الفتاة الجميلة، ذات العينين اللتين تشبهان القطيفة السمراء! .. ومن ثم قلت لمحدثي، في فتور متكلف: "أنه يكون من دواعي سروري أن أتعرف إلى أسرة كيكسفالفا!"

.. ولم ينقض يومان حتى أنجز صاحبي الصيدلي وعده، فأعطاني بطاقة دعوة مطبوعة كتب عليها أسمي بخط دقيق أنيق، وكتب تحته بالخط نفسه: "الهر لايوس فون كيكسفالفا، يلتمس متعة رفقة الملازم الثاني الهر أنطون هو فميلر على مائدة العشاء، في الساعة الثامنة من مساء الأربعاء القادم"

ولما لم أكن جاهلا– والحمد لله– بآداب اللياقة، فقد توجهت في صبيحة يوم الأحد، في أبهى حلة وأنظف مظهر، كي أؤدي لمضيفي زيارة التعارف التقليدية .. وناولت رئيس الخدم هناك بطاقتي، فتناولها في أدب واحترام، ثم غمغم قائلا: "أن الأسرة كلها سيكون أسفها شديدا على أنها لم تحظ باستقبال "سيدي الملازم"، فإن أفرادها جميعا ذهبوا إلى الكنيسة!" .. وهكذا عدت من هناك وأنا أغبط نفسي على خلاصي من حرج الزيارة الأولى التقليدية !

ذهبت إلى المعسكر في صبيحة يوم الثلاثاء، فوجدت في انتظاري بطاقة معقوفة الطرف تركها لي "الهر فون كيسفالفا"، ردا لزيارتي .. فسرني هذا الاهتمام الذي ما كان ليلقاه من مثله "جنرال" في الجيش– لا ملازم ثان! – وبدأت أتطلع إلى يهرة الأربعاء المرموقة في لهفة شديدة، أخذت تزداد من ساعة لأخرى!

على أن القدر القاسي بدأ يناوشني منذ البداية! ففي منتصف الساعة الثامنة من مساء الليلة الموعودة، كنت قد أكملت ارتداء أفخر ما عندي من ثياب، بعد أن عنيت عناية مضاعفة بحلاقة ذقني، وأمرت "المراسلة" بتلميع حذائي، وسكبت بضع قطرات من ماء الكولونيا على شاربي، وارتديت بنطلونا مكويا كحد الموسى! .. وفجأة طرق باب حجرتي أحد الجنود، ثم دخل مضطربا لينبئني بأن صديقي الضابط النوبتجي يلتمس مني أن أهرع لنجدته، فقد تشاجر ضابطان ثملان وضرب أحدهما الآخر بقبضة البندقية على رأسه فألقاه على الأرض

مغشيا عليه والدم ينزف من فمه المفتوح. ولما كان طبيب المعسكر متغيبا، وكذلك قائد الفرقة، فإن صديقي المسكين– لعنة الله عليه– يطلب مني معاونته في الخلاص من المأزق والعثور على طبيب من المدنيين في أسرع وقت ممكن لإسعاف المصاب!

ونظرت في الساعة فإذا بموعد الحفلة لم يبق عليه إلا ربع ساعة! .. وأدركت استحالة وصولي إلى قصر مضيفي في الموعد الحدد إذا تأخرت عن الخروج خلال خمس دقائق! لكني في الوقت نفسه أدركت أن الواجب، المتغلغل في عروقنا نحن العسكريين، يأتي في المرتبة الأولى قبل أي التزام شخصي .. ومن ثم لم يسعني إلا أن التمس المخرج الوحيد من مثل هذا المأزق السمج، فأرسلت جندي المراسلة في سيارة استأجرتها بأربعة ريالات، كي يعتذر لمضيفي عن اضطراري إلى التأخر عن الموعد قليلا، لظرف طارئ خطير! وعددت من حسن حظي بعد ذلك أن استطعت نفض يدي من المهمة التي عاقتني، بعد دقائق معدودات، على أثر وصول الطبيب وقائد المعسكر على غير انتظار. لكني فوجئت بعقبة أخرى جديدة، إذ لم أجد سيارة في الموقف القريب، فاضطررت إلى طلب عربة بالتليفون! .. وهكذا وصلت أخيرا أمام بوابة القصر الرائعة وقد بلغت الساعة منتصف التاسعة تماما، ورأيت حجرة المعاطف وقد اكتظت بمحتوياتها ..

وقادني إلى صالون القصر الكبير خادم أنيق وقور يرتدي سترة رسمية، ويداه في قفاز أبيض. وكانت قاعة هذا الصالون غاية في الفخامة

وحسن الرواء، ولها أربع نوافذ كبيرة أسدلت عليها ستائر من الحرير الأحمر، وتوهجت في سقفها وأركانها الثريات البلورية الثمينة !.. وقد تبينت في قلق واضطراب أن القاعة خالية تماما من الضيوف، ووصلت إلى سمعي أصوات الأطباق وأدوات المائدة منبعثة من القاعة المجاورة، قاعة الطعام! ومضى الخادم ففتح الباب الداخلي المؤدي إلى هذه القاعة الأخرى، فحزمت شجاعتي ودلفت إلى عتبتها، حيث طرقت الأرض بكعبي وانحنيت محييا. وسرعان ما صوبت إلى وجهي عشرات من العيون، وكلها غريبة على، تتساءل من يكون القادم المتأخر، الذي تسمرت قدماه على عتبة الباب ! ثم نهض سيد متقدم في السن، رجحت أنه صاحب الدار، فألقى منشفته على عجل وهرع نحوي، مادا يديه إلي في ترحيب بالغ!

وصدمني أن أراه على غير الصورة التي توقعتها: فبدلا من أن يكون بدينا مستدير الوجه، مفتول الشارب، تبين عليه نعمة الثراء والمعيشة المترفة، القيته– على العكس– نحيلا، منحني الظهر قليلا، متعب العينين، يضع على عينيه نظارة ذهبية الإطار، وفي صوته بحة متخلقة من سعال، وله لحية بيضاء هزيلة توحي لمن يراه، بالضافة إلى قسماته المرهفة، أنه أما أستاذ في جامعة! .. وإذ شرعت في تكرار اعتذاري، قاطعني الشيخ النبيل مؤكدا تقديره لعذري، شاكرا لي عناء أرسال رسول خاص يوضح ذلك العذر .. ثم أردف قائلا: "سوف يسعدني أن أقدم السيد لكل من حضرات الضيوف على حدة بعد العشاء، لكن ابنتي سيسعدها– كما يسعدني– أن أقدمك لها الآن بلا إبطاء !" .. ثم قادني

إليها، فرأيت فتاة دون العشرين، شاحبة، مرهفة، واهنة الجسم مثله، ترفع نحوي عينيها الغبراوين في خجل .. فانحنيت محييا إياها تحية خاصة، أعقبتها بتحية سريعة شاملة للمدعوين جميعا .. ثم جلست في المقعد الذي قدم لي.

وخلال الدقائق الثلاث الأولى، كان شعوري بالحرج مازال يلازمني! .. لم يكن حولي شخص واحد من زملائي في الفرقة، أو ضابط واحد في الجيش، أو أي أنسان أعرفه من أهل البلدة أو غيرهم! وإنما كانت جميع الوجوه غريبة علي، ولم يكن بينهم من يرتدي سترة رسمية سواي! يا الهي! .. كيف استطيع أنا الخجول أن أتحدث إلى كل هؤلاء الغرباء؟

وتلفت إلى يميني، فإذا بالجالسة إلى جواري هي تلك الحسناء الرائعة، ابنة أخت مضيفي! .. ويبدو أنها لاحظت نظرة الأعجاب التي رمقتها بها في حانوت الحلواني قبل أيام، فقد ابتسمت لي ابتسامة ودية كما لو كانت تعرفني منذ زمن. كانت عيناها مثل حبات البن، وحين تضحك كانتا كأنما تحدثان صوت البن أثناء "تحميصه" على النار! .. وكانت لها أذنان صغيرتان تكادان تكونان شفافتين، تختبئان تحت ثروة كبيرة من الشعر الفاحم الغزير، ولما ذراعان عاريتان خيل إلي أن ملمسهما لابد يشبه ملمس الخوخ المقشور!

كان جميلا أن أجلس بجانب مثل هذه الحسناء، ولاسيما أنها كانت تتحدث بلهجة هنغارية ناعمة .. كما كان جميلا أن أتناول العشاء

في قاعة تتألق أنوارها الباهرة، حول مائدة حافلة بأطيب الطعام وأفخره، وقد وقف ورائي ساق خاص يخف إلي عند أول إشارة! .. حتى جارتي الأخرى التي تجلس إلى يساري، وكانت تتكلم بلهجة بولندية، لم تكن تنقصها الفتنة! .. أم لعل الخمر هي التي أوحت إلي بذلك؟

وكانت الخمر نبيذا دمويا قاتما، و"شمبانيا" ذهبية براقة، راح السقاة ذوو القفازات البيضاء يصبونها في سخاء عجيب من أباريق فضية جميلة .. حقا! إن صديقي الصيدلي الطيب لم يكن يهذي حين قال لي أن "آل كيكسفالفا" يعيشون معيشة الأمراء!

وبعد انتهاء الطعام، الذي بدا كأنه بلا نهاية، سال في الكؤوس "قوس قزح" من المشروبات الخفيفة "الليكير": خضراء، وحمراء، وبيضاء، وصفراء.. وأعقبها السيجار السميك الفاخر، ثم القهوة الشهية!

***

وسيطر علي سرور عجيب، لم أدر أكانت علته أن الآخرين– الذين إلى يميني ويساري وأمامي– قد بدت عيونهم ملتمعة ببريق النشوة، وارتفعت أصواتهم في الحديث، وطرحوا الوقار جانبا، كما ألقوا بالتحفظ إلى الرياح الأربع وأخذوا يصخبون بملء حريتهم؟ .. على أية حال، فأني وجدت حيائي الفطري قد تبخر، فشاركت في الصخب بغير أدنى أجفال. وبدأت أتودد إلى كل من جارتي الجميلتين، في نشاط لا يعادله غير نشاطي في الشرب والضحك !.. ثم أخذت أنظر حولي بعينين

طائشتين نزقتين، وبرغم أن المصادفة وحدها قد تكون المسئولة عن احتكاك يدي في خفة– بين الحين والحين– بذراع "ايلونا" العارية الرائعة "فقد كان هذا اسم ابنة الأخت الحسناء الشهية"، فإنها لم تبد أية بادرة من بوادر الاستياء أو الضيق .. بل تركت هي الأخرى نفسها على سجيتها، فتحررت مثلنا جميعا من أكثر القيود!

وأثر تتابع المشروبات الجيدة المعتقة في جوفي، فأحسست– تدريجيا– شيئا من الخفة يكاد يغريني بالاندفاع والصخب لتكتمل نشوتي، وشعرت كذلك بالحنين إلى شيء لم أدر على التحقيق ما هو، ثم فتحت الأبواب المؤدية إلى قاعة ثالثة خلف الصالون، فانسابت إلينا موسيقى ناعمة، ذات الموسيقى التي كان يتوق إليها قلبي، ويتحرق كياني شوقا إليها: موسيقى رقصة الفالس السماوية، تشارك في عزفها الكمان والبيانو معا!

ونهضنا عائدين إلى الصالون، أزواجا أزواجا، فأعطيت "ايلونا" ذراعي. ومرة أخرى أحسست ببشرتها الباردة الناعمة المثيرة، ووجدنا القاعة قد أخليت مناضدها، فبدأ خشب الأرض "الباركية" الناعم كالمرآة المجلوة، يدعو إلى الرقص ويغري به.. فالتفت إلى ايلونا، فضحكت، وقرأت في عينيها أنها موافقة على الرقص معي. وسرعان ما كما نطير في الهواء دائرين حول أنفسنا في حلقات واسعة، ثم تكاثر الراقصون تدريجيا، بينما جلس الشيوخ والمتحفظون يتفرجون ويثرثرون. وكنت

أعشق الرقص وأتقنه، لكني لم أرقص من قبل بمثل هذه البراعة التي أبدتها في تلك الليلة!..

وفي الرقصة التالية شاركت جارتي الثانية، فانتشت حواسي وأنا منحن عليها أتنفس عطر شعرها، وشعرت بسعادة لم أتذوقها منذ سنوات، وازدادت إحساسا بشبابي، ثم أستخفني ميل قوي إلى أن أقبل كل شخص حولي، ومضيت أراقص الحاضرات واحدة بعد أخرى .. وثرثرت، وضحكت، وفقدت كل إحساس بالزمن!

الفصل الثاني

حين نظرت فجأة في ساعتي وجدتها تشير إلى العاشرة والنصف، في تلك اللحظة كنت قد قضيت ساعة كاملة من الرقص والمرح، ساعة كاملة لم أفطن خلالها إلى أنني نسيت أن أدعو أبنة مضيفي صاحب القصر للرقص .. لحظتها استشعرت الحرج، لا أعرف كيف أتيت هذا التصرف الخارج عن حدود اللياقة، لذلك بحثت ببصري عنها بين الحاضرات، كي أتدارك ما فاتني .

ولكني تذكرت أني لا أكاد أعرفها، فكل ما أذكره عنها– من النظرة الخاطفة التي رمقتها بها حين قدمني لها والدها على المائدة– أنها شاحبة الوجه، نحيلة الجسم، ذات عينين غبراوين ! ولم أجد الفرصة الكافية للتحديق في كل واحدة من عشرات المدعوات، وهكذا كدت أيأس من تمييز فتاتي المنشودة! ..

وأخيرا خطر لي أن أتجه إلى القاعة الثالثة، حيث كانت جوفة الموسيقى تعزف من وراء ستارة من الطراز الصيني. وما كدت أدخل هذه القاعة حتى تنفست الصعداء، فقد وجدتها هناك، بقوامها المرهف النحيل وثوبها الأزرق الفاتح، جالسة بين سيدتين عجوزين، وراء منضدة خضراء أنيقة عليها آنية مليئة بالأزهار .. وكان رأسها منحنيا قليلا، كأنما

هي تصفي بجماع روحها إلى الموسيقى. ولم أضيع وقتا في التأمل، بل اتجهت رأسا إلى حيث تجلس وانحنيت لها في تأدب، انحناءة الدعوة إلى الرقص، فرفعت نحوي عينين اختلطت فيهما الدهشة بشيء من الذعر! وظلت شفتاها منفرجتين قليلا، كمن قطع الاستغراب حديثها، لكنها لم تبد أدنى حركة تنم عن تأهبها لأن تتبعني إلى حلبة الرقص! .. ومن ثم انحنيت لها مرة أخرى وأنا أقول: "هل لك أن تمنحيني شرف هذه الرقصة يا أنسة؟"

.. وكان جوابها مروعا حقا! فسرعان ما ارتد رأسها مع كتفيها إلى الخلف في عنف وذعر، كأنها تتجنب صدمة، واندفع الدم إلى وجنتيها الشاحبتين، وتلاصقت شفتاها في قوة وحدة .. ولم يبق بلا حراك وجهها غير عينيها اللتين ارتسمت فيهما نظرة رعب لم أصادفها من قبل في حياتي!

وفي اللحظة التالية هزت جسمها المنفعل قشعريرة قوية، وبكلتا يديها اتكأت على المنضدة ورفعت نفسها بقوة جعلت آنية الزهر تهتز في مكانها بشدة، في الوقت الذي سقط فيه من مقعدها على الأرض شيء صلب– من الخشب أو المعدن– محدثا في ارتطامه بالأرض صوتا قويا! .. وظلت متعلقة بالمنضدة المتأرجحة على هذا الوضع نحو نصف دقيقة، وجسدها يهتز وينتفض بشدة، من أخمص قدميها إلى جذور شعرها، من فرط المجهود اليائس الجبار الذي بذلته .. وفجأة انفجرت تنشج باكية، في حرقة ضارية بهيمية!

وكانت المرأتان المسنتان قد أحاطتا بها تحتضنان جسمها المرتعش وتدللانها، محاولتين تهدئتها ونزع يديها- المتشبثتين بالمنضدة- في رفق .. حتى سقطت بين أيديهما وغاصت في مقعدها من جديد .. لكن بكاءها استمر، بل ازداد حدة، في نوباته المتقطعة الشبيهة بنزيف من الدم، أو نوبة من قيء شديد، بحيث لو توقفت الموسيقى لحظة لبلغ صوت النشيج مسامع الراقصين !

ووقفت في مكاني مشدوها، ورحت أسائل نفسي: ترى ماذا حدث؟! ونظرت في قلق وحيرة إلى المرأتين، وإلى الفتاة الباكية التي مازالت تنتحب، مخفية وجهها بين يديها فوق المنضدة، وجسمها يهتز معه آنية الزهر، مما زاد في قلقي، حتى لقد أحسست في أطرافي برودة كالثلج، وخنقتني ياقة قميصي كما لو كانت حبلا محرقا يلهب رقبتي .. وأخيرا وجدت صوتي لأقول متلعثما: "أرجو المعذرة!"، ثم انسحبت متعثرا إلى الصالون!

.. وكان الرقص محتدما فيه كما كان، وقد بدا أن أحدا لم يلحظ شيئا مما حدث، فانزويت في ركن أسائل نفسي في حيرة: "هل ارتكبت حماقة ما؟! لابد أني ثملت بحيث فعلت شيئا رهيبا، دون أن أشعر!" .. ولم يكد الرقص يتوقف، وتنفصل "ايلونا" عن مراقصها، حتى جذبتها من ذراعها- في شيء من الخشونة- إلى ركن قصي، وأنا أهتف بها: "بربك ساعديني .. أناشدك .. أوضحي لي!" .. وتدافعت نبضات قلبي وأنا

أروي لها القصة بحذافيرها .. وشد نا أذهلني أن أرتسم في عينيها مثل الذعر الذي رأيته في حدقتي أبنة خالها، ثم صاحت بي:

– هل جننت؟.. ألا تعلم؟.. ألم ترها؟

فقلت لها وقد غاص قلبي جزعا من نظرتها:

– كلا! .. لم أر شيئا، ولست أفهم شيئا .. أنها أول مرة أدخل فيها هذا البيت!

فأردفت: "ألم تلحظ أن "أديث" كسيحة؟ أما رأيت ساقيها المشلولتين العاجزتين؟ أنها لا تستطيع أن تخطو خطوتين بغير عكازيها! وأنت .. أنت تذهب فتدعو الطفلة المسكينة إلى أن ترقص! .. أوه! .. هذا فظيع! يجب أن أذهب إليها من فوري!"

وأمسكت "ايلونا" من ذراعها وقلت لها في توسل:

– على رسلك هنية، أرجو أن تحملي إليها اعتذاري.

لم يكن في وسعي أن أعرف .. لم أرها إلا لحظة واحدة أثناء العشاء! .. أرجو أن توضحي الأمر لها!"

لكن ايلونا انتزعت ذراعها من يدي غاضبة وهرعت إلى القاعة المجاورة، بينما وقفت أنا على عتبة الصالون الذي يموج بالصخب، وقد

بدا لي في تلك اللحظة سمجا لا يحتمل، وجعلت أحدث نفسي وقد غص حلقي وجف لعابي: "لن تنقضي خمس دقائق حتى يعرف الجميع أمر هفوتي الشنعاء، وحينئذ يغمرونني بنظرات الازدراء والسخرية .. وغدا تصبح غلطتي موضوع أحاديث أهل البلدة جميعا، طعاما دسما لمئات الألسنة الخبيثة، يوزع على الأبواب مع لبن الصباح! .. وغدا تعرف الفرقة بأسرها قصتي!"

وفي تلك اللحظة لمحت والد الفتاة مقبلا، فاشتد خفقان قلبي، وسالت نفسي حائرا قلقا: "ترى هل علم بما حدث؟ وهل هو مقبل نحوي؟.. كل شيء أهون عندي من أن ألقاه!"

وتملكني بغتة خوف قاتل منه، ومن الحاضرين جميعا!

.. ودون أن أعرف ما أنا فاعل مضيت متعثرا نحو الباب المؤدي إلى البهو، ومنه إلى خارج البيت .. الذي تحول في نظري إلى قطعة من الجحيم! .. وسألني حارس الباب مستغربا، في لهجة تنطوي على الاحترام: "هل يزمع سيدي الملازم أن يغادرنا هكذا مبكرا؟" .. فأجبته من فوري: "نعم" .. لكن الكلمة لم تكد تخرج من فمي، ويتأهب الرجل لمعاونتي على ارتداء معطفي، حتى أدركت بوضوح أنني أرتكب بالفرار على هذه الصورة المنطوية على الجبن حماقة جديدة لا تغتفر! على أني لم أستطع التراجع– وقد فات أوانه!– ولم يسعني، والحارس يفتح لي الباب، أن أكرر راجعا وأعيد إليه المعطف ثم أعود إلى الصالون!

وهكذا وجدت نفسي فجأة واقفا خارج ذلك البيت اللعين، تسفح الريح الباردة وجهي، ويحرق الخجل قلبي، وأنفاسي اللاهثة تتردد متقطعة بصعوبة، كأني أوشك أن أختنق!

***

تلك هي السقطة الخرقاء التي كانت بداية الأمر كله! .. والآن، حين أعود بخيالي إلى الوراء، في هدوء الذكرى البعيدة التي مرت عليها أعوام طويلة، وأستعرض الحادث البسيط الذي أدى إلى سلسلة من الأحداث المفجعة، لا أملك غير أن أقرر– إنصافا لنفسي– أنني كنت بريئا كل البراءة من مسئولية ذلك الحادث .. إن أذكى البشر ما كان له في مثل موقفي أن يتفادى دعوة الفتاة إلى الرقص، ما دام لا يعلم أنها مشلولة، لكني في غمرة الفزع الأولى عددت نفسي أحمق متهورا، بل وغدا مجرما! شعرت كما لو كنت قد جلدت طفلا بريئا بسوط!

ولا شك أن الأمر كله كان يمكن أن يعالج بشيء من حضور البديهة، أما أن أفر من المكان، كالمجرم الجبان، دون أن أحاول الاعتذار أو الإعراب عن أسفي، فهذا ما أفسد الأمر كله .. وقد تبينت ذلك بوضوح في اللحظة التي وطأة فيها قدماي أرض الطريق ولفح الهواء البارد وجهي!

لست أستطيع أن أصف حالتي النفسية وأنا واقف خارج الدار! كانت الموسيقى وراء النوافذ المضاءة قد توقفت، كي يأخذ العازفون

قسطا من الراحة دون شك، لكني من فرط شعوري المحموم بإثمي حسبت أن الرقص قد توقف بسببي، وتصورت أن المدعوين جميعا قد تقاطروا إلى حيث جلست الفتاة الباكية كي يخففوا عنها مصابها، وراحوا يستمطرون اللعنات على الفاجر الأثيم الذي دعا فتاة كسيحة إلى الرقص، ثم انسحب عقب فعلته الشنعاء في جبن ونذالة!

.. وكان هذا التصور وحده كافيا لتصبب العرق البارد من جبيني! ولم أشك في أن فضيحتي هذه ستصبح موضع تندر أهل البلدة جميعا، ولن تتعب ألسنة زملائي في الجيش من أن تلوك سيرة زميل لهم متى سمعوا بسقطته الطريفة هذه!

وليس في وسعي أن أتذكر الآن كيف بلغت مخدعي في تلك الليلة! .. كل ما أذكره أنني ما كدت أدخله حتى هجمت على خزانة كنت أحتفظ فيها بزجاجة من الكونياك لأقدم منها لمن يزورني من الأصدقاء، فتجرعت أكثر من نصفها جرعة بعد جرعة، بغية التخلص من شعور الغثيان الفظيع الذي كنت أحسه ... ثم ارتميت على الفراش بثيابي كاملة، ورحت أسترجع الأمر كله في ذهني!

وكما تنمو الأزهار نموا سريعا حين توضع في منابت من الزجاج، كذلك تزدهر الأفكار الضارية المجنونة في الظلام! .. ومن ثم أخذت تطوف بذهني المكدود أغرب الرؤى والخيالات.

فيما يشبه الحلم المخيف أو الهذيان السخيف! .. وتتابعت على مخيلتي أحداث المستقبل المتوقعة: التحقير مدى الحياة، والنبذ من المجتمع، والسخرية من الزملاء، والثرثرة من أهل البلدة .. وهكذا لن أستطيع الخروج إلى الطريق، خشية الالتقاء بواحد من الذين يعرفون جريمتي!

وحين دهمني النوم أخيرا، كان نوما خفيفا متقطعا، تتخلله الرؤى المفزعة. ولم أكد أفيق منها حتى عاودتني صورة الوجه الصبياني الباكي، والشفتين المختلجتين، واليدين المتشبثتين بالمنضدة في تشنج عصبي .. وخلتني أسمع صدري سقوط ذلك الشيء الصلب على الأرض، الشيء الذي أدركت فيما بعد أنه عكاز الفتاة! .. وتملكني رعب جنوني من أن يفتح بابي فجأة ويدخل منه رجل نحيل طويل، بسترة سوداء ونظارة باطار مذهب، هو والد الفتاة! .. فقفزت من فراشي فزعا .. وإذ نظرت إلى نفسي في المرآة، ورأيت عرق الندم والخوف على وجهي، راودتني رغبة ضارية في أن أحطم ذلك الوجه الغبي الأحمق: وجهي!

لكن النهار الرحيم طلع أخيرا .. وبدأ صدى الخطى العسكرية يتردد في الممر .. وحين يشرق ضوء النهار من نافذتك، تصفو أفكارك أكثر منها وأنت غارق في الظلمة الخبيثة التي يلذ لها أن تخلق لك الأشباح .. فوجدتني أهون على نفسي وقع الحادث: من يدري، ربما لم ينتبه إليه أحد! لكنها هي، تلك المخلوقة البائسة الكسيحة، أنها حتما لن تنساه، ولن تصفح يوما! .. وفجأة، برق في ذهني خاطر فيه شيء من

العزاء، فسارعت إلى إصلاح هندامي وتهذيب شعري، واندفعت من غرفتي كالسهم المنطلق، غير عابئ بتابعي "المراسلة" الذي راح يناديني صائحا: "سيدي الملازم .. "هر لفتننت" .. القهوة معدة!". لكني مضيت أنهب السلالم نهبا، وأصطدم بكل من يعترض طريقي .. حتى خلفت المعسكر ورائي ورحت أعدو صوب أقرب حانوت تبيع صاحبته الخضروات والأزهار معا، وكانت أمامه بطاطس قد أفرغ نصفها .. فاختلقت للمرأة عذرا كاذبا يبرر عجلتي وأوصيتها بإعداد سلة من أحسن ما عندها من زهور، غير عابئ بأن ثمنها يستنفد كل ما تبقى لي من مرتبي الشهري .. بل أني وجدت لذة غامضة في أن أعاقب نفسي، وأكفر عن فعلتي تكفيرا غاليا!

وبعد أن غادرت الحانوت وسرت مبتعدا، لحقت بي المرأة لاهثة متسائلة: "إلى أين .. إلى من ترسل الأزهار؟".

وكنت قد نسيت– في غمرة انفعالي– أن أترك لها الاسم والعنوان، فقلت لها: "إلى فيلا كيكسفالفا .. إلى الآنسة أديث فون كيكسفالفا". فقالت المرأة في اعتذار: "آه، آل كيكسفالفا .. أنهم خير عملائنا!". وهممت بالانصراف، لكن المرأة عادت فسألتني: "ألست تريد أن تكتب كلمة إلى الآنسة المهدى إليها؟" .. فدخلت الحانوت من جديد وأخرجت من جيبي بطاقة كتبت عليها: "مع خالص اعتذاري". لكني لم ألبث أن مزقتها، قائلا لنفسي: "كلا! هذه حماقة ثالثة، لماذا أذكر الفتاة بسقطتي الشنعاء؟" ماذا أكتب إذن؟ .. هل أكتب "مع الأسف

الخالص؟" .. كلا! .. ولا هذه أيضا، فقد تحسبني أرثي لحالها! .. ورأيت أخيرا ألا أكتب شيئا على الأطلاق، فقلت لبائعة الزهور: "حسنا! ضعي بطاقة باسمي فقط!".

وشعرت بالارتياح .. فعدت إلى المعسكر، حيث احتسيت قهوتي وانهمكت في واجباتي العسكرية، وإن ظللت أحس كأن قطعة من الإسفنج المغموس في المر تسد حلقي!

وعند الظهر، فيما أنا أتهيأ للذهاب إلى مطعم الضباط، أقبل تابعي يحمل إلى خطابا: ظرفا أزرق، تفوح منه رائحة عطر خفيف، كتب عليه أسمي وعنواني بخط رقيق، خط امرأة! .. ففضضته على عجل، وقرأت فيه: "خالص شكري، يا عزيزي الملازم، من أجل هدية الزهور الجميلة التي لا أستحقها، والتي اغتبطت– وما زلت مغتبطة– بها .. فأرجو أن تحضر لتناول الشاي معنا في عصر أي يوم يناسبك، ولا تكلف نفسك مشقة أخطارنا بموعد حضورك مقدما، فاني– وأسفاه– مقيمة دائما بالبيت."

"أديث ف . ك ."

قرأت الخطاب مرة ثانية وثالثة، ثم تنفست الصعداء .. ما أحصف وألبق اللهجة التي بها مسحت الفتاة على جرحي، ومنحتني غفرانها! ..

وانتابني شعور المتهم الذي وطن نفسه على صدور الحكم عليه بالسجن المؤبد، حين يفاجئه القاضي بحكم البراءة!

وكان لابد من أن أزور الفتاة في أقرب فرصة، لأشكرها، وكنا في يوم الخميس .. إذن فلأذهب يوم الأحد .. كلا، بل السبت! .. ولم أطق على الانتظار! كانت تطاردني اللهفة على الاطمئنان إلى أن أثمي قد محى إلى الأبد، وعلي وضع حد للقلق الذي يساورني، والشك الذي يكتنف الموقف .. وكانت نتيجة هذا الانفعال النفسي أنني بينما كنت أتنزه مع أعز صديقين لي في اليوم التالي- الجمعة- وجدتني أصمم فجأة على تأدية زيارتي المرموقة في اليوم نفسه! فاستأذنت منهما على حين غرة، ثم انطلقت في سبيلي إليها.

كانت المسافة التي تفصلني عن قصر كيكسفالفا تستغرق مسيرة نحو نصف ساعة مشيا على الأقدام، فمضيت أغذ السير لا ألوي على شيء، وما لاحت لي أسوار القصر البيضاء وبوابته الحديدية حتى بدأت شجاعتي تتبخر تدريجيا، فوددت لو أعود أدراجي قبل فوات فرصة الفرار .. ودون وعي مني أخذت أبطئ في سيري، ثم تعمدت إطالة الطريق، وإفساح الفرصة، بالالتفاف حول أسوار القصر من الخارج، وإلقاء نظرة عليه من خلال الثغرات التي تتخلل السور.

كان القصر صرحا منيفا من طابقين، مطليا باللون الأصفر، على الطراز النمسوي القديم، عدا نوافذه التي طليت أخشابها خضراء. وكان

أقرب القصور الريفية التي رأيت بعضها في أقاليم "بوهيما"، منه إلى الفيلات العصرية!

وبلغت في طوافي بوابة الدار، للمرة الثانية، فحزمت شجاعتي وسرت بين صفين من الأشجار السامقة إلى الباب الأمامي، ورفعت الطارق البرونزي الثقيل الذي يقوم في الدور العتيقة مقام الجرس. وبعد لحظة أقبل كبير الخدم، ولم يبد أنه فوجئ بزيارتي غير المتوقعة، بل لقد تجاهل البطاقة التي أمسكتها في يدي. دون أن يوجه إلى سؤالا ما، دعاني بانحناءة مؤدبة إلى الانتظار في الصالون، قائلا: "إن السيدات مازلن في حجرتهن، لكنهن سيحضرن في خلال لحظات" .. ثم قادني إلى الداخل، كما لو كانت زيارتي متوقعة!

وتذكرت في شيء من الحرج وعدم الارتياح معالم الصالون الذي قضيت فيه سهرتي الأولى المشؤمة، وذكرتني مرارة فمي بأن الباب الذي في مواجهته يقود إلى القاعة التي كانت الفتاة تجلس في ركن منها وقت "الحادث"! .. ولكن أيقظني من تأملاتي وذكرياتي صوت مقاعد تجر وراء الباب، وهمسات مكتومة، وحركة أقدام ذاهبة وآيبة، تنم عن وجود بضعة أشخاص .. ثم ضجيج أطباق وأدوات المائدة .. وأخيرا خيل إلي– وقشعريرة باردة تسري في نخاعي– أني أسمع صوت عكازين!

ثم فتح الباب وبرزت منه ايلونا، فبادرتني قائلة: "كم هو ظريف منك أن تحضر يا هر لفتننت "سيدي الملازم"!"، ثم قادتني رأسا إلى

الغرفة المجاورة .. وهناك، في الركن نفسه، وعلى المقعد نفسه، وراء المائدة الخضراء بعينها، جلست الفتاة المشلولة، وقد غطت ساقيها بغطاء من الفراء الأبيض .. وابتسمت لي ابتسامة تحية ودية، ورغم ذلك فإنها كانت لحظة حرجة أليمة بالنسبة لكلينا! ولم ينجح أحدنا في أن يجد الكلمة الأولى التي تحطم الموقف الثلجي الذي اكتنفنا .. حتى قطعت "ايلونا" الصمت الخانق بقولها تسألني:

– ماذا نقدم لك يا هر لفتننت؟ الشاي أم القهوة؟

– أوه، أي شيء يروق لكما ..

– بل ما يروقك أنت، ولا تدع للكلفة مقاما بيننا!

– إذن فلتكن القهوة ..

كانت ايلونا بارعة في إزالة حرج اللحظة الأولى، وبذلك السؤال العملي، ولكن لم يكن جميلا منها أن تترك الغرفة بعد ذلك كي تأمر بإعداد القهوة، فقد أدى ذلك إلى تركي وحيدا مع "ضحيتي"! .. وكان لابد من أن أقول شيئا، استأنف به الحديث، بأي ثمن! لكني شعرت بجفاف في حلقي وارتباك في نظرتي .. فتنفست الصعداء حين ابتدرتني مضيفتي قائلة: "هلا جلست يا هر لفتننت؟ هيا، تناول هذا المقعد ذا الذراعين .. ولم تخلع سيفك .. أحسبنا لن نشتبك في الحرب! .. ضعه على المنضدة أو على حافة النافذة .. حيثما تشاء!".

وجررت مقعدي، وأنا ما أزال أحس بقية من حرج، أنقذتني منه الفتاة مستطردة: "أجد من واجبي أن أشكرك مرة أخرى من أجل أزهارك اللطيفة .. أنها رائعة كما ترى .. ثم ينبغي أن أعتذر أيضا عن حماقة إجهاشي بالبكاء. كان مسلكي مخجلا حقا، فلم أستطع النوم طيلة الليل من جرائه

.. لقد كنت أنت حسن النية، وما كان يمكن أن تكون لديك أدنى فكرة عن الحقيقة! .. ثم أنك– وأطلقت ضحكة عصبية مباغتة– قد توصلت إلى قراءة أعمق أفكاري في تلك اللحظة، فإني لم أحن إلى شيء وقتئذ قدر شوقي إلى المشاركة في الرقص .. أنك لا تتخيل كم أنا شغوفة بالرقص، حتى لأستطيع أن أظل ساعات طويلة أرقب الراقصين، بلا ملل، حتى أشعر كأني أنا التي ترقص، وتطير على أجنحة الأنغام! .. وقد كنت في صباي أجيد الرقص، ولعل ما أصابني كان خيرا بالنسبة لأبي، فلولاه لفررت حتما من البيت وأصبحت راقصة! .. فليس أروع من أن تثير الفنانة المئات والألوف من الناس بجسدها، وحركاتها، وكيانها كله، ليلة بعد ليلة! .. أنه مجد رائع حقا .. وأني أحتفظ لأعظم الراقصات– مثل بافلوفا، وكارسافينا، وساهاريه– بصور تمثلهن في جميع رقصاتهن .. إليك هذه الصور، أنها في الصندوق الصغير القريب من المدفأة .. لا، لا، إلى اليسار، بجوار المكتب .. نعم، هذا بالضبط "وكنت قد عثرت عليه أخيرا وحملته إليها" .. أنظر هذه مثلا، أنها صورتي المفضلة: بافلوفا في دور "البجعة المحتضرة" .. آه لو استطعت أن أراها فقط، أنه يكون أسعد يوم في حياتي!"

وكان الباب الذي خلفنا بسبيل أن يفتح، فسارعت "أديث" إلى إغلاق صندوق الصور بحركة مفاجئة عنيفة– شأن من ضبطت ترتكب جرما!– وهمست لي بلهجة آمرة: "زلا كلمة أمام الآخرين عما حدثتك بصدده .. ولا كلمة!"

.. ثم دخل الخادم يجر عربة شاي محملة بأطيب المأكولات والحلوى، تتبعه ايلونا، التي أفرغت محتويات العربة على المنضدة ثم عادت إلى مجلسها معنا .. وتشعب بيننا الحديث في موضوعات مختلفة، ووجدتني أسترد تدريجيا هدوئي وأثرثر معها على سجيتي .. بل أني استطعت أن أختلس–بين الحين والآخر– نظرات جانبية إلى الفتاتين، وأقارن برغمي بينهما: كانتا جد مختلفتين في مظهرهما، فإحداهما– ايلونا– امرأة ناضجة، ممتلئة بالحيوية المثيرة، مكتملة الصحة والنشاط .. بينما الأخرى– أديث– تبدو إلى جانبها طفلة ونصف امرأة، في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، بينها وبين النضج مرحلة طويلة! .. كان التناقض بينهما صارخا، يغري المرء بأن يراقص الأولى، ويقبلها! .. أما الأخرى فحسبه أن يلاطفها– بصفتها كسيحة– ويدللها ويحميها .. وقبل ذلك كله يصانعها ويجاريها، فقد كانت عصبية الحركة، لا تكاد تستقر على وضع، كأنما تعوض بذلك ساقيها! .. وكانت– بأسئلتها الكثيرة ولهجتها الخفيفة– تركز الانتباه في شخصها دون غيرها، وتضفي على الحديث جاذبية خاصة!

واستمرت جلستنا نحو الساعة ونصف الساعة، ثم أطل من القاعة المجاورة شبح متلصص، كأنما يخشى أن يزعجنا .. وكام هو الهر "كيكسفالفا" والد الفتاة، ولما رآني أهم بالوقوف تأدبا، رجاني مخلصا أن أبقى حيث أنا، ثم مال على جبين أبنته فطبع عليه قبلة، واتخذ مجلسه بجانبها كما لو كان طبيبا يجلس إلى مريضته. وحين لحظ أن جو الحديث اعتراه شيء من الفتور والتحفظ، حاول أن يعيد إليه طابع الألفة السابقة فتبسط في سؤالي عن الفرقة وعن رؤسائي، السابقين والحاليين، وخيل إلى أنه يتعمد أن يظهر لي مبلغ اختلاطه وقوة صلاته بهم جميعا ..

ورأيت أن زيارتي قد استنفدت هدفها، وفقدت جاذبيتها، فاعتزمت أن أبقى عشر دقائق أخرى ثم أنصرف ..

ولكن، حدث في تلك اللحظة أن أقبل رئيس الخدم وهمس في أذن أديث بشيء، فانفجرت صائحة في وجهه: "دعه ينتظر .. بل قل له أن يتركني اليوم وشأني .. قل له أن يذهب. لست في حاجة إليه!"

وأحسسنا جميعا بالحرج إزاء عنف لهجتها، فنهضت وقد أدخل في روعي أني أطلت البقاء، لكنها هتفت بي على الفور: "كلا! .. بل أبق .. لا تلق بالا إلى الأمر. أنه لا شيء!" .. وكانت لهجتها الآمرة تنطوي على الخشونة، الأمر الذي أشعر أباها بالحرج، فصاح بها لائما: "أديث!"

.. وكأنما أحست الفتاة بخروجها عن طورها، فالتفتت إلى معتذرة: "أغفر لي .. أنع العذاب اليومي المألوف، المدلك الذي يجري لي تدليكا طبيا .. أنها أخر مبتكرات طبيبنا العزيز، وهو علاج عقيم، كغيره!" .. ونظرت إلى أبيها في تحد، كأنما تعتبره المسئول .. فانحنى الشيخ المحطم عليها في اضطراب، وقد شعر بالخجل ولا ريب لوجودي، وقال لها في مذلة: "ولكن يا طفلتي العزيزة .. أتعتقدين حقا أن دكتور كوندور ..؟"، وإذ ذاك أحمر وجهها وغمغمت في رضوخ: "حسنا، سأذهب، رغم أنه أمر لا جدوى منه .. أرجو المعذرة يا سيدي الملازم، وأرجو أن تأتي لزيارتنا ثانية في القريب" .. فانحنيت لها وأنا أهم بالانصراف، لكنها عادت تقول لي: "كلا! بل أبق مع أبي حتى أعود!"، ثم هزت الجرس اليدوي الصغير الموضوع على المنضدة، والذي رأيت مثله على كل منضدة في البيت، وحين أقبل رئيس الخدم قالت له وهي تلقي الفراء عن قدميها: "ساعدني على الوقوف!"

.. وكان ما حدث على الأثر مفجعا للغاية، فقد رفع الرجل جسمها الهزيل تحت إبطيه بحركة ألفها ولا شك، فوقفت الفتاة لحظة متكئة على مسندي المقعد، وهي تحدجنا بنظرة تحد، ثم تلمست العكازين اللذين كانا تحت الفراء .. ورفعت جسمها عليهما وهي تزم شفتيها في انفعال، ثم سارت تنقل عكازا بعد الآخر في حذر وأناة، والخادم خلفها، مادا ذراعيه على قيد شبر منها، كي يتلقاها إذا أوشكت أن تسقط!

واعتصرت قلبي يد ثقيلة وأنا أرى المنظر المؤثر، وأدركت لماذا أبت أن تعاونها "ايلونا" على المسير أو تجلسها في مقعدها ذي العجلات .. لقد أرادت– بدافع من الرغبة الغامضة في الانتقام، التي ولدها في نفسها اليأس– أن تريني، أنا بالذات، أنها كسيحة .. أن تعذبنا بعذابها! ..

وأخيرا، بعد زمن خلته دهرا، بلغت الباب منهوكة من فرط المجهود الذي بذلته وهي تلقي بثقل جسمها كله على كل عكاز بدوره .. وكانت طرقات العكازين الجافة على الأرض، وصرير الحوامل المعدنية المربوطة في قدميها، قد أثارت أعصابي بحيث أحسست بدقات قلبي تكاد تهز سترتي العسكرية هزا!

ولم أسترد بعض هدوئي إلا حين ابتعدت خارج الحجرة، فخفتت الأصوات الرهيبة رويدا رويدا .. حتى تلاشت!

.. عندئذ فقط جرؤت على أن أرفع عيني، فإذا الأب التعس قد وقف بالنافذة، يطل على الفضاء السحيق .. ولمحت كتفيه تهتزان. إن المسكين قد عجز بدوره عن احتمال عذاب طفلته! .. ومضت دقائق مفعمة بالصمت الثقيل، قبل أن يستدير إلي قائلا: "أرجو ألا يغضبك مسلك ابنتي يا سيدي الملازم .. أنك لا تعلم كم قاست خلال هذه السنين .. وفي كل حين يجرب معها علاج جديد .. لكن الأمر يسير ببطء شنيع. أني لا الومها على نفاذ صبرها، ولكن ماذا نفعل؟ لابد أن

نجرب كب وسيلة، أليس كذلك؟". ثم وقف بإزاء مائدة الشاي المهجورة، بما عليها من شراب وطعام، وتناول ملعقة صغيرة، ثم قال دون أن ينظر إلي، كأنما يحدث الملعقة: "أنك لا تتصور كيف كانت في الماضي .. لم تكن تكف عن الحركة طيلة اليوم، تجري هنا وهناك، وتصعد السلم وتهبطه .. وفي سن الحادية عشرة فقط كانت تركض بجوادها عبر الأحراش بسرعة لا يجاريها فيها أحد، في خفة واستهتار ومرح، حتى ليشعر من يراها بانها ليست في حاجة إلى أكثر من أن تفتح ذراعيها كي تطير! .. من كان يتخيل أن يحدث هذا لها، هي دون الناس جميعا!"

وراحت يده القلقة تتناول الأشياء ثم تدعها، وترسم بملقط السكر دوائر ورسوما على غطاء المائدة! .. كان المسكين يخشى أن يلتقي بصره ببصري، من فرط خجله واضطرابه! .. ثم استطرد فقال: "ومع ذلك فما أيسر إدخال السرور على قلبها، حتى في هذه الأيام .. بعد كل ما أصابها! أنها تجد سعادة "صبيانية" في أتفه شيء، تضحك من أبسط نكتة، ويستثير حماسها أي كتاب. ليتك رأيت مبلغ غبطتها حين وصلت سلة أزهارك وطرحت عن ذهنها عبء الظن بأنها قد أساءت إليك .. أنك لا تعلم مدى حدة حساسيتها نحو كل شيء. أني واثق بأن أحدا منا ليس أكثر منها أسفا على ما بدر منها منذ برهة من تصرف ينقصه ضبط النفس .. ولكن كيف يمكن أن تتحكم البائسة في أعصابها وهي لا تكاد تلمس تحسنا في حالتها، أو أملا في شفائها من الكارثة التي ابتليت بها، هي التي لم تفعل في حياتها شرا، ولم تؤذ أحدا!"

وكأنما أفاق الرجل من استرساله، وأدرك أنه يتكلم أمام شخص غريب، فقال معتذرا بلهجة من استيقظ من سبات: "أغفر لي يا سيدي الملازم! .. لست أدري لماذا أصدع رأسك بمتاعبنا .. لقد أردت أن أوضح الأمر لك كي لا تسيء الظن بها!" .. ولا أعلم كيف واتتني الشجاعة على أن أقاطع الشيخ الحائر، ولكن فجأة وجدتني أقترب منه وأتناول يده، ثم آخذها بين يدي .. ولم أقل شيئا، كل ما فعلته أني تناولت اليد الباردة المعروقة– التي حاول أن يسحبها من يدي خجلا– وضغطتها. فنظر إلي في دهشة وقد لمعت خلف منظاره نظرة حائرة، خشيت معها أن يقول شيئا، لكنه لم يتكلم، بل اتسعت حدقتاه السوداوان، كأنما يوشك أن يبكي! .. وانتابني أنا الآخر تأثر عميق لم أشعر بمثله من قبل .. ولكي أفر منه، انحنيت على عجل وغادرت الحجرة! .. وحين بلغت البهو، شعرت– والخادم يعينني على ارتداء معطفي– بأن الرجل قد تبعني، كي يشكرني، فتجاهلت إحساسي به، بغية تجنب المزيد من الحرج ..

وبارحت البيت المفجوع وقلبي يدق صدري بشدة!

الفصل الثالث

كانت غبشة الفجر تسدل أستارها على بيوت البلدة. حينما خرجت وكتيبة الفرسان في جولة صباحية، وفيما نحن ندفع بجيادنا لأن تركض بأقصى سرعتها، ونسيم الفجر يحمل إلى أنفاسنا عطر الحقول المزدهرة، فيملأ صدورنا انتعاشا وحبورا، ودماء الشباب الدافئة في أجسامنا النابضة بالحياة .. لاحت لنا من بعيد أسوار قصر "كيكسفالفا" البيضاء وقبابه العالية، وللفور طعن قلبي إحساس مباغت بالرثاء للفتاة الكسيحة، المحرومة من نشوة الصحة والحرية، والفرحة بقوة الشباب! .. خيل إلي أنه قد يجرح شعورها أن تراني هكذا منطلقا كالسهم المارق أو الطائر السعيد، وشعرت بالخجل من سعادتي الجسمانية، كما يخجل المرء من امتياز لا يستحقه! .. لكن ذهني تصدى لعاطفتي بالحجة المقنعة والمنطق السليم، فلم ألبث أن تبينت سخافة إذلال النفس على هذه الصورة. أدركت أنه لا جدوى في أن ينكر الإنسان على نفسه متعة ما، لا لشيء إلا لأن غيره محروم منها! ويأبى على نفسه السعادة، لأن غيره شقي! .. ففي الوقت الذي نضحك فيه، ونتبادل النكات، يوجد أناس– في أماكن مختلفة من العالم– راقدين على فراش الموت .. وآخرون، خلف ألف نافذة ونافذة، يعانون البؤس، أو يتضورون جوعا .. وهناك المستشفيات المليئة بالمرضى والجرحى .. والسجون العامرة بالمعذبين .. والمصانع والمناجم والمكاتب التي يشقى فيها الملايين من

البشر، في كل ساعة من ساعات النهار .. ولن يخفف من شقاء إنسان واحد أن يشقى إنسان آخر نفسه بنفسه، بغير مبرر! .. بل لو حاول شخص أن يفكر في مآسي الغير، ويصور لنفسه صنوف البؤس التي تنطوي عليها الدنيا في كل وقت، لاستعصى عليه النوم، وماتت البسمات على شفتيه إلى الأبد!

لكن منطق الحجة والإقناع لم يفلح طويلا في إزالة أثر الكآبة التي اعترتني في ذلك الصباح، والتي كانت أول أعراض ذلك السم الغريب الذي بدأ يسري في كياني: سم "الشفقة"! .. أحسست أن شيئا غير عادي قد حدث لي، فقد عشت حياتي قبل ذلك لا أبالي شيئا غير مطالب يومي.

كان هناك من يدبر لي شؤوني العائلية ويرسم لي مستقبلي ويختار مهنتي، بغير أن أحمل هما أو أفكر في أمر! وكان هذا التحرر الكامل من المسئولية جد مريح لي، دون أن أشعر- فإني لم أشعر بمتعته إلى الآن!- الآن حين أدركت فجأة أن شيئا قد حدث لي، شيئا داخليا لا يبدو على السطح! ..

لم أكد أطالع في عيني الكسيحة تلك النظرة المنطوية على أعمق معاني الألم الإنساني، حتى أحسست شيئا يشطرني شطرين! .. لكني شعرت الآن بدفء مفاجئ يسري في كياني ويبعث فيه ما يشبه "حمى" غامضة، أدركت معها أني قد خرجت من الدائرة التقليدية التي عشت

فيها آمنا من قبل، إلى محيط جديد، مثير ومقلق في آن معا! .. وللمرة الأولى رأيت هاوية عاطفية تفغر فاها في وجهي، وتغريني بأن ألقي بنفسي فيها .. لكني في الوقت ذاته سمعت هاتفا غريزيا يحذرني من هذا الفضول النزق، صائحاً: "كفى! .. لقد قدمت لهما الاعتذار الكافي وكفرت عن حماقتك، فقف عند هذا الحد!" .. ثم اعقب هذا الصوت صوت آخر يهمس لي: "اذهب لتراها مرة أخرى، وتشعر بتلك الرجفة من الخوف والترقب تسري في نخاعك" .. لكن الصوت الأول عاد يحذر: "ابتعد عن طريقها .. ولا تفرض وجودك على مشاعرها .. فإن هذه الانفعالات الحادة لأكثر مما تحتمل هي، أو تحتمل أنت، وإلا فإن سذاجتك سوف تورطك في حماقة أبشع من الأولى!"

على أن زمام الاختيار لم يلبث أن يفلت من يدي، حين تلقيت بعد أيام ثلاثة خطاباً من الهر كيكسفالفا يدعوني فيه إلى تناول العشاء في داره مساء الأحد، برفقة أحد كبار رجال وزارة الحرب، وآخرين، ثم يضيف أن أبنته و"ايلونا" سوف يسرهما بصفة خاصة أن أحضر! .. ولا أنكر أني شعرت، تلقاء هذه الدعوة، بشيء من الزهو، كما تبينت بوضوح ما يبذله كيكسفالفا من جهد كي يعرفني ببعض ذوي النفوذ!

***

ولا حاجة بي إلى القول بأني قبلت الدعوة على الفور، ولم أندم على ذلك قط، فقد كانت السهرة ممتعة حقا. حظيت فيها بما لم أحظ به في حياتي من التفات كبار القوم الحاضرين إلي، واحترامهم لي،

وسألني موظف وزارة الحرب عما إذا كنت راضيا عن الفرقة التي انتسب إليها، وعن آمالي في الترقية، ثم طلب مني ألا أتردد في زيارته إذا احتجت إلى مساعدة أو هبطت "فينا" في أي وقت! .. وكما في المأدبة السابقة، أديرت علينا أطباق الطعام الفاخر والشراب الشهي، وتملكني زهو صبياني وأنا أرى نفسي أستمتع بذلك الترف في صحبة هؤلاء القوم البارزين! .. ووددت لو يراني زملائي في الفرقة وموظف وزارة الحرب يشرب نخب صحتي، ومدير شركة السكر يبدي إعجابه بسعة اطلاعي!

وبعد أن دار علينا السقاة بالقهوة و"الليكير" والسيجار الفاخر، مال كيكسفالفا على أذني ليخيرني بين الانضمام- بعد العشاء- إلى الرجال في لعب الورق، وبين البقاء لأثرثر مع الفتاتين. وكان طبيعيا أن أخترت البقاء مع الفتاتين، فما كنت لأخاطر باللعب مع الموظف الكبير، معرضا نفسي لاستيائه- لو ربحت- ولإفلاسي أنا، لو خسرت! .. فضلا عن أن جيبي لم يكن يحوي ليلتئذ غير عشرين ريالاً، هي كل ما تبقى لي من مرتب الشهر!

وهكذا بقيت مع الفتاتين. وبدت لي كلتاهما أبهى جمالاً ورواء منها في المرتين السابقتين، وبخاصة "أديث"، التي لم أرها هذه المرة شاحبة سقيمة كالمرة السابقة. ترى هل وضعت شيئا من المساحيق الحمراء، إكراماً لضيوفها؟ .. أم أم بهجة السهرة قد أرسلت الحمرة إلى خديها؟ على أية حال لم يكن ثمة أثر للتجاعيد حول شفتيها، وللدوائر السوداء المحيطة بعينيها! .. أما "ايلونا" فقد خيل إلي أنها كانت ثملة

قليلا، من فرط التماع عينيها .. وحين ألقت كتفيها المستديرتين الرائعتين إلى الخلف، وهي تبتسم، لم أجد بدا من التراجع إلى الوراء بدوري، كي أتجنب أغراء لمس ذراعيها العاريتين!

وبعد عشاء كهذا، وخمر طيبة أشاعت الدفء الممتع في بدني .. وفي صحبة رائعتين إلى جانبي، ما كنت لأجد أدنى صعوبة في الثرثرة المرحة الطليقة! صحيح أنها كانت حكايات ونوادر تافهة تلك التي رويتها، لكني سريت بها عن الفتاتين إلى حد أثار دهشتي أنا نفسي، فلم تكفا لحظة عن الضحك، ولا سيما أديث، التي علت ضحكتها الفضية ذات الجرس الرنان، واحمرت وجنتاها النحيلتان الشفافتان– كالبلور– وأضاءت وجهها مسحة من الصحة والجمال المشرق، كما التمعت عيناها الغبراوان بمرح صبياني .. بصورة أيقنت معها أن انشراحها حقيقي، ينبع من أعماقها! وكم كان جميلا أن يراها الإنسان تنسى عاهتها وتترك نفسها على سجيتها، فتضحك، وتشرب، وتميل بجسمها إلى الخلف في مرح، وتجذب "ايلونا" إليها فتحيط كتفيها بذراعها! .. وشجعني "نجاحي" فعادت إلى ذاكرتي عشرات النوادر اللطيفة التي كنت قد نسيتها منذ زمن وهكذا لبثنا ثلاثتنا نصخب ونهرج في ركننا القصي، كأطفال المدارس! .. على أنني برغم استغراقي فيما أنا فيه، لم يفتني أن ألحظ– بنصف وعي– عينين تراقبانني طيلة الوقت من خلف منظاريهما، من مائدة اللعب القصية، وترمقانني بنظرة دافئة سعيدة، ضاعفت من سعادتي .. وحين التقت أعيننا مرة، أثناء ذلك، أومأ كيكسفالفا إلي إيماءة ودية وقد أشرق وجهه! واستمرت حالنا على هذا المنوال حتى

قرب منتصف الليل، حين أدير علينا مدد جديد من الشطائر الشهية والمشروبات المعتقة والمرطبات، فأكلنا جميعا وشربنا في حرية وانطلاق. وأخيرا حان أوان الانصراف، فهزت الفتاتان يدي كما لو كنت صديقا قديما عزيزا. وكان على أن أعدهم بالعودة إلى زياراتهم في أقرب فرصة، وفي اليوم التالي أو الذي يليه .. وفيما أنا أهم بارتداء معطفي، أقبل مضيفي يعاونني على ذلك، فاحتججت في خجل وحيرة، ولكنه أصر هامسا لي: "أوه، يا سيدي الملازم .. أنك لا تستطيع تصور مبلغ سعادتي بسماع ابنتي تضحك ثانية، من أعماقها! أنها لا تظفر من الحياة بغير فرص نادرة للمتعة، وقد كانت الليلة كعهدي بها في الأيام الخوالي!"

وكان في لهجته من اللطف والدماثة والعرفان، ما ملأ نفسي سعادة ويأسا في وقت واحد، حتى كاد تأثري يفضحني أثناء عودتي إلى المعسكر في سيارة موظف وزارة الحرب، بدعوة كريمة منه!

***

لم أستطع النوم في تلك الليلة– لفرط انفعالي– إلا بعد محاولات طويلة .. فقد شعرت، للمرة الأولى في حياتي، بأنني كنت مصدر نفع لمخلوق ما على الأرض! .. ولم يكن ثمة حد لدهشتي وعجبي من كوني– وأنا الضابط البسيط الخامل– يمكن أن يكون لي من السلطان ما يدخل السعادة القصوى على قلب إنسان آخر! .. ولكي أصور مدى نشوتي باستكشاف هذه الحقيقة، ينبغي أن أشير إلى أمر قد يكون فيه شيء من الإيضاح: ذلك أني منذ طفولتي كان يسيطر على نفسي شعور

دائم بأني مخلوق تافه، لا يثير احتفال الناس أو اهتمامهم بأمره .. وخلال سنوات دراستي بالكلية الحربية لم يطرأ ما يغير هذا الاعتقاد، فلم أكن فيها أكثر من طالب عادي متوسط الذكاء، لا يدخل في عداد الطلبة الموهوبين أو المحبوبين. وظلت هذه حالي حين تخرجت وعينت في فرقتي، فما كان اختفائي أو موتي ليثير في نفوس زملائي غير شعور وقتي بالرثاء، ثم ينسى الجميع أمري! .. وكما كنت فردا تافها في نظر أخواني، كنت في نظر الفتيات القلائل اللواتي عرفتهن في القريتين السابقتين اللتين عسكرت فيهما الفرقة .. ففي الأولى كانت صديقتي ممرضة في عيادة طبيب أسنان .. وفي الثانية تعرفت إلى خياطة بسيطة الحال كنت أخرج للنزهة معها، وفي يوم العطلة آخذها إلى غرفتي .. وقد أهديتها يوم عيد ميلادها عقدا صغيرا من المرجان. وحين نقلت، تبادلنا الرسائل العاطفية المألوفة فترة من الزمن، ثم نسى كلانا صاحبه!

فماذا حدث اليوم؟ .. هل يعقل أن شابا بسيطا هذا شأنه، ليس في جيبه خمسون ريالا يستطيع أن يدعي ملكيتها، يدخل على قلب رجل واسع الثراء نصيبا من السعادة عجز عن إغداقه عليه جميع أصدقائه؟ .. وهل يعقل أن أكون– أنا الملازم هوفميلر– مصدر نفع وعون وراحة لنبيل عريق في الجد مثل كيكسفالفا؟ .. أو أنني إذا قضيت أمسية أثرثر مع فتاة كسيحة معذبة، يشرق الهناء في عينيها، وتدب الحياة في وجنتيها، ويغمر البيت الذي كان مأوي للكآبة فيض من النور والحبور، بسبب وجودي .. أنا؟!

.. وفي غمرة نشوتي وانفعالي، رحت أذرع الشوارع المعتمة بخطى سريعة أشاعت الدفء في كياني، وأنا أستمرئ استعراض المراحل القصيرة التي أدت إلى ظفري بصداقة هؤلاء القوم الكبراء بمثل هذه السهولة! .. فماذا فعلت حتى بلغت هذه المكانة؟ .. لم أفعل أكثر من أني أظهرت شيئا من العطف، وقضيت ليلتين ممتعتين ضحكت فيهما وثرثرت، وأكلت وشربت .. وكفى! .. وإذن فما أحمق وما أغبى أن يبدد المرء أوقات فراغه يوما بعد يوم في المقهى، في ألعاب سخيفة، مع أناس سخفاء .. أو يتسكع في الطرقات كالبلداء!

.. وانتهيت من تفكيري، أنا الشاب الذي بعث فجأة إلى الحياة، إلى وجوب أحداث "انقلاب" تام في أسلوب معيشتي: إلى الإقلال من التردد على المقهى، وتطليق تلك الجلسات البليدة التي تؤدي إلى تراكم الصدأ على الذهن .. على أن أكثر من زياراتي لتلك المريضة البائسة، وأحاول التجديد في وسائل تسليتها بمختلف الأحأديث والألعاب، كالشطرنج مثلا!

وأمدني تصميمي على أن أكون مصدر عون ونفع للآخرين، بنوع من الحماسة، فشعرت بميل شاذ إلى أن أغني، إلى أن أرتكب حماقة! فإن الإنسان لا يحس أي معني أو هدف لوجوده حتى يتبين أنه– في نظر غيره– مخلوق له وزن، وأهمية، واعتبار!

.. وفي الأسابيع التالية، أخذت أقضي الجانب الأكبر من أمسياتي في دار كيكسفالفا .. وسرعان ما غدت هذه الجلسات– التي ترفع فيها الكلفة– بمثابة "عادة" لي، بل انغمست فيها إلى درجة لما خطورتها! .. لم تكن الساعة الخامسة مساء تجيء حتى أهرع إلى هناك، فيفتح لي الباب "جوزيف" رئيس الخدم مرحبا، وأقابل من الجميع كما لو كنت فردا من الأسرة .. ثم أجلس في مقعدي المختار المواجه لمقعد "أديث" ونأخذ ثلاثتنا في الثرثرة والضحك دون أدنى كلفة!

وثمة عامل هام ضاعف من نشوتي واستمتاعي برفقة الفتاتين، هو أني طيلة الأعوام الخمسة عشر السابقة منذ أرسلت في سن مبكرة إلى الكلية الحربية– عشت في بيئة كلها ذكور، فنشأت وقد ألفت حركاتهم وأصواتهم وخشونتهم، ورائحة التبغ التي تفوح منهم. وجو الذكور– مهما تكن شخصيات أفراده– ينقصه دائما شيء ما، فهو أشبه بجوقة موسيقى الجيش "النحاسية" التي مهما يجيد عازفوها، تظل تنقصها نعومة الآلات "الوترية"! .. ولست أنسى في هذا الصدد شعورنا ونحن طلبة في الرابعة عشرة، يوم كنا نخرج في طوابير للنزهة في المدينة، فتأخذنا الحسرة حين نرى أندادنا في السن يستمتعون بصحبة الفتيات التي تحرمنا منها ستراتنا العسكرية ذات الأشرطة الذهبية الأنيقة! .. كنا أشبه بسجناء خلف قضبان حديدية، ننظر إلى هذه المخلوقات الناعمة نظرتنا إلى جينات مسحورة، ونحلم بحديث واحد مع فتاة، كما يحلم الأنسان بغاية مستحيلة! .. مثل هذا الحرمان لا ينسى بسهولة، وأحلام الصبا العاطفية لا تكفي في التعويض عنها تلك المغامرات الرخيصة التي عرضت لنا فيما

بعد مع نساء الهوى المحترفات وأمثالهن .. بل أستطيع أن أقول أني بعد أن قضيت ليالي كاملة في مخادع نساء من ذلك الطراز، ظللت كالعهد بي، أرتبك كلما قدمت إلى فتاة في مجتمع!

أما الآن، فإن اشتياقي الطويل إلى عقد صداقة مع فتيات من الجنس الآخر، قد بلغ هدفه فجأة، وعلى الوجه الأكمل! .. وصار جلوسي إلى الفتاتين كل مساء، والاستمتاع بأنوثة صوتهما وحركاتهما، يدخل على قلبي شعورا بالبهجة والانشراح .. وكم أسعدني أن أجد نفسي– للمرة الأولى في حياتي– قد تحررت من خجلي الممقوت في حضرة الفتيات! .. بل تحررت، نظرا للظروف الشاذة التي نشأت فيها صلتنا، من ذلك التوتر أو "التكهرب" الذي يسود الجو عادة كلما خلا رجل وامرأة معا، لفترات طويلة من الوقت .. وأعترف بأني في البداية لقيت عناء كبيرا في مقاومة أغراء شفتي "ايلونا" الممتلئتين الشهوانيتين، وذراعيها البضتين الجميلتين، والجاذبية الحسية التي تشع من كل حركاتها الناعمة المياسة، حتى لقد اضطررت أكثر من مرة إلى أن أرد يدي قسرا في أخر لحظة عن الرغبة في لمس المخلوقة الدافئة الناعمة، ذات العينين السوداوين الضاحكتين، واحتوائها بين ذراعي، وتغطية جسمها بالقبلات! .. ولكن "ايلونا" كانت قد أسرت إلى منذ بداية تعارفنا أنها مخطوبة منذ عامين إلى طالب حقوق، وأنها لا تنتظر كي تتزوج منه غير تحسن حالة أديث، أو شفائها تماما .. وقد فهمت من ذلك أن كيكسفالفا قد وعد أبنة أخته الفقيرة ببائنة سخية، لو انتظرت حتى ذلك الحين! .. وفضلا عن ذلك، فإنه كان من الغدر البين، والخيانة الأثمة،

أن نتبادل القبلات الحامية– عن غير حب– من وراء ظهر المخلوقة البائسة المقيدة في قسوة إلى كرسيها ذي العجلات!

وهكذا لم تلبث فتنة "ايلونا" أن صارت لا تثير قلقلي واضطرابي! .. في الوقت الذي تركزت فيه عواطفي في الفتاة الكسيحة العاجزة التي قست عليها الحياة .. حتى غدا يسعدني أن أجلس إليها فأسري عنها، وأرى ابتسامة الغبطة على فمها، ونظرة العرفان في عينيها، وأنعم بمختلف متع صداقتنا البريئة .. أكثر مما يمكن أن يسعدني أي غرام جارف مع امرأة أخرى!

وبفضل هذه الانفعالات الروحية الخفية التي سمت بي إلى طبقات العاطفة العليا، اكتشفت مناطق شعورية رقيقة لم أكن أعرفها من قبل! والإنسان بطبعه حين يتذوق متعة عاطفة ما، في سني الشباب، يعجز عن الارتواء منها، أو الاكتفاء بقدر .. وهكذا لم أكد أسمح لشعور الشفقة بأن يتسلل إلى أعماقي، حتى بدا كأن سما غريبا قد وجد طريقه إلى دمي، فزاده حرارة وسرعة، واحمرارا وتدفقا! ..

وجدتني فجأة استجيب لمائة مؤثر ومؤثر لم يكن لها علي فيما مضى أدنى تأثير، كأنما تلك النظرة الأولى إلى آلام الآخرين قد منحتني عينا جديدة، أفطن وعيا، وأذكى بصيرة! .. ولما كانت دنيانا متخمة بالمآسي العنيفة، حافلة بالبؤس المفجع والأسى المرير، فقد بت أقضي أيامي، ليلي ونهاري، مرهف الحس، متفتح الشعور .. ولأول مرة وجدتني

بغتة أعجز عن أن أقسو على الجواد الحرون بضربة وحشية! .. وأتقزز ألما واشمئزازا حين يفاجئ ضابط جنديا غبيا بلطمة شديدة من قبضة يده! .. وفي الوقت الذي كان فيه زملائي يضحكون ساخرين من المضروب، كنت وحدي ألمح دموع الخجل الحارة تلمع على أهدابه، تحت أجفانه المطرقة! .. بل أني غدوت فجأة أضيق بنكات الزراية والاستهزاء التي يسلق بها بعض الزملاء سيرة من يوقعه حظه السيء تحت ألسنتهم!

لقد صرت– منذ لمست في شخص أديث المسلوبة الحول والطول عذاب العاجزين التعساء– أثور غضبا لأي فعل فيه قسوة، وأذوب شفقة على المنكوب بأية صورة من صور العجز! .. وكم من أمور تافهة– لم أكن من قبل ألحظها!– غدوت أتنبه لها منذ ألقت المصادفة في عيني تلك القطرات الأولى الحارة من الأشفاق!

وقلت لنفسي: "منذ الآن سأجعل رائدي أن أساعد أي إنسان. سأكف عن جمودي وعدم مبالاتي .. وليكن مصير كل شخص مصيري، ولأجعل شفقتي تتسع لشتى وجوه الألم البشري .. ولأتوجه بقلبي شاكرا للفتاة الكسيحة أنها علمتني– من خلال آلامها– سحر الشفقة وقوتها!"

***

على أني لم ألبث أن استيقظت من أحلامي العاطفية، في شيء من العنف! كنا نلعب "الدومينو" ذات سماء، ونحن نثرثر ونضحك كعادتنا،

فغفلنا عن مرور الوقت .. حتى حانت مني نظرة إلى الساعة فإذا هي قد بلغت الحادية عشرة والنصف، وإذ ذاك نهضت من فوري أستأذن في الانصراف .. وبينما كان مضيفي يرافقني إلى الباب، بلغ مسامعنا صوت كطنين النحل. كان المطر ينهمر في الخارج بغزارة، فأصر كيكسفالفا على تكليف سائق سيارته بأن يوصلني بها إلى المعسكر .. وانطلقت بي السيارة الفاخرة تنهب الطريق في سهولة ويسر. وقبل المعسكر ببضع مئات من الأمتار طلبت من السائق الوقوف، وهبطت هناك– حتى لا يراني أحد الرؤساء أهبط من السيرة الفارهة أمام باب المعسكر، والسائق ينحني لي وهو يفتح بابها، كأني نبيل عريق!– لقد كنت أعلم أنهم يمقتون مثل هذه المظاهر. وكنت، إلى جانب ذلك، قد حرصت خلال الأسابيع السابقة، بوحي من غريزتي، على تجنب الخلط بين عالمي المتناقضين: عالم الأبهة والترف في دار كيكسفالفا، حيث كنت رجلا حرا مدللا .. وعالم الصرامة والواجب، حيث يكون الشهر ثلاثين يوما، لا واحدا وثلاثين!

وما كدت أهبط من السيارة على مسافة من المعسكر، وأرفع ياقة معطفي تأهبا لعبور المرحلة الباقية مسرعا، حتى اشتد المطر وهاجت العاصفة، فرأيت أن أحتمي منهما داخل باب احدى الدور حتى تفرغ السماء ميازيبها .. ثم تذكرت أني على بعد أقدام من مقهاي القديم، ولمحت النور ينبعث منه، فرأيتها فرصة مناسبة للقاء الزملاء الذين انقطعت فجأة عن مجالستهم منذ أكثر من أسبوعين! .. ووجدت منهم في ركنهم المألوف: جوسي، وفيرنز، وجولدبوم– طبيب المعسكر–

فهتف "فيرنز" حين رآني من بعيد: "هالو .. ها هو ذا "توني"!"، وأردف الطبيب: "ياله من شرف لمقهانا المتواضع!" .. واستدارت نحوي ست عيون مستطلعة، فسرني ترحيب الزملاء بي، برغم انقطاعي الطويل عنهم دون إيضاح أو اعتذار! .. وأقبل الساقي يجر قدميه جرا من فرط النعاس، فطلبت قدحا من "القهوة السوداء".

وسألت الإخوان عن أخبارهم .. فنفخ فيرنز شدقيه وقال في لهجة تمثيلية: "أحدث أخبارنا أن سعادتكم قد تنازلتم فشرفتم مقرنا المتواضع بطلعتكم النبيلة!"

ونظر إلى الجميع في مرح تهكمي، فشعرت بقلبي يغوص في قدمي، وفكرت في المبادرة بالفرار قبل أن يسألني الخبثاء أين قضيت الفترة السابقة، ومن أين جئت الآن؟! .. ولكن قبل أن يستقر تصميمي على شيء، غمز فيرنز بعينه لجوسي، وقال: "أنظر .. ما رأيك في هذه الظاهرة الغريبة: حذاء لامع نظيف في هذا الطقس الممطر!؟ .. وسيجار فاخر في الجيب، سبقه ولا ريب عشاء ممتع، وكافيار، ودجاج .. الخ". وهنا انضم جوسي إلى زميله في السخرية، فقال: "الشيء الذي أعتب فيه على صديقنا العزيز "توني" أنه بدلا من أن يذكر لمضيفه أن له أصدقاء ظرفاء مهذبين، يعرفون آداب المائدة، ثم يأخذهم معه إلى هناك، أبى ألا أن يذهب وحده ولسان حاله يقول: "دعهم يملؤون بطونهم بمشروبات المقهى القذرة وأطعمته الكريهة، ولأنعم أنا بكل الطيبات!" .. فياله من مسلك نبيل!"

وانفجر الثلاثة ضاحكين، في الوقت الذي أحمر فيه وجهي كالقرمز، وقد ساءني أن ينتبه الخبثاء إلى السيجار الذي أعتاد كيكسفالفا أن يضعه في جيبي كل ليلة قبل خروجي! .. لكني لم أجد بدا من تكلف مغتصبة لإخفاء ارتباكي، ثم سارعت إلى إخراج علبة سجائري ومددت يدي بها إليه، لكني أدركت توا أنني بتصرفي هذا حاولت إصلاح الموقف بحماقة أبشع: فقد كانت العلبة هدية من الفتاتين، طاب لهما أن تفاجئاني بها منذ أيام- لمناسبة عيد ميلادي الخامس والعشرين- وقد دستاها لي بين الطبق والمنشفة: على مائدة العشاء! .. وكان طبيعيا أن يتلقف الزملاء هذه "القفشة" الجديدة فيوسعونني تهكما، فقد هتف فيرنز من فوره وهو يصفر بفمه ويتناول كلها من يدي- ولم يكن في وسعي أن أمنعه!- ثم يزن ثقلها في راحة يده: "هو هوه! .. مظهر آخر من مظاهر الترف! .. أنها من الذهب الخالص فيما أحسب، أليس كذلك يا جولدبوم؟"

وكان الطبيب "جولدبوم" ابن صائغ يهودي من صياغ الذهب، فتناول علبة السجائر في يده ووضع منظاره على عينيه، ثم راح يفحصها فحص الخبير الواعي، وقال أخيرا: "نعم، أنها من الذهب الخالص، تحفة يسيل لها لعاب الفرقة بأسرها، ولا تقل قيمتها عن ثمانمائة ريال!"

وبعد أن نطق بهذا الحكم الذي أدهشني أنا نفسي- فقد كنت أحسبها مطلية بمجرد "قشرة" فقط من الذهب- ناولها بدوره إلى جوسي، الذي جعل يقلبها بين يديه في احترام وتوقير لقيمتها، ثم فتحها

في حذر .. وإذا هو يصيح مهللا: "يا له من إهداء .. اسمعوا يا رفاق: "إلى صديقنا العزيز أنطون هوفميلر، في عيد ميلاده .. من "ايلونا" و"أديث"! .. وحملق الثلاثة في وجهي! بينما صاح فيرنز: "يا للشيطان! انك تحسن اختيار أصدقائك في هذه الأيام، فأهنئك! لقد كنت خليقا أن تعد نفسك سعيدا لو أهديتك علبة كبريت معدنية مثلا!" .. وأحسست بغضة في حلقي! غدا تعلم الفرقة كلها بقصة العلبة الذهبية، بل تحفظ عبارة الإهداء عن ظهر قلب! .. وسوف يحرجني "فيرنز" في نادي الضباط، ويطالبني بعرض الهدية على الرؤساء .. فتتناقلها أيديهم، ويتجاوب المكان بصدى ضحكاتهم الساخرة .. ثم يجئ دور استجوابي عن مصدرها، وعندئذ يستحيل أن أرفض طلب رؤسائي، أو أكذب عليهم!! .. وفي غمرة ارتباكي، أردت أن أغير مجرى الحديث، فقلت متسائلا: "هل منكم من يريد أن يلعب مباراة شطرنج أخرى؟" .. فصاح جوسي ضاحكا: "أتسمع يا فيرنو؟ في الثانية عشرة والنصف، والمقهى يوشك أن يغلق أبوابه، يريد أن يبدأ اللعب!" .. فقال الطبيب معلقا: "إن الرجل السعيد لا يشعر عادة بمرور الوقت!"

ثم خرجنا، بعد أن تبادلوا الضحك، وكان المطر قد انقطع، فمشينا إلى المعسكر .. وهناك تصافحنا وتفرقنا. وقال لي فيرنز وهو يضرب على ظهري: "أننا مسرورون بعودتك إلينا يا صاح ..". وأعتقد أنه كان مخلصه، فلم أملك أن سألت نفسي، بعد انصرافهم: "لماذا أحقد عليهم؟ .. أنهم أصدقاء ظرفاء، وقلوبهم خالية من الحسد أو الخبث، وهم لم يقصدوا بدعابتهم غير المزاح!"

على أن مزاحهم ودعابتهم قد أتلفا في نفسي شيئا لا يمكن إصلاحه، ذلك هو ثقتي بنفسي! .. فحتى تلك الليلة كانت صلتي بأسرة كيكسفالفا قد زادتني تقديرا لنفسي، منذ شعرت– لأول مرة في حياتي– أني مصدر نفع وعون للآخرين .. ولكن أني لأولئك الزملاء الماجين أن يدركوا المعاني السامية التي انطوت عليها تلك الصلة؟ .. إن كل ما جال بخاطرهم أني رحبت بضيافة البيت الكريم المترف كي أنعم بثراء القوم، فأوفر أجر وجبة العشاء، وأظفر بالطعام والشراب الفاخرين، والهدايا الثمينة! .. ولم يكن الخبثاء يلومونني في قلوبهم من أجل ذلك، أو يرون فيه أدنى غضاضة، أو معنى من المعاني المنافية للشرف والكرامة، بل كانوا يعتقدون أننا– نحن ضباط سلاح الفرسان– أنما نضفي على أولئك الأثرياء "الحمقى" شرفا مضاعفا، بالجلوس إلى مائدتهم! .. ومن ثم كانت نظرة الزملاء إلى علبة سجائري الذهبية منطوية على الاحترام لبراعتي في "استغلال" كرم "الصيد الدسم" الذي ظفرت به! .. وكان هذا– بالذات– مبعث غيظي وحنقي .. فقد انتهى بي التفكير في الأمر إلى أن بدأت أتشكك في حقيقة دوافعي النفسية التي تغريني بالتردد على القصر كل حين! .. وبدأت أسال نفسي: "ترى هل أنا طفيلي حقا؟ وهل يليق بمثلي أن يتقبل المآدب المتصلة، والهدايا المتلاحقة؟ وتذكرت فجأة ملاحظة أبداها كيكسفالفا عن بلادة جوادي الخاص– وكنت ما أزال أدفع ثمنه بالتقسيط– وكيف انتهى الرجل منها إلى التفكير في أن "يقرضني" من حظائره العامرة جوادا ممتازا من جياد السباق!

وقلت لنفسي: "كلا! هذا كثير .. أنه يحاول أن "يشتريني"، يدفع نقدا ثمن عطفي وإشفاقي على ابنته، وتسليتي إياها .. تماما مثلما وعدا "ايلونا" ببائنة في مقابل بقائها لتمريض الفتاة المسكينة والترفيه عنها! .. وأنا– بسذاجتي المعهودة– وقعت في هذا "الفخ" دون أن أدرك أنني بذلك قد صرت طفيليا!"

لكني عدت أقول لنفسي أيضا: "هذا محض هراء! إن الرجل يحبني كما لو كنت ابنا له .. والفتاتين تعاملانني بكل ترحيب واحترام، وتسران كلما رفعت الكلفة معهما كأني في بيتي."

ولكن ماذا يجدي أي قدر من الإيحاء النفسي، والتشجيع الذاتي، إذا كان توازن الشخص الداخلي قد اختل واضطرب؟ لقد زعزعت عبارات زملائي ثقتي في حقيقة دوافعي الشخصية، فجعلت أسأل نفسي ملحا مكررا: "هل أنا أذهب إلى هناك– حقا– بدافع الشفقة على الكسيحة؟ .. أم بدافع الرغبة في قضاء وقت طيب في رفقة قوم كرماء؟

.. على أية حال يجب أن أوقف الأمر عند هذا الحد، كيلا يظن أحد أني فرضت نفسي على القوم وتطفلت عليهم!" وهكذا قررت أن أطيل المدى بين زياراتي للقصر في المستقبل، وأن أمتنع عن الذهاب إليه في اليوم التالي! .. ثم نفذت هذا القرار فلم أذهب في اليوم التالي إلى القصر، بل خرجت بعد انتهاء عملي في صحبة جوسي وفيرنز إلى المقهى، حيث قرأنا الصحف واشتركنا في الألعاب .. لكني لعبت وأنا

شارد الذهن، فقد كانت على الحائط المواجه لي ساعة كبيرة لم تكف عقاربها عن شغل أفكاري وانتباهي .. الرابعة والثلث .. الرابعة والنصف .. الخامسة إلا ثلث .. الخامسة إلا عشر دقائق .. وكنت قد عودت آل كيكسفالفا أن أصل إلى دارهم في الرابعة والنصف بالضبط، فأجد الشاي معدا .. وإذا حدث أن تأخرت يوما ربع ساعة، لأمر ما، استقبلوني متسائلين في قلق: "هل حدث شيء؟" .. وإذن فلا بد أن أنظارهم الآن معلقة بالساعة مثلي، والانتظار يمضهم بدورهم! .. ومن ثم رأيت لزاما على أن أعتذر لهم بالتليفون، أو أريل إليهم تابعي، ورأيت أن أتخلص من مواجهتي للساعة بإبدال مكاني مع أحد اللاعبين، بزعم أن مقعدي لا يجلب الحظ .. لكن أعصابي ظلت مرهفة، ولأول مرة أدركت أن العطف الصادق لا يمكن قطع تياره بالسهولة التي يقطع بها "التيار الكهربائي" .. وإن كل من يشغل نفسه بمصير أنسان غيره فلا بد أن يفقد– إلى حد ما– حريته!

لكني عدت أعنف نفسي على اهتمامي الزائد بتخلفي عن الزيارة اليوم. وبحكم القانون الطبيعي لتسلسل الأفكار، الذي يجعل الشخص الحانق يصب غضبه عادة على شخص آخر بريء تماما، ولا صلة له ببواعث ذلك الخنق .. فإني صببت غيظي المكتوم على كيكسفالفا، لا على جوسي أو فيرنز! .. وأخذت أحدث نفسي قائلا" "فلينتظروني مرة في العمر .. سوف أريهم أني لست بالذي يشرى بالهدايا والطعام والشراب، وأني لن أواظب على زياراتهم مواظبة المعلم، أو المدلك المأجور!"

وهكذا بقيت في المقهى، متحاملا على نفسي، ثلاث ساعات ونصف ساعة .. كي أثبت لنفسي أنني ما زلت حرا، أذهب حيثما أريد ووقتما أريد، وأن الطعام الفاخر والسيجار الغالي- وما إليهما- لا تهمني في كثير أو قليل! .. وحين غادرنا المقهى، اقترح فيرنز أن نتنزه مشيا على الأقدام، لكني لم أكد أطأ الرصيف حتى تنبهت إلى نظرة خاطفة من عينين مألوفتين لدي، مر بي صاحبهما مسرعا .. أليست هذه "ايلونا"؟ .. أنها هي بلا شك، ولو لم أعرفها من ثوبها النبيذي اللون، وقبعتها الخفيفة ذات الشريط العريض، لعرفتها من اهتزاز ردفها الرشيقين أثناء سيرها .. ولكن، ترى إلى أين تهرع بهذه السرعة؟

وودعت صديقي فجأة ولقت بالفتاة .. وحين استوقفتها أخيرا لم يبد عليها أثر الدهشة، فأدركت أنها رأتني وهي عابرة، وقلت لها: "يا لها من مصادفة رائعة أن أقابلك هنا! لقد طالما أردت أن أربط معالم مدينتنا العسكرية المقبضة، أم تفضلين أن نجلس في حانوت الحلواني بعض الوقت؟: .. لكنها اعتذرت بأنها تبغي العودة إلى البيت على عجل، ولما لم تفلح محاولاتي لأقناعها عرضت عليها أن أصحبها إلى السيارة التي تنتظرها في مكان قريب .. وفي أثناء الطريق سألتني عفوا خلال الحديث: "على فكرة، لم لم تأت عصر اليوم؟" .. فزعمت لها أن رئيسي أخذني معه ليريني حصانا يريد أن يشتريه، ويطلب مني أن أركبه على سبيل التجربة- "وكانت هذه الواقعة قد حدثت منذ شهر كامل!"- فقالت وهي تكظم عصابيتها: "ألا تحضر معي الآن على الأقل للعشاء؟" .. فهمست لنفسي على الفور: "كن حازما ولا تتراجع. اصمد يوما

واحدا على الأقل!" .. فأجبتها وأنا أتنهد أسفا: "كنت أحب أن آتي، لولا أن لدينا اجتماعا مهما في هذا المساء .."، فصمتت ولم تعلق بكلمة، حتى دلفت إلى داخل السيارة، فسألتني خلال النافذة: "هل ستأتي غدا؟". فقلت: "أوه نعم، سأحضر بلا شك".

.. وحين مضت بها السيارة انتابتني الهواجس، وسألت نفسي: "لماذا كانت ايلونا متعجلة مرتبكة؟ .. وهل لم يكن يجدر بي أن أكلفها بإبلاغ تحيتي إلى خالها وابنته؟" .. لكني سررت من ناحية أخرى لأني صمدت ولم أذهب، كي لا يزعم أحد أني من المتطفلين!

الفصل الرابع

ذهبت إلى القصر في اليوم التالي، فاستقبلني "جوزيف" بترحاب، ثم أخبرني بأن الآنسة قد صعدت إلى البرج، وطلبت أن ألحق بها عند حضوري.

قادني الخادم إلى المصعد الكبير الذي أعده صاحب القصر خصيصا بعد نكبة ابنته، حتى لا يحرمها من الصعود بقعدها إلى الشرفة الجميلة التي قضت فيها أسعد أوقات طفولتها .. لكني آثرت الصعود بالسلم، لأستمتع بالمناظر الخلابة المحيطة بالقصر، من نافذة كل طابق .. وحين بلغت السطح الفسيح تأهبت للقاء الفتاة، وكان ظهر مقعدها إلي، وإلى جانبها منضدة صغيرة عليها بعض الكتب، و"جراموفون" مفتوح .. فرأيت أن أدور حول مكانها من بعيد حتى لا أفاجئها من الخلف مباشرة فتفزع .. فلما أتممت دورتي وصرت في مواجهتها، تبينت أنها نائمة! وكانت ساقاها مدثرين بغطاء ثقيل، وقد أرحت رأسها على وسادة بيضاء، وأحاطت بوجهها الشاحب– المفعم طفولة– هالة من الشعر الفاتح، المائل إلى الحمرة .. بينما أضفت الشمس الغاربة على وجنتيها مسحة من ذهب وكهرمان، تنم عن الصحة!

وانتهزت الفرصة لأتأمل الفتاة على مهل– لأول مرة– كما لو كانت صورة .. فأنها– ككل ذات طبيعة حساسة– لم تكن وهي مستيقظة

تسمح للعين بأن تراقبها أو تتأملها بنظرة طويلة فاحصة. أما الآن فقد أتيحت لي الفرصة كاملة، وإن كنت أحسست كأني أرتكب أمرا غير لائق، بل كأني أغتصبها بالإكراه! .. كانت الطفولة والأنوثة تختلطان في معلم وجهها بصورة جذابة .. وراحت شفتاها المنفرجتان قليلا– كما لو كانت ظامئة– تتنفسان في هدوء ورقة. ولكن حتى هذا المجهود الضئيل كان يرفع صدرها الواهن ويخفضه في حركة ملحوظة. أما وجهها الشاحب، المقيم وسط هالة شعرها كعصفور في عشه، فقد غاص في الوسادة، وبدا كالمنهوك الذي أمتص منه دمه! .. واقتربت منها أكثر، في حذر بالغ، فإذا الظلال التي تحت عينيها، والشرايين الزرقاء على صدغيها، والشفافية الحمراء لخياشيمها، تظهر مدى رقة بشرتها التي تحمي لحمها المرمري الشاحب من العالم الخارجي. وحدثت نفسي قائلا: "ما أرهف إحساس الشخص الذي تكون أعصابه مكشوفة هكذا، وملاصقة للسطح الخارجي .. وكم يكون ألم الشخص الذي له مثل هذا الجسد الهوائي الخفيف، الذي كأنما جعل ليحلق ويرقص ويسبح، حين يحكم عليه بأن يقيد– في قسوة– إلى الأرض الثقيلة الصلبة! .. مسكينة هذه المخلوقة الكسيحة!"

ومرة أخرى أحسست في أعماقي اضطرام تلك الشفقة الموجعة، المنهكة، الضارية، التي تغمرني كلما فكرت في الفتاة التعسة .. فاضطربت يدى، وانتابني حنين قوي إلى أن ألمس ذراعها في رقة، وأن أنحني عليها وأقطف ابتسامة من شفتيها، في اللحظة التي تستيقظ فيها وتعرفني! .. وشعرت بشوق جارف إلى أن أدنو منها، وأظهر لها عطفي

البالغ ورقتي .. لكني عدت فقررت أنني ينبغي ألا أقطع هذا النعاس الشهي الذي يبعدها عن نفسها وعن بشاعة حياتها الواقعية! .. إنه لمن أمتع الأشياء أن يكون الإنسان قريبًا من المرضى خلال نومهم، حين تعتقل كل أفكارهم المحمومة فينسون تمامًا علتهم، حتى لتشرق أحيانًا على شفاهم المنفرجة ابتسامة كأنها الفراشة على ورقة واهنة من أوراق الشجر .. ابتسامة غريبة عنهم، ولا تمت إليهم بصلة .. ابتسامة تطير مجفلة، لحظة يستيقظون!

على أن أقوى ما حرك أشجاني في تلك اللحظة أن يديها المعروقتين النحيلتين، كانتا ممدودتين فوق مسندي المقعد بأظافرهما الشاحبة وعظامهما الرقيقة الواهنة .. وقلت لنفسي: "هاتان اليدان الضعيفتان، اللتان لا تقويان على أكثر من حمل الحمائم والأرانب والعصافير .. كيف يمكن قهر الألم بهما؟" .. وأحنقني أن أتذكر يدي القويتين الثقيلتين، اللتين تسيطران على زمام أضخم جواد بغير عناء! .. ودون وعي مني انتقل بصري على الأثر إلى الغطاء السميك الثقيل الذي يغطي ركبتيها الهزيلتين، والذي تستكين تحته ساقاها العاجزتان، المجردتان من الحياة، مقيدتين في وثاقهما الحديدي أو الجلدي .. وتذكرت كيف تجر الفتاة الجهاز القاسي معها في كل خطوة، هي المخلوقة الرقيقة التي جعلت لتطير وتحلق وتقفز، أكثر مما جعلت لتمشي على قدمين!

ولم أستطع قمع رعشة سرت في كياني، وكانت القوة بحيث هزت جسمي وجعلت مهمازي يصطكان فيحدثان صوتا فضيا خفيفا، لكنه كان كافيًا لأن يخترق نقاب نعاسها الشفاف، فتنفست نفسًا طويلاً مضطربًا، وبدأت يداها تتحركان، وأصابعها كأنما تتثاءب! .. ولم تلبث أن اختلجت أجفانها، وخفقت أهدابها .. ثم انفرجت .. فوقعت نظرتها على، جامدة خرساء في أول الأمر، وأخيرًا أستيقظ وعيها، فعرفتني .. وإذ ذاك اندفع الدم دافقًا فرمزيًا إلى وجنتيها، كما يصب النبيذ الأحمر دفعة واحدة في كأس من البلور! .. وقالت متجهمة: "ما كان أغباني حين نمت!"، ثم جذبت الغطاء على ركبتيها – كأني فاجأتها عارية تمامًا! – وأردفت متحدية: "لم لم توقظني فورًا؟ لا يليق أن تنظر إلى شخص وهو نائم، فإننا نبدو مضحكين ونحن نيام!" .. فأجبتها محاولاً إنقاذ الموقف، بنكتة: "هذا خير من أن نبدو مضحكين ونحن مستيقظون!" .. لكن تقطيبتها ازدادت وضوحًا، وبدأت شفتاها ترتجفان في انفعال، ثم فاجأتني بهذه العبارة وهي تحدجني بنظرة حادة:

– لماذا لم تأت يوم أمس؟ .. لابد أنه كان لديك عذر قوي يبرر أن تتركنا ننتظر .. وإلا فقد كان في استطاعتك على الأقل أن تتصل بنا بالتليفون!؟

.. كان الهجوم مفاجئًا، قويًا، زعزع جرأتي على الكذب – وجرأتي على ذكر الحقيقة، في آن واحد!– فرحت أردد عذري المختلق في ارتباك، وأنا أنقل ارتكاز جسمي من قدم إلى قدم، بينما أصغت هي إلى

روايتي نافذة الصبر .. وأخيرًا قالت في لهجة صارمة، باردة: "آه .. وبماذا انتهت هذه القصة المؤثرة؟ هل أشترى رئيسك الحصان آخر الأمر؟" .. وقبل أن أجد مخرجًا من ورطتي، استطردت في حدة: "دعك من هذه الأكاذيب المضحكة، فما من كلمة واحدة صحيحة مما تقول! .. كيف تجرؤ على أن تحاول خداعي بهذه الأعذار المختلقة؟"

وألقت بالقفاز الذي كانت تضرب به ذراع المقعد على الأرض في عصبية، ثم استطردت: "أنها كلها سلسلة من المخترعات، فلا أنت كنت مع رئيسك، ولا كانت هناك تجربة للخيل .. وإنما الصحيح أنك كنت في المقهى منذ الساعة الرابعة والنصف، وفي السادسة رآك سائق سيارتنا، وكنت ما تزال تلعب مع زملائك!"

.. وقبل أن تفك عقدة لساني، مضت الفتاة في حملتها التأنيبية، فاستطردت: "ولهذه المناسبة، لست أرى داعيًا لأن أعاملك بالمثل، فأكذب عليك بدوري، لأني لا أخشى الحقيقة .. وإذن فلتعلم أيضًا أن سائقي لم يرك عفوًا، وإنما كنت أنا التي أرسلته إلى المعسكر ليسأل عما جرى لك، فقد حسبتك مريضًا – سيما وأنك لم تخطرنا بالتليفون مقدمًا – ثم أني بطبعي لا أطيق الانتظار .. قد تظنني متهوسة، لكني هكذا خلقت! .. وفي المعسكر قيل للسائق أنك بخير، وأنك منهمك في اللعب مع زملائك في المقهى! .. وعندئذ طلبت من "أيلونا" أن تذهب لترى سبب معاملتك إيانا بهذا الجفاء، وهل يمكن أن أكون أنا قد أسأت

إليك في اليوم السابق؟ – فأني أتهور في الحديث أحيانًا، لست أنكر هذا! – والآن، وقد عرفت الحقيقة كلها، أفلا تخجل من أكاذيبك؟"

.. وهممت بأن أعترف لها بقصة "جوسي" و"فيرنز" معي .. لولا أنها استطردت دون توقف، قائلة: "كفانا استماعًا للقصص المختلقة، إذا سمحت! لا داعي للأكاذيب المتوالية، فقد ضقت ذرعًا بالأكاذيب، شبعت منها حتى أتخمت! .. أنهم لا يكفون عن محاولة التمويه على كل صباح ومساء، لإيهامي بأني في طريق الشفاء، وأن حالتي قد تحسنت كثيرًا، وما من واحد منهم يدرك أن هذا يحنقني أكثر من الحقيقة! .. لم لم تذكر لي مساء أمس، صراحة، أنه لا وقت لديك، ولا ميل، للحضور؟ كان يسرني أن تتصل بنا – ولو بالتليفون – لتذكر أنك ستقضي السهرة مع أصدقائك. أو تعتقد أني من الغباء والسخف بحيث لا أقدر أنك تمل أحيانًا صحبتنا المستمرة، وتتوق إلى قضاء وقت فراغك في ركوب الخيل أو المشي على الأقدام، بدلاً من الجلوس بجوار مقعد فتاة كسيحة؟ .. إن شيئًا واحدًا هو الذي يثير اشمئزازي وغيظي: الكذب! أني لست صغيرة ولا غبية، وفي وسعي تحمل قدر كبير من الصراحة. منذ أيام جاءتنا خادم جديدة بدلاً من العجوز التي ماتت، وقبل أن ينبهها أحد إلى حالتي فوجئت برؤيتي أسير بمعاونة عكازي، فألقت مكنستها في ذعر وصاحت: "رباه، يا للفظاعة .. تصوروا أن سيدة غنية مثلها، تكون كسيحة!" .. فهرعت أيلونا نحو المرأة المسكينة كالوحش الكاسر لتطردها فورًا، ولكني منعتها .. فقد أعجبتني المرأة، أعجبني ذعرها الصادق الطبيعي، غير المفتعل، فمنحتها عشرة ريالات أخذتها ومضت

إلى الكنيسة لتصلي من أجلي .. وطيلة اليوم شعرت بانتعاش وانشراح كبيرين. سرني أن أعرف أخيرًا حقيقة ما يحسه الناس حين يرونني لأول مرة! .. أما أنت، أنتم جميعًا، فتحسبون أنكم تموهون على برقتكم الزائدة وعطفكم المثير، بل بعنايتكم الوحشية! .. ولكن هل تظنون أن ليست لي عينان في رأسي أستشف بهما من وراء بسماتكم الزائفة وأحاديثكم الضاحكة المرحة، قلوبكم المنفرطة ونظراتكم الحائرة المنقبضة، وأنتم ترون حالي؟! .. أني أعلم جيدًا أنك تطلق تنهده ارتياح حين تغلق الباب وراءك وتتركني راقدة في مقعدي، كالجثة .. أعلم جيدًا كيف تدير عينيك عني لتهمس لنفسك: "يا للطفلة التعسة!" .. بل أعلم مبلغ سروركم من أنفسكم لكونكم تخصصون من وقتكم ساعة أو ساعتين لتسلية "العاجزة المسكينة"! .. لكني لا أريد تضحياتكم! لا أريدكم أن تشعروا بأن عليكم واجب التصدق على كل يوم بجرعة من شفقتكم! .. أقول لك أني في غنى عن شفقتك الغالية .. فإذا كان يلذ لك، ويسرك، أن تحضر .. فمرحبًا بك .. وإلا فبربك لا تطأ عتبة هذا البيت بعد اليوم!"

.. وكانت قد نطقت بالعبارات الأخيرة وقد بلغ منها الإجهاد مبلغه، فشحب وجهها، وانطفأت عيناها .. ثم سكنت ثورتها وسقط رأسها إلى الوراء في إعياء، ولم يعد الدم إلى شفتيها المرتجفتين إلا تدريجًا! .. وبعد أن استراحت هنيهة، قالت في لهجة خافتة، تشي بالخجل: "كان لابد أن أفرغ جعبتي يومًا ما .. أما وقد فعلت، وقلت كل ما أردت قوله، فدعنا لا نعد إلى هذا الموضوع مرة أخرى. أعطني، أعطني سيجارة!"

وكنت ما أزال مشدوهًا من حملتها المفاجئة، فقدمت إليها السيجارة ويدي ترتجف، حتى لقد انطفأ عود الثقاب مرتين قبل أن أتمكن من إشعال سيجارتها! .. ويبدو أنها لاحظت اضطرابي، فقد عادت تقول لي، بلهجة رقيقة هذه المرة: "ماذا بك؟ إنك ترتعش!.. ماذا يعنيك من الأمر كله؟" .. وانطفأ لهب النقاب الهزلي، فبقيت في مكاني صامتًا، بينما غمغمت هي في شيء من الانزعاج: "إن أبي على حق! إنك حقًا شخص .. غريب جدًا!"، وفي تلك اللحظة سمعنا من الخلف صوت المصعد يقترب من السطح .. وبعد لحظة، برز منه: "هر كيكسفالفا"!

الفصل الخامس

قمت من مكاني محييا السيد كيكسفالفا، رأيته ينحني على ابنته مقبلا جبينها في حنان دافق.

يبدو وكأنه استشعر ما كنا فيه من قلق وتوتر، فكاد ينسحب عائدًا من حيث أتى، لولا أن قطعت أديث عليه الصمت وابتدرته قائلة، في مرح مصطنع: "أتعرف يا أبي أن هذه أول مرة يرى فيها الملازم "هوفميللر" هذا السطح؟" .. انتهزت أنا هذه الفرصة فقلت: "هذا صحيح، وأنه لمكان رائع حقًا!".. ثم عدت إلى صمتي، بينما عاد هو فانحنى على ابنته وقال لها: "أخشى أن يميل الطقس بعد قليل إلى البرودة.. أفلا يحسن أن تهبط إلى أسفل؟". فوافقت الفتاة على الفور .. وقبل أن يتحرك بها المصعد، قال لها: "ربما تبغين إبدال ثيابك قبيل العشاء، وفي هذه الحالة نستطيع نحن أن نقوم بجولة في الحديقة!"، أومأت برأسها موافقة، ولم تتكلم. وسرعان ما هبط المصعد بها وكأنه يهوى في جوف بئر عميق! .. وفيما نحن ننتظر عودته لنهبط به أيضًا، اقترب مني مضيفي الشيخ في تردد وحياء، ثم قال لي هامسًا: "هناك شيء أود أن أحدثك فيه .. خدمة أرجو أن تؤديها لي .. فإذا لم يكن لديك مانع ففي استطاعتنا أن نتحدث في الأمر في مكتبي الملحق بالحديقة!" .. ولم يسعني إلا أن أعرب له عن ترحيبي بتأدية أي خدمة له، ثم هبطنا بالمصعد إلى الحديقة، وسرنا بمحاذاة جدار القصر إلى بناء

منعزل، في نهايته حجرة مكتب متواضعة– لا تزيد كثيرًا على حجرتي في المعسكر!– فدخلناها، وقدم لي الأب مقعدًا، بينما جلس هو بجانبي على مقعد آخر، فأخذت أسائل نفسي: "ماذا عساها تكون هذه الخدمة التي يطلبها هذا المليونير مني، أنا الشاب الفقير؟!"

وأخيرًا رفع الشيخ رأسه المطرق، فإذا جبهته منداه بالعرق .. وخلع نظارته المظللة بسحابة كالبخار، فبدا لي وجهة المغضن أدعى إلى الإشفاق، وأبلغ تعبيرًا عن الأسى المرير. وبدت عيناه أشد كلالا وكآبة وأعياء، منهما تحت النظارة .. كما استطعت أن أستنتج– من الاحمرار الخفيف المحيط بجفونه– أنه لا ينام إلا قليلا، ونومًا متقطع .. ومرة أخرى أحسست بالشفقة تضطرم في أعماقي، وشعرت بغتة أني لم أعد أجلس في مواجهة الثرى الكبير "هو فون كيكسفالفا"، بل في مواجهة شيخ محطم، ناء كأهله بالأحزان! .. وبعد أن سعل قليلاً، قال لي بصوت أجش: "أريد أن أسألك معروفًا كبيرًا يا سيدي الملازم، وأنا أعلم أني لا أملك الحق في إزعاجك وأنت لم تكد تعرفنا إلا حديثًا. وقد أكون متماديًا في الجرأة إذ أطلب إليك شيئًا كهذا .. لكني منذ لقيتك أول مرة شعرت بأنك أهل للثقة، فأنت تبدو من أول وهلة رجلاً طيب القلب، مستعدًا لأن تمد يد المساعدة في كل وقت .. حتى ليخيل إلى أحيانًا أن السماء قد أرسلتك إلي كي أستطيع أن أتحدث إليك في صراحة .. لكني تماديت في الحديث قبل أن أسألك أولاً: هل ترغب في الإصغاء إلي؟"

ولما أبديت رغبتي في الإصغاء، زفر زفرة حرى، وشكرني قائلاً: "الواقع أني مدين بالقدرة على تمييز الأشخاص لزوجتي يرحمها الله .. لقد كان فقدي إياها بداية المأساة، وإن كنت أعزي نفسي أحيانًا بأن من لطف الله بها أنها لم تعش حتى ترى الفاجعة التي حلت بابنتها، فإنها ما كانت لتتحملها! وأنت لا تعلم أننا حين وقع الحادث– منذ خمس سنوات– لم نكن نحسب أن الأمر سيطول إلى هذا الحد، سيما وأننا نشأنا نحترم الأطباء، ونسمع كل يوم عن المعجزات التي يحققونها! ولهذا لم أجزع كثيرًا في البداية، كما أن إيماني بالله جعلني لا أصدق أنه يمكن أن يحكم على طفلة بريئة، بهذه الكارثة، إلى الأبد! .. فلو كنت أنا الذي أصبت لفهمت حكمة شيء كهذا، فلقد ارتكبت في حياتي شرورًا كثيرة .. أما هي– وهي المخلوقة البريئة– فإن عقولنا لتعجز عن إدراك حكمة تقييدها إلى مقعدها القاسي، مدى الحياة!"

ومسح محدثي العرق الناضح على شعره المجهد بظهر يده، ثم استطرد فقال: "إننا لم نترك طبيبا سمعنا منه إلا استدعيناه! وكم اجتمعوا وتشاوروا باللاتينية، ونصحوا بأشياء كثيرة، ثم أخذوا أجرهم ومضوا .. وبقيت الحال على ما هي عليه! .. وحين تبينوا عقم علاجهم، كانوا يهزون أكتافهم، ثم يوصون بالصبر! .. والآن لم يبق مثابرًا على معالجتها، رافضًا الإذعان لليأس، غير واحد فقط: هو الدكتور "كوندور". أنه ليس ذا مؤهلات علمية كثيرة، أو خبرة طويلة، لكنه "إنسان عظيم" ولا شك. فهو لا يشغل نفسه بالحالات العادية– التي يستطيع أي طبيب معالجتها– وإنما يقصر اهتمامه على الحالات العسيرة التي ييأس منها

الأطباء الآخرون! وهو لا يطلق الأمل حتى اللحظة الأخيرة، بل يحيا ويموت مع كل مريض من مرضاه، غير طامع في مال أو شهرة لنفسه! إنه لا يفكر في نفسه بل في الآخرين، في أولئك الذين يتألمون .. أوه، إنه رجل رائع!"

وبلغ الانفعال بالشيخ حدًا جعل عينيه المتعبتين تتألقان في حدة، ثم واصل كلامه في حماسة: "نعم إنه رجل رائع، ينظر إلى كل حالة كأنها واجبه الأوحد! بل أنه حين يعجز عن أن يفعل شيئًا، يكاد يعد نفسه مسئولاً عن الكارثة! .. هل تريد مثلاً على ذلك؟ لقد زارته يومًا امرأة تشكو ازدياد ضعف بصرها، ودنوها من مرحلة العمى الكامل، فوعدها بالشفاء .. ولما عجز عن إنجاز وعده، وحلت بها الكارثة، لم يسعه إلا أن يتزوجها! .. تصور طبيبًا شابًا يتزوج امرأة عمياء تكبره بسبعة أعوام، ولا تملك مالاً ولا جمالاً؟! .. إنها الآن مخلوقة متهوسة، تعد حملاً ثقيلاً على عاتقه، فوق أنها لا تعترف البتة بجميله! .. من هذا المثل تستطيع أن تعرف أي رجل هو، ومبلغ سعادتي بالعثور عليه، على شخص يعني بابنتي كما أفعل أنا نفسي، حتى لقد تذكرته في وصيتي! .. فلئن كان هناك إنسان يستطيع أن يشفي ابنتي فإنه هو ذلك الإنسان .. عسى الله أن يوفقه!"، وضم الأب المفجوع راحتيه في حركة ابتهال .. ثم دنا بمقعده مني، ومضى في كلامه فقال:

–والآن اصغ إلي يا سيدي الملازم، فإني أريد أن أسألك معروفًا! .. لقد حدثتك عن مبلغ عطف الدكتور كوندور على ابنتي، وعلي ..

ولكني أخشى أن يكون شعوره هذا النبيل قد حمله على أن يخفى عني الحقيقة. إنه دائمًا يعدني ويؤكد لي أن طفلتي سوف تشفى يومًا ما .. لكني كلما سألته عن موعد حلول هذا اليوم، يتهرب من الجواب، موصيًا إياي بالصبر .. ولهذا فإني أريد أن أستوثق من الأمر. وأنا كما ترى شيخ متقدم في السن، ومريض، ويهمني أن أعرف هل سأعيش حتى أرى ابنتي تشفى، وهل سوف تشفى حقًا؟ .. وصدقني يا سيدي الملازم أني لا أطيق العيش على هذا المنوال، ولهذا أريد أن أعرف الحقيقة، لأني لن أستطيع تحمل هذا الشك بعد الآن!

.. وغلبه تأثره، فنهض ومضى إلى النافذة! .. وأدركت أنه يحاول بذلك أن يخفي دموعه، لأنه– مثل ابنته – يأبى أن يكون هدفًا للشفقة! .. ثم أخرج منديلاً من جيبه وأخذ يمسح دموعه، متظاهرًا بأنه يجفف عرقه، ولكني لمحت أثر البكاء في احمرار أجفانه! وبعد أن ذرع الغرفة مرتين أو ثلاثًا، أخذ نفسًا عميقًا– كما يفعل السباح قبيل أن يقفز إلى الماء!– ثم عاد إلى مقعده فاستطرد يقول: "اغفر لي هذه الإطالة. لقد أردت أن أقول لك: أن الدكتور كوندور قادم من "فيينا" غدا ليرى أديث– فهو يأتي كل أسبوعين أو ثلاثة ليفحصها، ثم يعود بقطار المساء– وقد خطر لي أنه لو أتيح لشخص أجنبي عن الأسرة أن يسأله، في غير اهتمام كبير، عما يرجى للمريضة في المستقبل، وهل ستشفى يومًا، ومتى .. فعله يصدقه الجواب، لأنه في هذه الحالة لن يشعر بحاجة إلى مراعاة إحساس السائل الغريب، كما يراعى إحساسي أنا مثلاً، بوصفي والدها المسن المريض! .. فهل تقبل أن تؤدي لي هذه الخدمة؟

وما كان لي أن أرفض، وقد وقف الأب المكلوم أمامي دامع العين، يتلقف الجواب من شفتي، وكأنه قضاء الله فيه! وهكذا وعدته بإجابته إلى كل ما طلب، فمد إلى يديه شاكرًا، وأردف في انفعال: "كنت أعلم .. كنت أعلم أنك ستقبل .. وأعدك بأن أحدًا غيري في الوجود لن يعلم يومًا بأمر هذه الخدمة الجليلة التي سوف تؤديها لي!"، فقلت له: "لكنها ليست خدمة جليلة .. أنها عمل بسيط!" .. فقال: "بل أنها خدمة على أعظم جانب من الأهمية. وأني ليسرني أن أؤدي لك أية خدمة في مقابلها! .. أني أعرف كثيرًا من الشخصيات البارزة في مختلف الوزارات، وفي وزارة الحرب بالذات، وفي هذه الأيام يحتاج كل شاب إلى من يسنده ويأخذ بيده!"

وأخجلتني حماسته في العرض، ومواجهته إياي– لأول مرة منذ بداية الحديث– بنظرة مباشرة في عيني .. بينما امتدت يده تتلمس النظارة التي كان قد وضعها جانبًا، وتثبتها على أذنيه بأصابع مرتعشة .. ثم غمغم أخيرًا: "لعله يحسن بنا أن نعود إلى البيت، قبل أن تثور شكوك أديث بشأن سبب خلوتنا وتأخرنا، فإنها منذ أصيبت غدت مرهقة الإحساس إلى أقصى حد!"

ووجدنا الفتاة تنتظرنا في الصالون، فوق مقعدها الطويل. ولم نكد ندخل حتى حدجتنا بنظرة فاحصة، كأنما أرادت أن تنفذ بها إلى أعماق سريرتنا، لتقف على سرنا المشترك .. فلما لم نرو غليلها بالإفصاح عن شيء، ظلت بقية السهرة نافرة، منطوية على نفسها!

كانت مهمة "تافهة" كما وصفتها، تلك التي عهد هر "كيكسفالفا" إلي في القيام بها. ولكني مع هذا عجزت عن إدراك الأهمية المعنوية التي صارت لها بالنسبة لي، فما من شيء يزيد ثقة المرء بنفسه ويساهم في تكوين شخصيته، أكثر من أن يجد نفسه– على غير انتظار– أمام مهمة عليه أن يؤديها بمجهوده الشخصي، وعلى مسئوليته الخاصة. ولم تكن المسئولية ذات غريبة علي، فلقد طالما جابهتني عملية ألوانًا من المسئوليات، لكنها كلها كانت في نطاق محدود، تتصل بواجباتي الحربية، وتعتبر تنفيذًا لتعليمات مكتوبة أو مطبوعة، أو لتقاليد مرسومة في محيط الجيش .. أما المهمة التي كلفني بها هر "كيكسفالفا" فلم تكن موجهة إلي باعتباري ضابطًا، بل باعتباري إنسانًا طيبًا، جديرًا بالثقة .. على أن هناك حقيقة واحدة لم تغب عن ذهني لحظة، هي أن هذا الرجل الغريب عني تمامًا قد اختارني – دون جميع أصدقائه وأقربائه – كي أنقذه من محنته! .. وقد أدخلت هذه الثقة على قلبي من الغبطة أضعاف ما أدخلته عليه جميع عبارات الثناء التي تلقيتها من رؤسائي أو أصدقائي! على أن غبطتي تلك شابها شيء من الاستنكار، بل الذعر، عندما تنبهت فجأة إلى أن شفقتي على الفتاة المنكوبة لم تتجاوز الناحية السلبية الجامدة .. وإلا فكيف جاز أن أتردد على هذا البيت أيامًا، بل أسابيع متوالية، بغير أن أوجه يومًا إلى أحد أفراده السؤال الطبيعي الذي هو أول ما يرد على الذهن في ظروف كهذه: "هل ستظل الفتاة المسكينة كسيحة هكذا، على الدوام؟ وما رأي الأطباء في حالتها؟"

نعم، إنني لم أستفهم قط من "أيلونا"، أو من هر كيكسفالفا، أو من طبيب المعسكر، عن مصير الفتاة التي أزورها وأقضي السهرة في ضيافتها كل ليلة! .. وإنما تلقيت عاهتها البشعة على أنها "أمر واقع" لا مجال للتفكير فيه! وأخيرًا جاء حديث أبيها معي، عن عذابه الطويل، وحيرته في صددها، أشبه بطعنة سكين في قلبي، جعلتني أفيق فجأة من سباتي وغفلتي، فأتساءل: "هل يمكن أن تشفي الفتاة من شللها الرهيب، وتعود فتمشي وترقص، وتركب الخيل، وتنطلق ضاحكة في المروج الخضراء؟"

وكأنما أسكرتني هذه الفكرة، فلذ لي أن أتخيل ثلاثتنا وقد امتطينا جيادنا ورحنا نركض بها وسط الحقول .. ثم أتخلي أديث وقد خفت لاستقبالي عند الباب في موعد كل زيارة، سعيدة مرحة، حرة، بدلاً من الانتظار مقيدة إلى مقعدها في الصالون! .. وهكذا رحت أحصي الساعات الباقية على موعد حضور الطبيب، في لهفة شديدة لعلها تفوق لهفة كيكسفالفا نفسه، ولبثت أترقب اللحظة التي ألقي فيها الدكتور كوندور، فأمطره بأسئلتي في شأن أديث ..

وفي اليوم التالي حرصت على أن أفرغ من عملي مبكرًا، ثم هرعت إلى القصر قبل موعدي المألوف .. فاستقبلتني ايلونا قائلة: "لقد وصل الطبيب، وهو في خلوة مع أديث منذ حوالي ساعتين، يفحصها ويجرب معها بعض الاختبارات الدقيقة" .. فجلسنا نلعب الشطرنج في انتظار فراغ الطبيب من مهمته .. ومضى وقت قبل أن نسمع وقع خطوات

تقترب، ثم دخل علينا "كيكسفالفا" والدكتور "كوندور" وهما لا يزالان منهمكين في الحديث .. فوجدت صعوبة في إخفاء شعوري بخيبة الأمل عند وقوع بصري على الطبيب الذي أطنب مضيفي في إطرائه والإشادة بعلمه وخلقه .. فقد توقعت أن أرى رجلاً ذا طلعة مهيبة، وعين حادة نفاده، وهيئة توحي بالثقة وتنم عن الذكاء اللماح .. ومن ثم غاص قلبي حين رأيتني أنحني تحية لشخص قصير بدين، أصلع الرأس، قصير النظر، تبعثر على سترته الغبراء رماد السجاير بكثرة، وأعوج رباط رقبته فوق قميصه .. وبدلاً من النظرة الحادة، طالعتني من عينه نظرة بليدة فاترة، تطل من خلف نظارة معدنية رخيصة مثبتة على أنفه! .. وقبل أن يفتح كيكسفالفا فمه ليقوم بتقديم كل منا إلى الآخر، مد الطبيب يده إلى في تكاسل، ثم جلس على مقعد مريح وهو يقول، مواصلاً كلامه:

– أخيرًا يجد المرء فرصته ليستريح! .. ثم دعني أصارحك يا صديقي أني أكاد أموت جوعًا، وحبذا لو أعد لنا "جوزيف" المائدة فورًا، أو أسعفني ببعض الفطائر مؤقتًا. أني دائمًا أنسى أن قطار بعد الظهر هذا لا تلحق به عربة طعام .. آه، هذا هو جوزيف يفتح باب غرفة المائدة .. مرحى مرحى يا جوزيف، إنك دائمًا دقيق في مواعيدك!

ودون أية كلفة، تقدمنا الطبيب إلى المائدة فجلس بغير أن ينتظرنا، ونشر منشفة على صدره ثم شرع يشرب الحساء في لهفة وفي صوت مسموع، بينما راحت عيناه قصيرتا النظر تختلسان النظرات إلى زجاجات النبيذ في شراهة .. ثم طلب من الساقي قدحًا من البيرة لفتح الشهية،

وبعد أن تجرعه دفعة واحدة، أجهز على الطبق الثاني الذي قدم له على الفور، وبقي مستغرقًا في الأكل إلى حد شغله عن أن يوجه كلمة إلى أحد منا! .. وبدأت شراهته تثير أعصابي، ربما لأني يئست من أن أفوز بطائل، في صدد الموضوع الذي يهمني، من هذا المخلوق السوقي الذي لا يفكر في أكثر من الطعام والشراب! .. وبين حين وآخر كان يقطع حركة المضغ والبلغ ليلقي أسئلة وتعليقات تافهة لا تحتاج إلى جواب، بينما تجاهلني أنا تجاهلاً تامًا، قابلته بمثله فلزمت الصمت المطلق! .. وحين انتقلنا إلى الصالون، حيث كانت أقداح القهوة تنتظرنا، ألقى الدكتور كوندور جسمه المكتنز على مقعد أديث" الخاص، الذي كان مزودًا ومبطنًا بالوسائد المريحة والمساند الجانبية .. ثم تناول ثلاث لفائف من السيجار الفاخر، وضع اثنتين منها على طبق قدح القهوة، كمدد احتياطي! .. وبعد أن أفرغ في جوفه الفنجان الثاني من القهوة، أطلق من فمه صوتًا أشبه بصوت الخنزير الذي التهم وجبة دسمة .. ثم التفت إلى كيكسفالفا قائلاً في تهكم، وهو يغمز بعينه ويتمطى متثائب:

– إنك تبدو نافد الصبر في انتظار سماع تقريري عن الحالة .. ولكن كان ينبغي أن تتذكر أني لا أحب الخلط بين الطعام والعمل، هذا إلى أني كنت جائعًا ومتعبًا إلى أقصى حد .. فقد لبثت واقفًا على قدمي منذ الساعة السابعة والنصف صباحًا .. والآن يا صديقي ..

وهنا سكت ريثما جذب نفسًا طويلاً من السيجار، ثم أطلق حلقات من الدخان الأزرق في الهواء، وقال: "الآن نستطيع أن نتحدث .. أن كل

شيء يسير سيرًا مرضيًا: تمرينات المشي، وتمرينات مد الساقين .. كلها تتحسن تحسنًا ملموسًا. وإنما الشيء الوحيد الذي وجدته متغيرًا قليلاً – وأرجو ألا تقلق البتة يا صديقي العزيز – هو حالتها النفسية!"

وبرغم استدراك الطبيب، بدا على كيكسفالفا الانزعاج، حتى اهتزت الملعقة في يده، وقال مقاطعًا: "تغيير؟ ماذا تعني؟ أي نوع من التغيير؟" .. فقال الطبيب: "أنا لم أقل أنه تغيير إلى أسوأ، لا تحمل كلامي أكثر مما يحتمل! .. أنا نفسي لا أعلم حتى الآن كنه ما حدث، لكني لحظت أن "شيئًا ما" على غير ما كان ينبغي. شيئًا لا يمت إلى مرضها، بل إلى نفسها، حتى لقد شعرت اليوم – لأول مرة – كان زمامها قد أفلت من يدي، إلى حد ما. ويحسن أن نعالج الموقف بصراحة ونكشف جميع أوراقنا، فقل لي يا صديقي، بكل إخلاص وصدق: هل دفعك قلقك على ابنتك إلى استقدام طبيب آخر لفحصها أثناء غيبتي؟ وهل فحصها طبيب ما بعد زيارتي السابقة؟!"

فصاح كيكسفالفا في استنكار، وكأنه اتهم بإثم فظيع: "كلا! وأقسم لك بحياة ابنتي!" .. فقال الدكتور كوندور: "حسنًا جدًا. هذا يكفي، فلتوفر إيمانك المغلظة. إني أصدقك بغيرها، وأعتبر المسالة منتهية .. وإذن فلابد أن هناك عاملاً آخر أحدث ذلك التغيير!"

.. ومرة أخرى صاح الأب جزعًا: "ولكن ماذا بها؟ ماذا تقصد بقولك أنها تغيرت؟" .. فأجاب الطبيب: "يا عزيزي، إنك تعقد الأمور

بجزعك هذا. أقسم لك بشرفي أن ليس ثمة داع للقلق، وإلا لما جلست هكذا أحدثك عن الأمر من مقعدي المريح وأنا أجرع خمرك المعتقة! .. ولهذه المناسبة، هذا الكونياك رائع حقًا!"

ثم اضطجع في مقعده، وأغمض عينه لحظة، واستطرد: "أنه لمن الصعب حقًا أن أشرح وجهة نظري، فإنها تدور حول الصلة الروحية التي تنشأ بين المريض وطبيبه، ذلك المزيج من الثقة والشك الذي يتبادلانه، والذي يكون في حالة "مد وجزر" .. أن الأمر يشبه – مع الفارق – أمر الجواد الذي يقترضه منك شخص لبضعة أيام، ثم تركبه بعد ذلك فتجد كأنه خرج من سيطرتك، والف سيطرة يد أخرى! .. فلقد لاحظت اليوم مثلاً أن أديث تبدي شيئًا من "المقاومة" لتمريناتي واختباراتي، وتعرب متذمرة عن شكها في أن تكون لها أية فائدة أو نتيجة. وهذه الظاهرة تحدث منها لأول مرة! .. على أني لا أقصد أن هذا التمرد منها يدل على سوء حالتها، بل أنه – على العكس – قد يكون من أعراض ازدياد رغبتها في الحياة ولهفتها على الشفاء! .. لذلك أكرر لك أني لست قلقًا البتة، بل أني إذا فكرت الآن فيت جربة علاج جديد فإني أكاد أكون واثقًا من أن الفتاة سوف تبذل مجهودًا نفسيًا جبارًا كي تشفى! .. لست أدري إذا كنتم تفهمون كلامي؟"

.. وهنا اندفعت أنا قائلاً بغير وعي: "نعم .. بلا شك" .. وكانت الكلمة الأولى التي أوجهها إلى الطبيب منذ وقع عليه بصري، فقد بدا الأمر لي واضحًا كل الوضوح. أما الأب فقد ظل يحدث في الفضاء

بعينين لا تريان. وقد شعرت بأنه لم يفهم شيئًا من كلام الطبيب، لسبب بسيط: هو أن مخاوفه كلها كانت مركزة في سؤال واحد هو: "هل تشفى ابنته يومًا؟ ومتى؟" .. وقد قرأت في عينيه أنه يود لو يلقى على الطبيب مزيدًا من أسئلته، لولا خشيته أن يضايقه!

وانتهز الطبيب فرصة الصمت القصيرة، فنهض وهو يقول: "أحسب أن في هذا القدر الكفاية اليوم .. وإذا حدث أن أظهرت أديث في الأيام المقبلة شيئًا من العصبية ونفاد الصبر، فلا تنزعجوا، فإني لن ألبث أن أضع يدي على العامل المجهول! .. وفي انتظار ذلك أرجو منكم أن تضبطوا أعصابكم ولا تظهروا للمريضة أدنى قلق أو اضطراب. والآن دعوني أنصرف، وأرجو ألا تستدعى سيارتك لتقلني، فإنني أرغب في المشي قليلاً كي أستنشق شيئًا من الهواء النقي، وأستمتع بالقمر الرائع!"

وهنا تذكرت مهمتي، فانتهزت الفرصة وزعمت أني مضطر لليقظة مبكرًا، ومن ثم ينبغي أن أنصرف بدوري .. فأضاء الأمل عيني الكهل وهو يرمقني من وراء ظهر الطبيب بنظرة ذات معنى!

لم نكد – الدكتور كوندور وأنا – نبلغ السلم المؤدي إلى الحديقة حتى أخذنا بمنظر يبهر الأبصار: كان القمر المكتمل أشبه بقرص من الفضة المجلوة قد علق في السماء المرصعة بالنجوم، والحصباء تبرق مثل البرد بين صفي الأشجار المتاخمة للممر، والتي ينطرح أمام كل منها ظلها، فتبدو هي أشبه بالزجاج في الضوء، وظلالها مثل أشباح في الظلام

.. والسكون الساجي يشمل الحديقة الغارقة في فيض من السنا الثلجي .. فسرنا صامتين، مأخوذين بروعة الطبيعة المحيطة بنا، حتى مرقنا من باب الحديقة الخشبي ودلفنا إلى الطريق .. وعندئذ التفت الطبيب إلى قائلاً، في بساطة لم أتوقعها منه: "مسكن كيكسفالفا! .. أني ألوم نفسي لكوني أجبته بخشونة، لكنه كان خليقًا بأن يمطرني بمائة سؤال وسؤال في الموضوع نفسه .. وقد كنت من الإجهاد والتعب بحيث لم أحتمل مزيدًا .. والواقع أن الذي يرهقنا ويجعل الحياة شاقة علينا، في مهنتنا هذه، ليس إلحاح المرضى أنفسهم وأسئلتهم – فهذه كلها أمور مقبولة منهم بحكم مرضهم، عدا أن لنا في الرد عليها جعبة لا تفنى من المسكنات و"الأكاذيب البيضاء" – وإنما الذي يضايقنا حقًا هو إلحاح أقارب المرضى وأصدقائهم، فهم يحاصروننا كما لو كان مريضهم هو وحده الذي ينبغي أن نفكر فيه، ولا نهتم بسواه! .. وقد أفهمت كيكسفالفا أكثر من مرة أن عندي في المدينة حالة خطيرة يتأرجح صاحبها بين الحياة والموت منذ أيام، وتتطلب مني اليقظة المستمرة .. ومع ذلك فهو لا يفتأ يتصل بي بالتليفون كل يوم ليمطرني بأسئلته التي لا تنتهي، ويحاول أن ينتزع مني بأي ثمن كلمة تبعث الأمل في نفسه .. وأنا أول من يدرك ضرر هذا القلق المستمر عليه، ومن حسن الحظ أنه لا يقدر مدى هذا الضرر!"

وأحسست بانقباض مفاجئ .. إذن فالحالة سيئة حقًا؟ .. لقد أمدني كوندور، بهذه العبارة، بالمعلومات التي كنت أبغى استيفاءها منه .. ولم يبق إلا أن أستحثه على أن يزيدني علمًا بالتفصيلات .. فقلت له:

"لا تؤاخذني يا سيدي الطبيب .. لكني لم أكن أحسب أن أديت في حالة سيئة إلى هذا الحد؟!" .. فقاطعني فورًا في دهشة: "أديث؟ ماذا تعني؟ .. أني لم أقل شيئًا عن حالة أديث .. وإنما عنيت أني قلق على كيكسفالفا نفسه .. ألم تلحظ مدى انحلال صحته خلال الأشهر الأخيرة؟!" .. فقلت: "أني لم أتشرف بمعرفة "هر فون كيكسفالفا" إلا منذ أسابيع فقط" .. فقال: "إذن ليس في وسعك أن تلمس التغيير الكبير الذي طرأ عليه. أما أنا فيزعجني حقًا أن أرى نحوله، وبروز عظام يديه وشرايينه، ولون بشرتهما الذي يذكرني بأيدي الموتى، والواقع أن أمثال كيكسفالفا من الرجال الذين عاشوا أقوياء نشطين، هم الذين يضرهم أبلغ الضرر أن يستسلموا لعواطفهم، ويعتبر من نذر الخطر على حياتهم أن ينقلبوا من قساة عنيدين إلى مشفقين رقيقي القلوب! .. وقد فكرت منذ أمد في فحصه وتحذيره من سوء العاقبة، لكني خشيت أن ينقلب قصدي علي فيقتله الوهم والخوف .. قبل أن يقتله الضعف والمرض! .. ولعلك تقدر أنه ليس من اليسير على مثله أن يشعر بدنو شبح الموت منه وقرب فراقه ولحيدته، إذا كان سيخلفها وحيدة في الدنيا، كسيحة لا حول لها ولا طول! .. كلا يا سيدي الملازم، لقد أخطأت فهمي: فليست أديت موضع اهتمامي الآن بل هو أبوها .. وأخشى أن تكون أيامه على اللأرض قد باتت معدودة!"

وصدمني قوله، فإن شيئًا كهذا لم يخطر ببالي من قبل، ولم أكن قد فجعت طيلة حياتي في أي قريب أو صديق لي، فلم أستطع أن أتصور كيف يمكن لشخص كنت أتناول الطعام معه، وأتحدث، وأشرب .. أن

يشرق عليه الصباح التالي فإذا هو جثة هامدة في كفنها! .. وأدركت من الوخزة التي طعنت قلبي على الثر أني قد تعلقت فعلاً بكيكسفالفا .. فقالت، في نوبة انفعالي وأشفاقي: "يا له من أمر محزن أن يموت مثل هذا الرجل النبيل الكريم الطيب .. بل الأرستقراطي الأصيل حقًا!" .. وهنا توقف كوندور في مكانه، وقد بدت عليه الدهشة الهائلة، وقال لي وهو يكاد يكذب سمعه: "نبيل؟ .. أرستقراطي" .. أعذرني يا سيدي الملازم، ولكن .. أحقًا أن تعني كيكسفالفا بهذه الوصاف، جادًا؟"

فخيل لي، من فرط استنكاره، أني قد تفوهت بحماقة ما .. فأجبته في شيء من الحيرة: "أني أحكم عليه بوحي من خبرتي الخاصة .. فمنذ عرفته، لمست في جميع تصرفاته وحركاته دلائل الجلال والأصل العريق!" .. لكني توقفت عن الكلام عن تلقاء نفسي، حين لمحت أمارات الاستغراب تتزايد على وجه محدثي، وهو واقف تجاهي، وتلمع في عينيه خلف نظارته السميكة .. حتى لقد خلت نفسي أمامه كحشرة صغيرة تحاول التملص تحت عدسة "ميكروسكوب" ضخم!

.. ثم استأنف الطبيب كلامه فقال:

– يصعب على أن أصدق أنك، رغم تكرر زياراتك للقصر، في هذه البلدة الصغيرة التي تسري فيها الشائعات وتعرف الأخبار بسرعة هائلة، لم تصادفك مناسبة تسمع فيها من أحد الأهالي – أو من زملائك الضباط ملاحظة أو تعليقًا يتنافى مع حسن ظنك في "نبل" هذا الرجل

.. وهذا يزيدني اقتناعًا بسذاجتك! .. والواقع أنني طالما اتهمته بالمغالاة في وصفه إياك، وشككت بعض الشيء في حماسته لك، فلقد عجزت عن أن أصدق حقًا أنك لم تتردد على داره من بادئ الأمر ألا تكفيرًا عن سقطتك الأولى، وبدافع العطف الخالص على أديث، والصداقة البريئة للأسرة! .. بل لقد حدثت نفسي بأنك واحد من اثنين: أما شاب بعيد النظر يحاول أن يظفر بصيد دسم، أو حدث ساذج العاطفة استجاب – كما لا يستجيب غير الشباب وحدهم – لجاذبية مغامرة من المغامرات المفجعة الخطيرة .. وعلى أية حال فلست أرى مبررًا لأن تخجل من الصداقة الخالصة التي أظهرتها له ولابنته، أو تدع أقاويل الناس تؤثر في صلتك بالأسرة .. فإن تلك الأقاويل لا تنطبق على الشخص الرقيق الحنون المستحق للعطف والرثاء .. الذي صاره "كيكسفالفا" في هذه الأيام!

وكان الدكتور كوندور يتكلم وهو يسير إلى جواري، دون أن ينظر إلى .. ثم لزم الصمت دقائق، وقد بدا عليه التفكير والتردد .. وأخيرًا أبطأ الخطى والتفت إلي قائلاً: "أصغ إلي يا سيدي الملازم. أن المعلومات أو "الإيحاءات" المبتورة هي مبعث أكثر الشرور في هذه الدنيا .. وقد يكون لساني أنزلق بأكثر مما ينبغي أن أقول، فأثار فضولك إلى حد لن تقوى معه على مقاومة شوقك إلى الاستفسار من الناس عن المزيد .. ولما كنت أخشى أن تجئ المعلومات التي قد يفضون بها إليك مخيبة لآمالك .. أو أن تجد حرجًا في المداومة على زيارة قوم لا تعرف

عنهم شيئًا .. فإني أضع نفسي تحت تصرفك، إذا كان يهمك أن تعرف المزيد عن صاحبنا!"

فلما أجبته مرحبًا بمعلوماته، نظر في ساعته ثم قال: "أمامنا قبل موعد قطاري ساعتان، في وسعنا أن ننفقهما في هذا الحديث .. في أي مكان هادئ تختاره!"

الفصل السادس

جلست في مكان قصي بأحد المقاهي، تعمدت الانزواء منتظرا الطبيب الذي لم يخلف موعده، وما إن حضر حتى بادرني بالحديث هامسا حدثني: "من الأفضل بنا أن نترك الآن صديقنا الأرستقراطي "هر فون كيكسفالفا" .. حين بدأت القصة لم يكن يوجد رجل بهذا الاسم، يملك الضياع الواسعة، ويرتدي السترة السوداء والنظارة ذات الإطار المذهب! .. لم يكن يوجد غير غلام يهودي ذي عينين نفاذتين، وكتفين رقيقتين، يعيش في قرية صغيرة تعسة على الحدود الهنغارية السلوفاكية، ويدعى "ليو بولد كانيتز" .. وكان "كانيتز" يعيش من حراسة جياد الفلاحين أو عرباتهم، وهم يحتسون الخمر في حانة القرية، أو يحمل للنسوة سلالهن أثناء عودتهن من السوق، مقابل حفنة من البطاطس مثلاً!

"أما والد كيكسفالفا – أو بالأخرى والد "كانيتز"هذا – فكان يملك حالة متواضعة خارج القرية، يؤمها قطاع الأخشاب والحوذية كي يشرب كل منهم قدحًا أو اثنين من الخمر الرخيصة، تدفئ أجسادهم وتعينهم على اجتياز سهول "الكربات" المكسوة بالجليد .. وأحيانًا كانت الخمر تصعد إلى رؤوسهم، فيتشاجرون، ويحطم بعضهم مقاعد الحانة ومناقضدها على رؤوس البعض الآخر .. وفي إحدى هذه المشاجرات أصيب صاحب الحانة بصدمة ما لبثت أن قضت على حياته، بعد مرض طويل، دون أن يترك وراءه مالا تعيش عليه أسرته .. فاضطرت زوجته إلى

احتراف غسل الثياب، والقيام بمهمة "القابلة" في حالات الولادة التي تتعرض لها نساء القرية، أو بيع بعض البضاعة في الطرقات، بينما كان "ليو بولد" ابنها يسير معها حاملاً بضاعتها على ظهره .. وفيما عدا ذلك كان الغلام يكسب بعض الدراهم من أي عمل بسيط يصادفه، ويطوف بقرية بعد قرية لتوزيع منتجات أحد الحوانيت. وفي السن التي يلعب فيها الصبية "البلى" ولا يعرفون شيئًا عن هموم الحياة، كان "كانيتز" قد ذاق الكثير منها، وعرف لكل جزء من درهم قيمته! .. ثم تعلم الصبي القراءة والكتابة على يد رئيس الطائفة اليهودية في القرية، فلما بلغ الثالثة عشرة استطاع أن يؤدي بعض الأعمال الكتابية لأحد المحامين، وبعض الأعمال الحسابية وكشوف الضرائب لأصحاب الحوانيت الصغيرة .. ولكي يوفر كل قطرة من وقود الإضاءة، صار يجلس كل ليلة تحت مصباح الإشارة الواقع على شريط السكة الحديدية، كي يقرأ بقايا صحيفة ممزقة، بغية الاستزادة من المعرفة والمعلومات العامة!

"فلما بلغ سن العشرين، هجر القرية إلى "فيينا"، حيث استطاع الحصول على عمل في إحدى شركات التأمين، إلى جانب عشرات الأعمال الإضافية المنوعة التي كان يقوم بها في أوقات فراغه، بنشاط وهمة نادرين، مما جعله يشبه "السمسار" أو الوسيط في كل ما يصلح للوساطة، من أعمال تجارية وغير تجارية .. وسرعان ما بدأ الأهالي يتنبهون إلى نشاطه، ثم يشعرون بحاجتهم إليه، فقد كان مخزنًا للمعلومات لا ينضب معينه، يعرف كل شيء معرفة الخبير المطلع .. فإذا أرادت أرملة أن تزوج ابنتها وجدت فيه نعم الوسيط للزواج .. وأن رغب

شخص في المهاجرة إلى أمريكا مثلاً وجد عنده المعلومات و"الاستمارات" اللازمة، وطرق تيسير إجراءاتها .. وكان إلى جانب ذلك يشتري ويبيع الثياب القديمة، والساعات، والتحف الأثرية .. ويقدر قيمة الأراضي، والمنقولات، والجياد، ويستبدلها لعملائه .. وبعقد القروض المالية للضباط ومن إليهم .. إلخ .. وكانت دائرة أعماله واختصاصاته تتسع عامًا بعد عام!

"لكن ذلك كله ما كان ليعود عليه بثروة يعتد بها، لولا تقتير صاحبنا الشديد في نفقاته .. من ذلك أنه لم ينفق على ملبسه ومظهره طيلة عشرات من السنين غير ثمن هذه السترة السوداء والنظارة ذات الإطار المذهب اللتين تراهما عليه اليوم، واللتين كانتا بمثابة رداء التنكر الذي أخفى تحته رواج أحواله، وانتقاله من مرتبة الوسيط البسيط إلى مرتبة "المقاول" والرأسمالي! .. كان يعنيه أن يصير غنيًا، لا أن يبدو في مظهر الفني!

"وبقدر شراهته في جمع المال، كانت شراهته في زيادة معلوماته .. لم يكن يكف عن القراءة والدراسة، في كل دقيقة تفيض من وقته أثناء حله وترحاله: درس كتب القوانين التجارية والصناعية، كي يستغنى عن المحامين في أعماله .. وتتبع جميع المزادات الكبيرة في باريس ولندن، باهتمام تاجر العاديات المحترف! .. وجعل من نفسه خبيرًا في كل الصفقات المالية على اختلافها .. وهكذا تطور عملاؤه من فئة الفلاحين، إلى فئة المزارعين، ثم فئة ملاك الأراضي الأرستقراطيين، فلم

يلبث أن صار يفاوض في بيع حاصلات مزارع كبيرة أو غابات شاسعة، وفي بناء المصانع أو تأسيس النقابات، أو التعاقد لتوريد ما يلزم للجيش، وغير ذلك .. وصارت السترة السوداء والنظارة المذهبة تشاهدان أكثر فأكثر في أروقة دور الوزارات .. وبلغت ثروته نحو ربع مليون ريال، وربما نصف مليون .. كل ذلك والناس ينظرون إليه نظرتهم إلى الوسيط البسيط ... حتى أتيح له أن يضرب الضربة الكبرى، فيتحول من "ليو بولد كانيتز" النكرة المغمور، إلى "هر فون كيكسفالفا"!

"وهذه المعلومات التي سردتها عليك وقفت عليها من غير صاحبها .. أما القصة التالية فقد رواها لي هو شخصيًا، على أثر إجراء جراحة خطيرة لزوجته، أثناء انتظارنا للنتيجة واجفين في إحدى غرف المستشفى، بين الساعة العاشرة مساء ومشرق الفجر .. ومن ثم أستطيع أن أؤكد لك صحة كل حرف منها، ففي مثل تلك الظروف، في مواجهة الموت، لا يستطيع الإنسان أن يكذب!"

.. ورشف كوندور نبيذه في بط وتأمل، ثم أشعل سيجارًا أخر، مضى يتابع دخانه بنظرات حالمة .. وأخيرًا انتزع نفسه من شروده في حدة، واستطرد فقال: "تبدأ القصة في قطار بطئ يسير من بودابست إلى فيينا .. وكان صاحبنا – رغم بلوغه الثانية والأربعين، ودبيب المشيب في سالفيه – ما يزال يقضي أكثر لياليه في الأسفار، ضنا بأوقاته النهارية الثمينة أن تضيع في القطارات. ولست في حاجة إلى القول بأنه كان يركب دائمًا في عربات الدرجة الثالثة!

.. وكان له في أسفاره برنامج لا يتغير، فهو يفرش على المقعد الخشبي الصلب خرقة سميكة بالية، ثم يخلع سترته ونظارته، ويرتدي سترة من صوف "التريكو"، ويدلي قبعته على عينيه كي تحجب عنهما النور .. ويقبع هكذا في ركن العربة حتى يغلبه النعاس .. وكان قد تعلم منذ صباه أن الإنسان ليس في حاجة إلى السرير كي يقضي الليلة، أو إلى الراحة كي يستطيع أن ينام!

"لكنه في هذه المرة لم يتم، فقد نمى إلى سمعه حديث خافت يدور بين ثلاثة من جيرانه في العربة .. حديث إطار النعاس من عينيه، فقد كان ينصب على المال! .. كان أحد الثلاثة يقول لمرافقيه: "أن المحتال الماكر قد ربح من هذه الخدعة البسيطة ستين ألف ريال، في غمضة عين!" .. وهنا راح "كانيتز" يحدث نفسه متسائلاً: "ستون ألفًا؟ .. من الذي ربحها ؟ وكيف وأين ؟" .. وسرعان ما كان في أتم يقظة، وكان "دوشا" في برودة الثلج قد بدد من حواسه كل ميل إلى النوم، فغدت مرهفة لسماع قصة الستين ألف ريال! .. ومن ثم جذب القيمة على عينيه أكثر من ذي قبل، كي لا يلحظ رفاقه أنه يقظان، وانتهز فرصة كل ارتجاجه من ارتجاجات القطار كي يدنو بجسمه من المتحدث تدريجًا، حتى لا تفوته من حديثه كلمة، برغم ضجيج القاطرة .. وكأن المتحدث – كما يبدو من كلامه – كاتبًا في مكتب محام بفيينا، يروي في غيظ قصة مخدومه المحامي المحظوظ الذي ربح ذلك المبلغ الضخم دون عناء .. وبرغم أن الحديث كان مبتور البداية، فقد استطاع "كانيتز" أن يفهم مضمونه بفضل انزلاق لسان المتحدث باسم الأميرة "أوروزفار" التي

كانت الصحف قد رددت اسمها كثيرًا بصدد قضية مشهورة كانت بطلتها .. وسأحاول أن الخص لك وقائع تلك القضية فيما يلي: "كانت "أوروزمار" أميرة روسية ثرية هاجرت من أوكرانيا على أثر وفاة زوجها .. ثم فجعت بوفاة طفليها الاثنين في ليلة واحدة بتأثير مرض السعال الديكي، فامتلأ قلبها بالكراهية القاتلة لبقية أقربائها الذين يتطلعون إلى ساعة موتها كي يقتسموا تركتها الضخمة، فامتنعت عن مقابلة أي فرد منهم أو فض أي خطاب يرسله إليها – ولعل حقدها على هؤلاء، ورغبتها في النكاية بهم، كانا من العوامل النفسية التي أعانت على إطالة عمرها حتى بلغت الرابعة والثمانين! – ولم تكن الأسرة، بعد فواجعها الثلاث، تطيق البقاء في قصرها بطبيعة "كيكسفالفا" أكثر من شهرين كل عام .. أما بقية السنة فكانت تقضيها متنقلة بين مشاتي أوربا ومصايفها الفاخرة: "نيس" و"مونترو" و"كان" و"اكس ليبان" وغيرها، حيث كانت تنفق عن سمة وبذخ، وتستنفد كل المتع التي يتيحها لها ثراؤها العريض. وكانت لها تابعة – بمثابة وصيفة – تلازمها في كل تنقلاتها، فتطعمها، وتزينها، وتعزف لها البيانو، وتقرأ لها الروايات الفرنسية الشائقة ... ثم تتحمل منها، علاوة على كل هذه المتاعب، توبيخها وانتهازها، بل وضربها إياها أحيانًا، كلما أدارت "الفودكا" أو "الكونياك" رأسها! .. وكان أهالي تلك المصايف جميعًا يعرفون الأميرة المتغطرسة وتابعتها النحيلة ذات العينين الشاحبتين التي تتبعها كظلها، وتسير خلفها مع كلابها، ولا تخفى خجلها من عجرفة مولاتها المبتذلة .. وإن كانت تخشاها كما تخشى الشيطان!

"وكانت الأميرة قد أصيبت – في سن الثامنة والسبعين – بالتهاب رئوي حاد، أثناء إقامتها بأحد فنادق "تيريتيه" .. وتسرب النبأ إلى أقاربها فهرعوا من بلادهم إلى حيث احتشدوا في الفندق يطاردون الأطباء باستفساراتهم، ويتعجلون موت مورثتهم! .. لكن "الحيزيون" شفيت آخر الأمر، فتفرق الأهل عائدين من حيث أتوا! .. ورشت الأميرة بالمال خدم الفندق وسعاته كي يعيدوا على مسمعها ما قاله فيها أقاربها.. فأيدت روايتهم ظنونها في مطامعهم الأشعبية، فقد قيل لها أنهم تشاجروا كعصبة من الذئاب حول من يأخذ ضيعة "كيكسفالفا"، ومن يفوز بضيعة "أوروزفار" .. ومن يستولى على الجواهر، ومن تكون من نصيبه أملاكها في أوكرانيا، وقصرها في "أوفترشتراس" .. إلخ .. فأبرقت الأميرة على الأثر إلى محاميها في بودايست كي يوافيها، وبحضور طبيين – شهدا بامتلاكها لقواها العقلية – حررت وصية جديدة، ظلت في حرز حريز بعد ذلك ستة أعوام كاملة، حتى وافى الموت أخيرًا صاحبتها ففتحت .. وإذا هي توصي فيها بجميع أملاكها لتابعتها الآنسة "أنيت ديتزينوف"، فيما عدا ضيعة "أوكرانيا" وأموالها النقدية فقد تركتها لمجلس بلدية المدينة التي ولدت فيها، كي يبني بها كنيسة .. وأوضحت الموصية في ختام وصيتها أنها قد حرمت أقرباءها جميعًا "لأنهم لم يصبروا عليها حتى تموت!"

وصعقت الوصية أقرباء الأميرة، فجندوا المحامين، ورفعوا الدعاوى طالبين الحكم ببطلان الوصية، باعتبار أنها كتبت أثناء "مرض الموت"، في وقت لم تكن صاحبتها فيه متمتعة بكامل وعيها .. إلى آخر الحجج

القانونية والمزاعم المألوفة في هذا الصدد .. ولكن دون جدوى، فقد خسروا قضيتهم في مرحلتيها الأوليين، ولم يكن ثمة شك في أنهم سوف يخسرونها أمام محكمة النقض أيضًا!

"والآن نعود إلى "كانيتز" وهو يستمع – متناومًا! – للحديث الذي يجرى بجواره في عربة القطار، "لقد كان يعرف الكثير عن ضيعة "كيكسفالفا" منذ بدأ اشتغاله بأعمال الوساطة"، فسمع كاتب المحامي يذكر أن أقرباء الأميرة انتهزوا فرصة غياب محامي الوارثة في فيينا، لحضور قضية أخرى صغيرة، وزار وفد منهم غريمتهم الآنسة "آنيت"، وأفلحوا في التأثير عليها، والتلويح لها بالراحة وهدوء البال والخلاص من مشكلات القضايا والمنازعات أمام المحاكم، في مقابل عقد تسوية خاصة معهم قبل موعد نظر النزاع أمام محكمة النقض .. وقبلت الساذجة اقتراحهم فوقعت على التسوية المعروضة، وبذلك فرطت بجرة قلم في أكثر من نصف الثروة إلى ورثتها! .. وطبعًا كان في الإمكان إثبات طبلان هذه التسوية التي لم تتم بحضور محضر قضائي مختص، والتدليل على أن الوارثة حين وقعت عليها كانت تحت تأثير عصبة الأقرباء المدلسين، لكن هؤلاء عرفوا من أين تؤكل الكتف، فسارعوا إلى شراء سكوت محاميها عن اتخاذ أي إجراء ضدهم في مقابل ذلك المبلغ الدسم، الستين ألف ريال! .. وهكذا لم يبق الآن للوارثة الحمقاء من الثروة الضخمة التي آلت إليها غير ضيعة كيكسفالفا، وهي أن تلبث أن تفرط فيها بدورها فيما أعلم .. فإن شخصًا من رجال الأعمال يدعى "بتروفيك" يعتزم استئجارها منها بمبلغ زهيد!"

".. وعند هذا الحد تشعب الحديث إلى موضوعات أخرى، ولكن بعد أن سمع كانيتز ما فيه الكفاية لكي يسيل لعابه، فقد كان أعرف الناس بالكنوز والتحف التي يحتوي عليها قصر كيكسفالفا، منذ توسط في التأمين عليها لدى إحدى الشركات قبل عشرين عامًا، وكان بينها أوان من الخزف الصيني المزخرف والحرير المشغول خلفها جد الأميرة الذي كان سفيرًا لروسيا في "بكين" – وهي وحدها تساوي في نظر عشاق التحف من الأمريكيين مبالغ طائلة – فلو أمكنه الحصول عليها بثمن مناسب، في زحمة انتقال ملكيتها من مالك إلى آخر، لكانت صفقة رابحة حقًا، سيما وهو يعرف "بتروفيك" الذي يقال أنه سوف يستأجر القصر .. وهكذا صح عزم صاحبنا على أن يتسلل من القطار في أقرب محطة إلى الضيعة – وكان مقدرًا أن يبلغها في منتصف الساعة الثالثة صباحًا، أي بعد نحو نصف ساعة! – وبالفعل، نفذ المغامر هذا الخاطر فورًا، فغادر القطار في المحطة التالية .. وبعد ليلة قضاها مؤرقًا، مثل القائد المقدم على معركة لا يطمئن إلى نتيجتها، غادر "كانيتز" غرفته بفندق القرية، في تمام الساعة السابعة صباحًا، متجهًا إلى القصر .. وتلاحقت دقات قلبه وهو يطرق باب الحديقة الرئيسي، دون مجيب .. فمضى يطوف ببقية الأبواب التي تتخلل سور الحديقة، ويدقها بيده، ويصفق، ويصيح .. ولكن دون جدوى! .. وضاعفت من قلقه خشيته أن يكون "بتروفيك" اللعين يقد هرع إلى "بودابست" ليعقد صفقته مع الوارثة الساذجة بغير إبطاء! .. وأخيرًا لمح امرأة تسقي أصص النباتات داخل غرفة زجاجية تقع في طرف الحديقة، فطرق على الزجاج بيده،

وأشار إلى المرأة كي تفتح له أحد الأبواب .. وأقبلت هذه آخر الأمر، تتعثر في مشيتها – خجلاً أو ترددًا – وكانت امرأة نحيلة جاوزت طور الشباب الأول، ترتدي قميصًا بسيطًا قاتمًا و"مريلة" قطنية، وتمسك في يدها مقص الحديقة الكبير نصف مفتوح .. فصاح بها، نافد الصبر: "أنكم تتركون الزائر ينتظر طويلاً على الباب .. ولكن أين بتروفيك؟" .. فأجابت المرأة في تلعثم: "من؟ آه!، تعني بتروفيتش؟ .. أني لم أره، ولكني أحسب أنه قد ذهب إلى فيينا، وزوجته تأمل أن يعود إلى هنا في المساء."

"وعز على كانيتز أن يقضي ليلة أخرى في الفندق، يتفق فيها نفقات أخرى، دون وثوق من النتيجة .. ولعن سوء الحظ الذي جعل الرجل يختار هذا اليوم بالذات للتغيب عن البلدة! .. فعاد يسأل المرأة: "هل أستطيع، في انتظار ذلك، أن ألقي نظرة على القصر من الداخل؟ أليست المفاتيح معك؟ .. هيا إذن ولا تخشى شيئًا، فلن أخطف منقولات من القصر وألوذ بالفرار!"

"وبعد مناقشة سقيمة نشر الأعصاب، سمحت المرأة له بالدخول، فتبعها إلى داخل القصر وهو ساخط على المحضر الذي ترك القصر في حراسة مثل هؤلاء الخدم الأغبياء! .. وعند الباب الداخلي بدا على المرأة التردد والارتباك، من جديد .. فصاح بها وقد نفد صبره: "هيا أسرعي، فليس عندي وقت أضيعه .. ماذا تصنعين أنت هنا بربك؟" .. فوقفت المرأة مذعورة في مكانها بلا حراك، ثم أجابت وقد احمر

وجهها: "إني .. أعني "كنت" تابعة الأميرة!" .. فتراجع صاحبنا برغمه خطوة إلى الخلف، وهتف بها مأخوذًا: "أتقصدين أنك أنت الآنسة "أنيت ديتزينوف؟"، فأجابت بلهجة الخائفة، وكأنها اتهمت بجريمة: "نعم .. أنا هي!"

"ولأول مرة في حياته، أحس كانيتز بالارتباك والبلبلة، فخلع قبعته وغير لهجته، وهو يردف قائلاً: "أرجو المعذرة، أرجو المعذرة يا آنسة .. ولكن لم يقل لي أحد أنك وصلت، لم أكن أظن .. أرجو أن تغفري لي .. أني إنما جئت لكي"، وتردد برهة .. كان عليه أن يختلق فورًا سببًا كاذبًا لحضوره .. وما عتم أن أستطرد: "جئت بشأن التأمين، كي أستوثق من أن كل شيء باق في مكانه .. واجبنا يقتضينا ذلك .. ولكن لا داعي للاستعجال" .. فقالت له: "لا بأس، في وسعك أن ترى بنفسك أن كل شيء باق في مكانه!" .. فشكرها كانيتز بانحناءة مؤدبة، ودلف كلاهما إلى الداخل. وتبين صاحبنا صدق قولها، وفيما هما يطوفان بأنحاء القصر كان الماكر يحدث نفسه: "يجب أن أظفر بصداقتها، ولا أدعها تفلت من يدي! .. فلأشغلها بالحديث المتواصل!" .. وأثناء الحديث راح يستدرجها إلى الإفضاء بالمعلومات التي تهمه، فقال لها وهو يبدي إعجابه بالمناظر المحيطة بالقصر: "لكنك ستقيمين بيننا هنا، فيما أحسب؟" .. لكنها أجابته على الفور: "أنا؟ .. كلا! وماذا أفعل وحدي في قصر فسيح مثل هذا؟ .. أني سأغادره توا عقب انتهاء الإجراءات الرسمية."

"وأختلس كانيتز نظرة إليها: كانت المليونيرة الساذجة أشبه بقشة ضئيلة وسط الحجرة الفسيحة! وفيما عدا شحوبها الشديد، وهيئتها المذعورة، كان الناظر إليها يستطيع أن يقول أنها حسناء! .. وبحكم خبرة كانتيز بالطبائع البشرية، أدرك توا أنه أمام مخلوقة ليس لها إرادة خاصة بها، مخلوقة عاشت دهرا في مركز التابعة لغيرها، بحيث صار من المستحيل عليها أن تجد الشجاعة الكافية لاتخاذ قرار، بوحي من إرادتها المستقلة .. وبحيث أفزعها- أكثر مما سرها- أن ترث هذه الثروة الطائلة، التي تجثم على قلبها كالحمل الثقيل! .. وبوحي خبرته- طيلة عشرين عاما- بوسائل الإغراء والإقناع، في المسائل المالية، بادر كانتيز إلى الضرب على الوتر الذي لمس من المرأة ميلا إليه، فقال لها: "لعلك محقة فيما اعتزمته .. فإن ضيعة شاسعة مثل هذه لا تدع لمالكها لحظة واحدة يستريح فيها من متاعب المعاملات مع الزراع، والجيران، ومصلحة الضرائب، والمحامين .. الخ .. كما أن إدارتها تتطلب يدا حازمة تحسن البطش بالطامعين، وحتى كانت لك هذه اليد الحديدية فإن الأمر يقتضيك كفاحا شاقا!"

"وأمنت هي على كلامه، مقتنعة بصحته، بينما كان عقله يفكر بلا توان في أسلم السبل وأسرعها إلى تحقيق مطامعه، والظفر باستئجار هذه الضيعة، قبل أن يظفر بها "بتروفيك"! .. وهكذا استمر في إدخال الرعب إلى قلب المرأة، كي تقبل أي مبلغ يعرضه عليها، مستغلا قلة خبرتها باستثمار الأموال، وعجزها عن أن تساومه أو تقاوم أحابيله

.. وهكذا مضى في ثرثرته، متظاهرا بأنه يتحدث عن غير غرض شخصي، بينما كان كل عصب وكل خلية في مخه توازن، وتدبر، وتفكر بسرعة هائلة! .. وأصغت له المرأة مطرقة الرأس .. وفجأة رفعت عينيها وزفرت زفرة حارة، بدا كأنها خرجت من أعماق قلبها، ثم قالت كالحالمة: "نعم، إن هذه الضيعة حمل ثقيل .. آه لو استطعت بيعها!"

.. وهنا سكت الدكتور كوندور فجأة، ثم استأنف كلامه بعد قليل فقال: "ينبغي أن أقطع حديثي يا سيدي الملازم كي أوضح لك ما كان لتلك العبارة الواحدة القصيرة التي فاهت بها المرأة من صدى في نفس صديقنا كانتيز! .. لقد ذكرت لك أنه روي لي هذه القصة خلال أظلم ليلة في حياته، ليلة وفاة زوجته، أي في ساعة من تلك الساعات التي لا تمر بالإنسان أكثر من مرتين أو ثلاث طيلة العمر، والتي يتوق فيها أكثر الناس تحفظا إلى كشف دخيلة نفسه لشخص ما!

وأني لأذكره– كما لو كان ذلك بالأمس– وهو يهمس لي بهذه القصة في صوت منفعل، دون توقف، كأنما يريد أن ينسى في غمرة حديثه أن زوجته تموت في غرفة أخرى من المصحة، وليغرق حواسه في طوفان لا ينتهي من الكلمات! .. لكنه لم يكد يبلغ من قصته هذا الجزء، الذي نطقت فيه المرأة بتلك العبارة، حتى شحب وجهه وغص حلقه، من انفعال الذكرى– برغم انقضاء نحو ستة عشر عاما على ذلك التاريخ!– وراح يكرر عبارة المرأة، مرة بعد مرة، باللهجة التي نطقها بها: "آه لو استطعت بيعها!" .. لقد أدرك كانتيز في تلك اللحظة أن فرصة–

و"صفقة"– العمر كله قد لاحت له، بل ألقت بنفسها بين يديه، بحيث لم يبق عليه غير أن يغلق عليها قبضته: نعم في وسعه أن "يشتري" الضيعة الهائلة، لا أن يستأجرها فقط! .. ومضت الأفكار تتسابق في ذهنه وهو ماض في ثرثرته المتعمدة، قائلا لنفسه: "يجب أن أشتريها فورا، قبل أن يصل "بتروفيك" أو سواه من التنافسين .. ولن أبرح هذا المكان إلا وأنا مالك "كيكسفالفا" الأوحد المحظوظ .. فلأقطع على المرأة خط الرجعة، ولا أدعها تتملص من قبضتي!"

"وبتلك القدرة الغامضة التي تواتي المرء في لحظات نادرة من اليقظة الذهنية، المرهقة للأعصاب، مضى الماكر يفكر في مصلحته الخاصة، في الوقت الذي يتحدث فيه إلى المرأة حديثا مضادا لتلك المصلحة، قائلا لها: "تقولين أنك تريدين بيعها .. إن البيع يا آنسة أمر سهل، لكن البيع بسعر مرتفع فن قائم بذاته، وهو النقطة الهامة في الموضوع .. أنه يتطلب العثور على شخص أمين يعرف المنطقة والأرض والأهالي .. لا واحد من أولئك المحامين الذين يورطونك في إجراءات طويلة معقدة .. ثم ينبغي أن تجدي من يدفع لك الثمن نقدا، وليس بسندات أو أوراق مالية معرضة لتقلبات الأسواق .."

.. وفيما هو يتكلم هكذا، كان يدير الحسبة في رأسه: "في وسعي أن أدفع في الضيعة أربعمائة ألف ريال، أو أربعمائة وخمسين ألفا على الأكثر– فإن الصور والتحف التي في القصر تساوى وحدها نحو مائة ألف، هذا عدا القصر نفسه، والمزرعة!– ولكن يجب أن أستوثق أولا

مما إذا كانت الضيعة محملة برهن، وما إذا كانت المرأة قد تلقت عرضا محدد الرقم، كسعر لها؟" .. وفجأة ألقى كانيتز على محدثته هذا السؤال: "هل لديك– وأغفري لي يا آنسة هذا السؤال– فكرة تقريبية عن السعر؟" .. فأجابته فورا وهي ترمقه بعينين زائغتين: "كلا" .. وساءه هذا، فقد كان يعلم أن الجهلة بقيمة ما يملكون هم أصعب الناس عادة في التعامل، لأنهم لا يكفون عن استشارة كل من هب ودب في شأن السعر، وبذلك يرتفعون به إلى أكثر مما يساوي عادة! .. لكن كانتيز لم ييأس، بل واصل استفساراته فقال: "لكن لابد أنك تعرفين إذا كانت الضيعة مرهونة أم لا، وبأي ثمن قدرت عند فرض الضرائب عليها .. أفلم يذكر لك محاميك شيئا في هذا الصدد؟" .. فقالت له: "آه! لقد ذكرتني .. منذ أيام كتب لي المحامي شيئا له صلة بتقدير الثمن والضرائب .. نعم، معك حق .. لكنه كتبه بالهنغارية، التي لا أعرف منها حرفا .. وأذكر الآن أنه أوصاني بتكليف أحد بترجمتها، لكني نسيت الأمر كله من شدة انشغالي وارتباكي. لابد أن الأوراق كلها في حقيبتي، فلو تكرمت بالصعود معي إلى غرفتي فسأريك كل شيء .. هذا إلا .. إلا إذا كنت قد أثقلت عليك بمشكلاتي الخاصة!"

"وارتجف مانيتز من فرط الانفعال .. إن الثمرة تسقط في حجره بسرعة لا تحدث إلا في الأحلام! .. إن المرأة توشك أن تعرض عليه مستنداتها التي تحوي تقدير ممتلكاتها، وبذلك تعطيه الكلمة العليا في الموضوع! .. وانحنى لها في تواضع قائلا: "أؤكد لك يا أنسة أنه يكون من دواعي سروري لو استطعت تقديم نصيحة نافعة لك في هذا الشأن،

فإن لي– ولا فخر– خبرة كبيرة بهذه المسائل .. وقد طالما لجأت الأميرة إلى ملتمسة مني إرشادها في بعض الأمور المالية!"

"وصعد إلى غرفتها، حيث جعلت المرأة تنبش أوراقها حتى عثرت على الورقة المطلوبة فأعطته إياها، وكان المحامي يخطرها فيها بأنه قد نجح، بوساطة صديق له من ذوي النفوذ، في الحصول من مصلحة الضرائب على تقدير استثنائي مخفض للضيعة، يبلغ مائة وتسعين ألف ريال، في حين أنها تساوي أكثر من ثلاثة أو أربعة أضعاف هذا المبلغ! "وخفق قلب كانيتز، وأصفر وجهه .. هذا يؤيد تقديره هو لقيمة الضيعة بنحو ستمائة أو سبعمائة ألف ريال، عدا التحف التي يجهل المحامي قيمتها الحقيقية! .. إذن كم ينبغي أن يعرض على المرأة؟ .. تراقصت الأرقام وسبحت أمام عينيه .. بينما بلغ سمعه صوت المرأة تسأل في لهفة: "أليست هي الورقة المطلوبة؟" .. فقال لها: "أنها هي، وفيها يخطرك المحامي بأن قيمة الضيعة مائة وتسعون ألف ريال .. أعني قيمتها الأسمية طبعا!" .. فقالت: "قيمتها الأسمية؟ .. وماذا يعني ذلك؟" .. ورأى صاحبنا أن فرصته لاقتناص الصفقة قد حانت، فإن لم ينتهزها ضاعت إلى الأبد! .. ووجد نفسه يجيبها وهو يقمع أنفاسه اللاهثة: "القيمة الأسمية هي القيمة الرسمية المشكوك فيها، وهي تختلف دائما عن القيمة الحقيقية للمبيعات .. فالمرء لا يستطيع أن يجزم قط بإمكان تحصيل المبلغ الذي قدرت الضريبة على أساسه كاملا .. قد يحدث هذا أحيانا، بل قد يحصل المشتري على أكثر من المبلغ المذكور، لكن ذلك أمر نادر لا يمكن الاعتماد عليه. أنه أشبه بالمقامرة، كما في البيع بالمزاد

العلني مثلا .. أعني أنه في حالة بيع هذه الضيعة يمكنك الحصول على ثمن فعلي لا يقل عن مائة وخمسين ألف ريال ..!"

"وجمد الدم في عروق كانيتز، حين التفتت إليه المرأة تسأله، في حدة جعلته يرتجف هلعا: "كم ألف ريال ذكرت؟" .. ولعله خشى أن تكون قد فطنت إلى خدعته الكاذبة، ولهذا فكر في أن يرفع السعر خمسين ألف أخرى؟ .. لكن صوتا داخليا أهاب به أن يصمد، ويجرب حظه! .. فقال مكررا، ونبضات قلبه تدق أذنيه بشدة: "مائة وخمسون ألفا .. وأعتقد أن الثمن الفعلي ينبغي ألا يقل عن ذلك!" .. قالها وقد كاد قلبه يكف عن الخفقان، ونبضه يتوقف! .. وبعد لحظات– خالها دهرا– تساءلت المرأة في لهجة المأخوذة" "حقا؟ .. هل تعتقد بإمكان الحصول على هذا المبلغ ثمنا للضيعة؟" .. وكان على كانيتز أن يبذل جهدا للسيطرة على أعصابه، قبل أن يجيبها بلهجة المقتنع: "نعم يا آنسة .. أستطيع أن أتعهد لك بذلك. ويجب ألا تقبلي ثمنا أقل من هذا؟"

.. ومرة أخرى قطع الدكتور كوندور حديثه، فحسبته يتأهب لإشعال سيجارة .. لكنه بدلا من ذلك خلع نظارته، ثم أعادها إلى مكانها في انفعال .. وبعد أن مر بيده على شعره، رمقني بنظرة طويلة قلقة، واضطجع في مقعده، ثم استأنف كلامه: "قد أكون قد أفضيت إليك بأكثر مما ينبغي، أو بأكثر مما كنت أريد على أية حال .. لكني أعتقد أنك لن تسيء فهمي، فلئن كنت قد صارحتك بالحيلة التي خدع بها

كيكسفالفا المرأة الساذجة التي وثقت فيه، فلم يكن قصدي من ذلك أن أحرضك ضده بحال .. فإن الشيخ التعس الذي تعشينا معه الليلة، هذا الشيخ المريض النفس والجسد، والذي هو على استعداد لأن يهب آخر فلس من ثروته كي يرى ابنته قد شفيت .. لم يعد ذلك الآثم الذي ارتكب تلك الخدعة المنكرة، وأنا آخر من يضمر له اليوم شعور الاتهام والتحقير .. بل أنني في هذه الآونة نفسها التي يحوجه يأسه فيها إلى عطف الناس، تبدو لي أهمية وقوفك على الحقيقة مني أنا مباشرة، بدلا من سماعها مشوهة من أفواه الشائعات! .. وأول حقيقة ينبغي أن تذكرها دائما في هذا الصدد أن صاحبنا لم يذهب إلى "كيكسفالفا" في ذلك اليوم وفي نيته أن يظفر بالضيعة ذاتها عن طريق الغش والتدليس، وإنما كان كل همه أن يشتري بعض التحف التي يستطيع الإتجار فيها والربح منها .. وإذا هو يفاجأ بتلك الفرصة الفريدة، التي ما كانت عقليته التجارية لتسمح له بتركها تفلت من يده .. فكان طبيعيا أن يتشبث بها! .. ولست أريد أن أطيل، لذلك أغفل بعض التفصيلات التي لا تؤثر في جوهر القصة .. وحسبك أن تعلم أن الساعات التي تلت ذلك الموقف الذي رويته كانت أحفل ساعات حياته بالانفعالات الحادة المختلفة .. كيف لا وقد لاحت في سماء حياته فرصة الظفر– خلال أربع وعشرين ساعة على الأكثر– بثروة تفوق ما اقتناه طيلة أربع وعشرين سنة من الكد المتواصل! .. ثم هو إلى ذلك لم يكن في حاجة إلى إغراء ضحيته أو مطاردتها، بل كانت ضحيته هي التي تسعى بملء إرادتها إلى براثنه، وتلعق اليد التي تمسك لها السكين! .. وأدرك "كانيتز" أن الخطر

الوحيد الذي يهدده بفشل الصفقة قد يأتي من جانب أي شخص أجنبي تلتقي به المرأة أو تسأله النصح، ومن ثم جعل همه أن يشدد عليها حصاره حتى يتم إجراءاته قبل أن يتدخل أحد في الأمر، أو يعود "بترو فيك"! .. وكان عليه أثناء ذلك ألا يفضح اهتمامه بإتمام الصفقة لمصلحته الشخصية .. وهكذا دبر خطته الجريئة "النابليونية" لاغتصاب "قلعة" كيكسفالفا قبل وصول جيوش العدو! .. والحظ دائما شريك متطوع لخدمة المغامر الجسور، فقد تدخل في الموضوع عامل آخر يسر المهمة لكانيتز من حيث لا يشعر، وهذا العامل هو رغبة الوارثة التعسة في الخلاص من الضيعة بأسرع ما يمكن، بسبب الجفاء الظاهر والبغض الشرير الذي استقبلها به كل من كانت له صلة بالقصر، من الخدم والزراع والجيران الحاسدين! .. بحيث أدركت المسكينة من أول لحظة أنها لن تستمتع بساعة واحدة من السلام أو الراحة في القصر .. وهكذا لم يكد كانيتز يقترح عليها- واجفا- أن تصحبه في اليوم نفسه إلى "فيينا" حيث يعرف شخصا يبحث عن صفقة مماثلة .. حتى قبلت المرأة على الفور هذا العرض، شاكرة لكانيتز ما بدا لها من أنه "تطوع" لمعاونتها، تطوع أملته المروءة والشهامة، وبادرت إلى التماس نصائحه في شأن أفضل الوسائل لاستغلال المبلغ الذي سوف تقبضه، ووجوب الابتعاد عن التعقيد الضار الذي يجلبه تدخل المحامين في هذه المسائل!

".. ولم يكد يقترب موعد قيام قطار الساعة الرابعة الذاهب إلي فيينا، حتى غادر الاثنان القصر إلى المحطة، فحجزا مقعدين في عربة

الدرجة الأولي– لأول مرة في حياة كانيتز!– وفي فيينا قادها صاحبنا إلى فندق محترم احتل كل منهما غرفة منه. وكان عليه أن يهرع إلى محاميه وشريكه في كثير من الصفقات المدعو "جولينجر" كي يدبر الأمر معه، لكنه خشي أن تتصل في غيبته بمحاميها أو تلقي من يبدل رأيها، فاقترح عليها أن تقضي السهرة في مشاهدة احدي روايات الأوبرا.. وبعد أن أجلسها في مقعدها واطمأن إلى أنها لن تبرحه قبل انقضاء أربع ساعات، خف لزيارة محاميه.. لكنه لم يجده في مكتبه، ولا في داره، فمضي يبحث عنه حتى عثر عليه في احدي الحانات .. وهناك شرح الأمر له، واعدا إياه بمكافأة قدرها ألفا ريال إذا أعد العدة للتوقيع على عقد الصفقة أمام الموثق الرسمي في الساعة السابعة من مساء اليوم التالي .. ثم أسرع عائدا إلى الأوبرا ليصحب ضحيته إلى الفندق .. وفي مخدعه هناك عاني ليلة ثانية طويلة بلا نعاس، فكلما اقترب من هدفه ازداد قلقه وخوفه من أن يتبدد حلمه في آخر لحظة! .. وهكذا ظل طيلة الليل يدبر الإجراءات التي يعتزم اتخاذها في الغد لإتمام محاصرة العدو: فأولا ينبغي ألا يتركها وحدها لحظة واحدة، أو يدعها تسير على قدميها في الطريق، أو تقع عينها على صحيفة من الصحف .. ولكن الذي حدث أن كل هذه المخاوف والاحتياطات كانت عقيمة ولا داعي لها، فإن الضحية نفسها لم تكن تريد الفرار، فسارت وراءه كما تسير النعجة الغبية إلى الذبح، وحول عنقها شريط أحمر!

.. ومضي الاثنان يتنقلان بسيارة مأجورة بين مختلف الإدارات والبنوك، وهي أطيعه طاعة عمياء، كالطفلة، وتوقع على كل ما يقدمه لها

من أوراق ومستندات– دون أن تقرأ محتوياتها!– وكأنها تبغي الانتهاء من كل ما له صلة بالمال ومتاعبه، كي تعود فتجلس في غرفة هادئة لتقرأ، أو تغزل الصوف، أو تعزف البيانو!

"وفي الموعد المحدد، اجتمعا بالمحامي والموثق الرسمي، فوقع الطرفان على العقد، وبودل تسليم الثمن وصكوك ملكية الضيعة، ثم أودعت ثروة المرأة النقدية أحد البنوك المشتغلة بتوظيف الأموال، لاستغلالها في عملية تدر عليها إيرادا سنويا منتظما قدره ستة آلاف ريال في السنة .. في الوقت الذي ضاعف فيه كانيتز ثروته ثلاثة أضعاف، بجرة واحدة من قلمه، وصار منذ تلك اللحظة مالك "كيكسفالفا" وسيدها الأوحد!

"وكان كانيتز قد علم من المرأة خلال النهار أنها تعتزم الرحيل عقب إتمام الإجراءات إلى حيث تقيم مع بعض أقربائها في إقليم "وستفاليا"، فاستفسر لها عن موعد القطار الذي يقلها إلى هناك، وعلم أنه يغادر فيينا في الساعة التاسعة والثلث من صباح اليوم التالي .. وهكذا استقر الرأي على أن تبيت المرأة ليلة أخري في الفندق .. فلما ودع الموثق والمحامي كانيتز على أثر التوقيع على العقد، وخلا هو إلى ضحيته، أحس رهبة خفية! .. لست أعني أن ضميره قد استيقظ فجأة، فندم على فعلته، وإنما أريد أن أقول أن شعوره نحو المرأة تبدل على حين غرة، فلم تعد هي بالنسبة له بمثابة الخصم الذي يحتال عليه كي يجبره على التسليم.. بل انكمشت في نظره إلى امرأة ساذجة مسكينة،

تسير إلى جانبه في هدوء ومسالمة! .. وصدقني أن شيئا لم يثقل على قلب "نابليون كانيتز" في ساعة انتصاره الأعظم السريع، أكثر من أن ضحيته قد يسرت له سبيل الانتصار عليها، فلم تقاومه مقاومة تذكر .. والمرء حين يظلم شخصا أو يسيء إليه، يلذ له أن يوحي إلى نفسه، كي يريح ضميره، بأن هذا المظلوم أخطأ في حقه! .. لكن كانيتز لم يجد ما يتهم به ضحيته، فقد سلمت نفسها له معصوبة العينيين، ولم تكف طيلة الوقت عن أن ترمقه بنظرات الثقة، بل الشكر! .. فماذا يقول لها الآن، وهو سائر إلى جانبها؟ .. أيهنئها على بيع الضيعة، أو بعبارة أصح على «فقدانها»؟ .. وازداد إحساسه بالحرج، فجعل يمني نفسه بقرب وصولهما إلى الفندق، والخلاص من رفقتها .. إلى الأبد!

"وبعد أن سارا مسافة صامتين، وقد بدت على كليهما سيماء التفكير .. سعلت المرأة قليلا، ثم ابتدرته قائلة: "لا تؤاخذني! .. لكني أريد قبل سفري أن أسوي كل الأمور التي بيننا، فأشكرك أولا من أجل كل المتاعب التي تجشمتها بسببي .. ثم أرجو أن تصارحني بالمبلغ الذي أنا مدينة به لك في مقابل هذه المتاعب!". وكان ذلك أكثر مما يستطيع الرجل أن يحتمل .. فانتابه شعور المعتدي حين يضرب كلبا بقسوة، فيعود الكلب بعد قليل وهو يهز ذيله كي يلعق- في توسل ومذلة- اليد التي ضربته! .. فشكرها محتجا ومعتذرا، وقد أحس بعرق الخجل ينضح من جسمه، وكانا قد بلغا الفندق، ففكر كانيتز في أن يدعوها إلى العشاء، أو إلى سهرة في أحد المسارح .. لكنها قطعت عليه حبل تفكيره حين مدت إليه يدها قائلة: "أعتقد أنني ينبغي ألا آخذ من وقتك

أكثر مما أخذت. والواقع أنه قد ساءني أن تضيع يومين كاملين في تصريف مشكلاتي، فما من شخص آخر يقدم على التضحية بمصالحة الخاصة إلى هذا الحد .. ولم يحدث قط من قبل أن أظهر لي أحد كل هذا العطف والمعونة، ولا تصورت لحظة واحدة أن في الإمكان تسوية كل تلك المسائل المعقدة بهذه السرعة وهذا التوفيق .. فأشكرك كل الشكر!"

".. فأخذ كانيتز يدها الممدودة في يده، ولم يملك نفسه من النظر إلى وجهها. وكانت حرارة عاطفتها قد أذابت الكثير من خجلها وأجفالها، وأضرمت الحمرة في قسماتها التي كانت في العادة شاحبة متهيبة، فبدت أشبه بالطفلة في ابتسامتها الشاكرة ونظرة عينيها الزرقاوين المعبرتين .. وحاول كانيتز أن يجد شيئا يقوله .. ولكن قبل أن يتكلم، كانت قد ودعته ومضت، خفيفة الخطو، يحدوها الجلال والثقة، شأن من ألقت عن كاهلها عبئا ثقيلا، وتحررت من أغلالها ..!

"وهكذا خلف الحمل الوديع جزاره .. فأحس كانيتز بأنه كالمضروب على رأسه بفأس! .. ووقف ذاهلا بضع دقائق، يحدق في مدخل الفندق الذي اختفت وراءه المرأة .. وأخيراً حمله تيار الزحام في غمرته إلى حيث لا يدري، وعبارة الشكر الأخيرة التي وجهتها إليه، تدوي كالطبل في أذنيه! .. ولم يكن أحد قد وجه إليه مثل هذه العبارة من قبل، ولا نظر إليه إنسان مثل نظرتها المنطوية على العرفان بالجميل!.. في حين أنه خدعها وخانها أبشع خيانة!

".. وتوقف في طريقه مرارا، ليمسح العرق عن جبينه.. وفجأة رأي صورته في مرآة محل تجاري، فحدق في وجهه كما يحدق الإنسان في صورة مجرم نشرتها إحدى الصحف، ليري أين يبدو الإجرام في قسماته: أفي ذقنه الذي يمثل الميل إلى المشاكسة، أو شفته القبيحة، أو عينيه القاسيتين؟ .. وفجأة تذكر عيني المرأة التي تركها لتوه: أين من هاتين العينين الزرقاوين المضيئتين اللتين تشعان بالإيمان والإخلاص، عيناه الشرهتان القلقتان، المقرحة أجفانها؟! .. وأين من شخصيتها الطاهرة المهذبة، شخصيته الملتوية المعقدة؟! .. ومضي يحدث نفسه: "أنها تخان ولا تخون! .. أنها من ذلك الصنف الساذج الذي يباركه الله! .. وإن حيلي وخدعي كلها لم تجلب لي من السعادة والسلام عشر ما جلب لها استسلامها!" .. وهكذا أحس كانيتز أنه، في يوم انتصاره الأعظم، أكثر تعاسة منه في أي يوم سابق!

"وأخيرا شعر بالجوع، فدخل مقهى وطلب شيئا ليأكله .. لكن كل قضية صارت تثيره، ومضى يحدث نفسه: "ماذا أصنع بهذه الضيعة وإنا لست من الزراع؟ .. وهل يعقل أن أعيش وحدي في قصر يضم ثماني عشرة حجرة؟! .. ماذا أفعل بكل هذا؟ .. كان غباء مني أن أشتري الصفقة لحسابي الخاص .. وماذا لو اكتشفت المرأة أنني لست الوسيط بل الشاري؟ .. فلأردها لها إذا شاءت، وأحتفظ لنفسي بعشرين أو عشرة في المائة من قيمتها .. إن في وسعها دائما أن تستردها إذا ندمت يوما على بيعها!" .. وتمكنت الفكرة من رأسه، فاعتزم أن يقابل المرأة في صباح اليوم التالي – قبل موعد قيام القطار– كي يعرض عليها هذا الأمر.

و إذ انتهى إلى هذا الحل، خيل إليه أنه سوف ينعم بليلة ينامها ناعم البال، بعد الليلتين اللتين قضاهما مؤرقا حتى الصباح .. لكن رجاءه خاب، فقد بقي مسهدا، تدوي في أذنيه عبارتها "أشكرك كل الشكر!" .. ولم تنتصف الساعة الثامنة من الصباح حتى كان في ردهة الفندق، يسأل عن الآنسة "ديتز مينوف"، حاملا لها على ذراعه باقة فاخرة من الأزهار، وصندوقا من الشكولاتة الغالية!

"وقيل له أنها في حجرة الطعام تتناول الإفطار .. فاتجه نحوها، وكان ظهرها إلى الباب، حتى بلغ مائدتها .. فوضع حمله أمامها، قائلا في شيء من الاضطراب: "تذكار بسيط، لمناسبة سفرك " .. فأجفلت، و صار وجهها في حمرة القرمز، فإن أحدا قبل ذلك لم يفكر في إهدائها مثل هذه الباقة .. وقالت في حياء عذب: "أوه! .. ما لزوم كل هذا؟ .. أنها أجمل من أن أستحقها !" .. ورمقته بنظرة تفيض شكرا. ولم يدر هو هل انعكاس الورود الحمراء، أم صعود الدم إلى وجهها، هو الذي لون وجنتيها بصبغة قانية جعلتها تبدو حسناء، برغم أنها خلفت نضرة الشباب؟

"ودعته إلى الجلوس، فلبى دعوتها وهو يقول: "إذن .. أنت ذاهبة حقا؟" .. وكان في صوته رنين الأسف، فأجابت وهي تخفض رأسها في لهجة التسليم الذي لا ينطوي على فرح أو أسي: "نعم" .. وعلم أن أقربائها الذين تزعم الإقامة معهم هما امرأة في حكم ابنة العم، وزوجها – الذي لم تره قط – وكانا قد كتبا إليها يرحبان بإقامتها معهما في مزرعتهما

الريفية الصغيرة! .. فسألها: "ماذا اعتزمت أن تفعلي في تلك البقعة النائية؟" .. فأجابته بأنها لا تدري! .. وكان في جوابها فتور، وحيرة، وعدم استقرار .. ذكرته كلها بحاله هو وحياة "التشرد" التي يحيياها، بلا بيت، ولا أسرة، ولا هدف! .. فقال لها : "لكن الإنسان ينبغي أن يتجنب السكنى مع الأقرباء .. وأنت في غير حاجة الآن إلى أن تدفني نفسك في بقعة مثل تلك البقعة النائية!" .. فقالت : "إني لأنظر إلى الأمر حقا في شيء من القلق .. ولكن ماذا عساي أن أفعل ؟" .. وتنهدت، ثم رفعت إليه عينيها الزرقاوين كمن تلتمس عنده النصيحة .. هاتان هما العينان الصافيتان اللتان ينبغي أن تكونا للمرء! .. وفجأة، اقتحمت الطريق إلى لسانه فكرة، أو لعلها رغبة، فقال لها: "لم لا تبقين إذن هنا؟» .. ثم أضاف بصوت خافت: "معي!"

"فأجفلت المرأة، وحدقت فيه .. وعندئذ فقط أدرك أنه فاه يقول ما كان ينبغي أن يفوه به! .. لقد أفلتت العبارة منه دون أن يزنها كعادته ويمحصها .. بل دون أن يعترفا لنفسه بأنه يريد النتيجة التي تترتب عليها! .. وصعد الدم دافقا إلى وجنتي المرأة، فخشي أن تكون قد أساءت فهم قصده، ففسرته بأنه يريدها "خليلة" له .. ومن ثم سارع ينفي عن ذهنها شبهة الإهانة، فقال لها موضحا: "أعني تبقين .. كزوجة لي؟" .. واختلجت شفتاها، وخيل إليه أنها توشك أن تنفجر باكية أو غاضبة! .. ثم نهضت فجأة وغادرت القاعة لا تلوي على شيء! .. وكانت تلك أحرج لحظة في حياة صاحبنا، فقد أدرك فيها مدى الحماقة الجنونية التي ورط نفسه فيها! .. لقد أهان، وأذل، وخدش إحساس المخلوق

الوحيد الذي وثق فيه ثقة عمياء، وشكره من صميم قلبه .. وإلا فكيف يجرؤ– وهو الجشع الرث الهيئة– أن يطلب يد مثل هذه المخلوقة المهذبة التي نشأت وعاشت في أكرم بيئة؟ .. إنها إذن لعلى حق في أن تفر هكذا اشمئزازا! .. ومن عجب أنه أحس إزاء ذلك بالارتياح! .. وقال لنفسه: "لقد عرفت حقيقتي أخيرا، وعاملتني بالاحتقار الذي أنا جدير به، وهذا خير من أن تشكرني على خدعتي الدنيئة. لقد تلقيت عقابي العادل .. فإنه من العدل أن تفكر في منذ الآن مثل الاحتقار الذي أكنه لنفسي!"

"ولكن لم تمض لحظات حتى ظهرت على عتبة الباب من جديد، وعيناها مغر ورقتان بالدموع .. وأقبلت نحوه وهي فريسة للانفعال الشديد، بحيث أنها تشبثت بظهر الكرسي لحظة قبل أن تستطيع الجلوس، ثم تنهدت في هدوء وقالت دون أن ترفع عينيها : "اغفر لي .. اغفر لي خشونتي .. لكني في الواقع فوجئت بكلامك .. كيف أستطيع أن؟ .. إنك لا تعرفني .. لا تعرفني بتاتا!" .. وكان هو من الارتباك بحيث لم يجد جوابا حاضرا في ذهنه .. وأن سره أن قرارها المفاجئ لم يكن عن غضب واستنكار، بل عن خوف ودهشة! .. ومضت دقائق لم يجد أحدهما خلالها الشجاعة على أن يكلم صاحبه، أو ينظر إليه .. لكنها لم تغادر "فيينا" في ذلك الصباح، فقد بقيا معا من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل .. وبعد ثلاثة أيام كرر على مسمعها العرض .. ولم ينقض شهران حتى كانا زوجين!

وسكت الدكتور كوندور قليلا، ثم استطرد: "فلنتناول كأسا أخيرة، لقد أوشكت القصة أن تنتهي، وأنت ترى مما سلف ظلم الشائعات التي تنسب إلى صديقنا أنه أغرى الوارثة بالزواج منه كي يظفر بالضيعة والقصر، فالواقع أنه ظفر بهما قبل أن تخطر بباله فكرة الزواج، ولم يكن قرانه بها صادرا عن أية مصلحة ذاتية .. ولعل هذا ما جعله قرانا اسمه سعيدا غاية السعادة، برغم أن الزوجين كانا ضدين في الطباع– بل ربما بسبب ذلك، كما يقول علماء النفس!

"وكان رد الفعل المباشر للاتفاق على الزواج أن خشى كانتيز أن تقف خطيبته على ماضيه القذر فصفى جميع أعماله التي يشوبها أي زيف، وحاول تنقية صفحته بكل ما وسعه من جهد .. ثم ابتاع بالمال لقب "فون كيسفالفا" الأرستقراطي العريق، وخلع عنه اسم المرابي اليهودي الممقوت "كانتيز" وكأنما خلع عليه الاسم الجديد نبلا حقيقيا، فقد عاش بعد الزواج يعامل زوجته بكل احترام وتوقير وتلطف، محاولا أن يمحو من الوجود شخصيته القديمة .. وكان لهذه المعاملة الكريمة– التي لم تألفها "آنيت" طيلة سنوات عبوديتها لسيدتها السابقة الثرية– أجمل الأثر في نفسها وصحتها، فأينع شبابها من جديد، وتفتح حسنها الذي كان ذابلا .. وإن لبثت عاما كاملا، بل ربما اثنين، عاجزة عن أن تصدق الواقع الملموس وتنسى الماضي الطويل البغيض .. عاجزة عن أن تقنع نفسها بأن المرأة المضطهدة المنبوذة التي كانتا قد صارت موضع الحب والاحترام والإعزاز، كبقية السيدات! .. وهكذا لم يتذوق الزوجان السعادة الحق الخالصة إلا بعد أن ولدت لهما طفلتهما "أديث" ..

"وعاشا خمسة عشر عاما أو نحوها، معيشة قوامها البساطة والعزلة عن الناس. وخلال تلك الحقبة عكف "كيكسفالفا" على إدارة الضيعة، والمطحن، ومصنعي السكر والكحول- الملحقة بها- بهمة حازمة ونشاط لا يفتر.. إلى أن أصيب بالكارثة الأولى القاصمة للظهر: مرضت زوجته بالسرطان، وماتت على منضدة الجراحة في إحدى مصحات فيينا، وهناك عرفته أنا وعرفتها لأول مرة! .. وأن أستطيع أن أصف أو أصور لك اليأس الذي اعتراه حين عرف أن لا أمل في شفائها!.. كما لن أنسى نظرته المجنونة وهو ينعتنا صارخا، على أثر موتها، بأننا قتلة سفاحون.

«وكانت تلك هي نقطة التحول في حياته. فمنذ ذلك اليوم تغيرت نظرته إلى الأمور، وكفر بالمال – الإله الوحيد الذي عبده منذ طفولته! ولم يعد يعنيه من دنياه غير شيء واحد هو ابنته!.. فجلب لها المربيات والخدم، وأعاد تجددي قصره وتزويده بجميع وسائل الترف. وصار يأخذ «أديث» – وهي في التاسعة أو العاشرة من عمرها – إلى "نيس" و"باريس" و"فيينا"، ويغدق عليها المال بغير حساب، ويغلو في ذلك غلوه من قبل في جمع المال وادخاره.. لهذا لم يكن غريبا أن يبدو لك اليوم أرستقراطيا كريما، فمنذ سنوات كف عن أن يلقي بالا إلى الكسب أو الخسارة.. ومنذ اكتشف أن ملايينه كلها لم تستطع أن تشفي له زوجته، تعلم أن يحتقر المال!

«ومهما أطنب، فلن أستطيع أن أصف لك بالتفصيل كيف عبد الرجل ابنته ودللها.. وكانت في الواقع تستحق ذلك، فقد شبت فتاة رائعة الحسن، حميدة الخلق، أخذت عن أمها عذوبتها وعن أبيها ذكاءه.. ومن ثم أترك لك أن تقدر مبلغ الصدمة التي أصابت «كيكسفالفا» حين دهمته الكارثة الثانية، فسقطت اديث من فوق ظهر جواده وأصيبت بالشلل... ولكن يكفي أن أذكر لك أنه لم يدع طبيبا من أطباء العالم المشهورين في هذا الباب إلا استقدمه وأغدق عليه المال بغير حساب، لعله يفلح في شفائها!.. وقد روى لي زميل منذ أيام أن المسكين يتردد كل أسبوع على مكتبة الجامعة حيث ينفق الساعات في الاطلاع على كتب الطب والتنقيب فيها، عسى أن يجد في أحدها شيئا ذا فائدة تكون قد نسيناه أو أهملناه!.. بل إنه خصص منحا وهبات سخية لرجال الدين وصناديق النذور، في حالة شفاء الفتاة!

«لا أخبرك بكل هذه التفصيلات السخيفة حبا في الثرثرة، وإنما رغبة في أن تفهم إلى أي حد يجد الشيخ التعس بعض العزاء عن كارثته كلما عثر على شخص يستمع إليه ويفهم أحزانه وأشجانه، أو على الأقل يحاول أن يفهمها.. والواقع أنك يا عزيزي الملازم تفعل خيرا حين تدخل شيئا من المرح والبهجة والشباب إلى ذلك البيت الحزين.. وقد رويت لك الآن ما رويت من أسرار الرجل الخاصة، خشية أن تسمع من أفواه الناس شائعات خاطئة ومحزنة تؤثر في صلتك بالأسرة المنكوبة!.. ووثوقا مني في كتمانك الأمر، واعتباره سرا بيننا!"

لم أجد ما أقول تعليقا على هذه القصة المؤثرة أكثر من كلمة واحدة نطقتها مغموما، فقلت له: "نعم. بلا شك!"ولم أكن قد تفوهت قبلها بحرف منذ بدأ الدكتور كوندور بسرد قصته، التي لم يقتصر أثرها في نفسي على إثارة دهشتي البالغة، وقلب فكرتي عن كيكسفالفا رأسا على عقب، أو كما يقلب القفاز ظهرا لبطن.. بل تعدى ذلك إلى إظهاري على مبلغ غفلتي وسذاجتي، أنا الذي ترددت على قصره عشرات المرات دون أن اسأل عن مصدر ثروته، و دون أن ادرك أن عينيه الذكيتين البراقتين ليستا عيني نبيل هنغاري، بل إن نظرتهما الحادة المتعبة – آن واحد– تمثل الكفاح المفجع الطويل، كفاح الجشع والأطماع، الذي هو طابع الجنس اليهودي! .. أما الآن، ففي اقل من لحظة ومضت في ذاكرتي مئات الملاحظات والوقائع الصغيرة التي تتفق مع هذه الرواية .. والتي فاتني أن افهم مدلولها في حينها!

و كأنما ادرك الدكتور كوندور ما يدور في خاطري، فمال علي وقال وهو يربت على يدي بيده الصغيرة الناعمة: "أنك ما كان يمكن أن تعرف الحقيقة يا سيدي الملازم، فلقد نشأت في بيئة مختلفة تماما .. عدا أنك الآن في السن التي لا يكون المرء قد تعلم فيها بعد أن يرتاب في كل شيء مخالف للمألوف– و ليس عيبا أن تخدعك الحياه في هذه السن بين حين و آخر!– بل إنها لنعمة كبرى ألا تكون قد صارت لك، بعد، تلك العين الفاحصة المتشككة، وأن تستطيع أن تنظر إلى الأشياء والناس لأول وهلة نظرة بريئة واثقة .. ولولا ذلك ما أمكنك أن تقدم للشيخ البائس وابنته الكسيحة ما قدمت من معونة رائعة .. كلا، لا داعي

لأن تندم أو تخجل، فقد تصرفت– بوحي الغريزة– أحسن تصرف وأسلمه!"

وكان موعد القطار الراحل إلى فيينا قد اقترب، فنهض الطبيب .. ونهضت أنا معه و أنا أحس إحساسا غامضا أن هناك أمرا كنت أود لو أحدثه في شأنه وهو ماض في سرد قصته،لولا أني لم أشأ أن أقاطعه .. ثم نسيته تماما! .. وحين خرجنا إلى الطريق رفع كوندور بصره إلى السماء و قال: "كيف فاتني أن استنتج ذلك حين رأيت القمر متألقا اكثر من المألوف؟ .. سوف تهب بعد قليل عاصفة رعدية شديدة .. فلنسرع بالمسير و إلا فاجأتك قبل عودتك. أما أنا ففي وسعي أن اصل إلى المحطة قبل هبوبها!" وكان على حق،فإن الهواء برغم سكونه كان قاتما معفرا، والسحب الآتية من الشرق تتسابق فوق المساكن الهاجعة، وتحجب القمر الشاحب المحتضر بين الحين والحين .. وفي الأفق البعيد تومض سهام من البرق الخاطف، يعقبها في كل مرة دوي خافت مكتوم، كزمجرة الحيوان الغاضب! .. و عاد كوندور يستحثني قائلا: "فلنسرع، ففي العجلة النجاة، لقد تصلبت ساقاي من طول الجلوس! " .. وذكرتني عبارته هذه عن تصلب ساقيه بما كنت أريد أن اسأله بشأنه، وكأن ضوء مفاجئا قد غمر وعيي فبدد منه ظلام النسيان! .. أنها المهمة التي كلفني بها كيكسفالفا، والتي من أجلها حرصت على الخروج في رفقة الطبيب، أنه السؤال الخالد: "هل ينتظر للفتاه الكسيحة شفاء في يوم من الأيام؟ ".. وهكذا ابتدرت مرافقي ونحن نذرع الشارع المقفر، متسائلا: "لا تؤاخذني يا سيدي الطبيب إذا عدت إلى الموضوع الذي كنا

نتحدث فيه، كي ألقي عليك سؤالا يلح على خاطري منذ زمن، و في وسعك أنت دون غيرك أن تجيبني عنه .. أريد أن أسالك: هل هذا الشلل الذي أصاب أديث مرض مؤقت، أم داء عضال لا شفاء منه؟"

ورفع الدكتور كوندور رأسه في شيء من الحدة، ولمعت نظارته في وجهي– حتى أني أجفلت من قوة نظرته التي خلتها تتغلغل في إلى ما تحت الجلد– ثم قال وهو يخفض رأسه ويستأنف خطاه السريعة: "كان يجدر بي أن أتوقع منك هذا السؤال، فهو دائما يأتي في النهاية .. مرض يشفى أو لا يشفى، أبيض أو أسود .. كأنما الأمر بهذه البساطة! .. إن أي طبيب يحترم نفسه ينبغي ألا ينطق حتى بكلمتي "سليم" أو "مريض"، لأنه لا يوجد حد فاصل تنتهي عنده الصحة ويبدأ المرض .. ولن تستطيع أن تسمع مني يوما كلمة "غير قابل للشفاء"! .. ولقد اخطأ" نيتشه" كل الخطأ حين قال : "أن الطبيب يجب ألا يحاول شفاء الذي لا يشفى!"، فإن العكس تماما هو الصواب، لأني أرى أن أهم واجب على الطبيب أن يسعى إلى شفاء المرض الذي جرى الناس على اعتقاد بأنه لا يشفى .. والطبيب الذي يسلم مقدما بعجزة عن تحطيم مثل ذلك الاعتقاد السائد هو طبيب يتنصل من واجبات مهنته، ويرفع رايه الاستسلام قبل أن تبدأ المعركة! .. وطبيعي انه من الأسهل بالنسبة لكل طبيب أن يختص بمعالجة الأمراض القابلة للشفاء، والتي لا يقتضينه الأمر فيه اكثر من أن يصف دواء أو علاجا قرأه في كتاب أو سمعه في درس. أما أنا فأرى أن هذا الطبيب مثل الكاتب الذي لا يكتب غير الكلام المعاد، بدلا من أن يخضع للكلمة المكتوبة أفكارا ساد الاعتقاد بأنها غير قابلة لان تكتب!

.. أو مثل الفيلسوف الذي يردد أفكارا سبق ترديدها مائة مرة، بدلا من أن يستكشف مناطق الأفكار غير المعروفة، أو غير القابلة لأن تعرف! .. وبالنسبة لعلم يتطور ويتقدم كل يوم– كالطب– لا يليق أن يقال عن أي مرض: انه غير قابل للشفاء. وإنما الصواب أن يقال: انه مرض لم يعرف له شفاء حتى الآن، في نطاق معلوماتنا الحالية المحدودة! .. ففي كل يوم تكتشف وسائل لعلاج أمراض كانت حتى الأمس القريب– بل حتى اليوم السابق– مستعصية على العلاج. ولا شك أن مئات من الحالات التي نعجز اليوم عن شفائها قد يعرف لها غدا، أو بعد غد، دواء! .. لذلك لا توجد في نظري أمراض لا تشفى، وليس من عادتي أن ايأس قط من شفاء حالة ما أو مريض من المرضى، ولا أن انطق بهذه الكلمة الخاطئة "غير قابل للشفاء" .. مهما تكن الظروف!

"و لتقريب الأمر إلى ذهنك، اسرد عليك مثلا واقعيا حدث لي أنا نفسي، وما زالت ذكراه

في مثل سنك الآن، مرض أبي ذات يوم– وكان طيلة حياته صحيحا قويا موفور النشاط– وكنت ابه إلى درجة تقرب من العبادة. واتفق الأطباء على تشخيص مرضه بأنه "البول السكري"، وهو من اخبث الأمراض التي يمكن ان تصيب إنسانا، ففيه يتوقف الجسم– لسبب غير مفهوم– عن امتصاص الغذاء، ولا سيما الدهن والسكر، فيذبل الأنسان و يموت موتا بطيئا، من الجوع! .. وفي تلك الأيام لم يكن الطب يعرف علاجا لهذا المرض، فكان المريض يتعرض لعذاب المنع من اكثر

المأكولات، ولمشقة وزن كل قدر من الألوان الباقية المباحة، في الميزان، بالجرام! .. ومع ذلك لم يكن يجني من ذلك كله غير تأجيل النهاية المحتومة عامين أو ثلاثة على الأكثر. ولك أن تتصور مبلغ جزعي وقتئذ على أبي، ولجوئي إلى كل طبيب وكل كتاب طب في متناولي، بحثا عن علاج لحالته .. ولكن دون جدوى، فقد خرجت من أبحاثي كلها بأن مرضه "غير قابل للشفاء!" .. ومنذ تلك اللحظة أبغضت هذه الكلمة اللعينة، التي كان معناها أن اقف مكتوف اليدين وانا اشهد اعز أنسان علي في هذه الدنيا يموت ميتة ادعي للرثاء من ميتة الحيوان الفاقد الإدراك .. وقد مات أبي فعلا قبل تخرجي في كلية الطب بثلاثة اشهر!

"والآن اصغ إلي: أول امس اعلن احد علمائنا في اجتماع الجمعية الطبية نجاح التجارب التي أجريت في معامل أمريكا، وقطر وقطرين آخرين، بغية اكتشاف خلاصه لإحدى الغدد تشفي من البول السكري .. و قد اكد العالم المذكور في ختام كلمته انه لن تمر عشرة أعوام حتى يصبح هذا المرض "قابلا للشفاء"! .. و مثل آخر أسوقه لك: ففي أيام دراستنا الطب وزعت علينا نشرة مطبوعة تحذرنا من مرض الزهري، على أساس انه غير "غير قابل للشفاء" .. أما الآن فقد صار هو بدوره من الأمراض التي تشفى .. وإذن فإن "نيتشه" و"شومان" و"شوبرت" وغيرهم من ضحاياه التعساء لم يموتوا بمرض لا يشفي، بل بمرض لم يكن يشفى في العصر الذي عاشوا فيه! .. لذلك تجدي في كل مرة تعرض لي فيها حالة يئس منها الأطباء الآخرون وهم يهزون أكتافهم، يشتعل قلبي غضبا لجهلي بعلاج قد يكتشف غدا أو بعد غد! .. وفي الوقت نفسه يفيض

قلبي أملا في أن استطيع أنا، أو غيري، كشف ذلك العلاج في الوقت المناسب لإنقاذ مريضي! .. ولم لا؟ .. إن كل شيء ممكن، حتى المستحيل .. وحيثما يقف الطب اليوم أمام باب مغلق، يفتح له أحيانا باب آخر على غير انتظار! وحينما تفشل وسائلنا الحالية، ينبغي أن تبذل المحاولات لاستكشاف وسائل جديدة .. بل حيثما يفشل العلم، توجد دائما فرصة حدوث معجزة! .. نعم، فالمعجزات تحدث حتى اليوم في عالم الطب، متحدية كل منطق وتجربة، واحيانا يستطيع المرء أن يصنعها بنفسه .. وإلا، فهل تعتقد اني كنت لأعذب هذه الفتاه– و اعذب نفسي– لو لم يخامرني الأمل في إمكان أن اصنع لها شيئا، و أشفيها في النهاية؟ .. اعترف بأن حالتها عسيرة عنيدة، وإنني استغرقت حتى الآن سنوات عديدة دون أن اصل بعد إلى النتيجة التي ارجوها، لكنى لن أيأس أو أتخلى عن النضال!"

أصغيت إليه بانتباه، وفهمت كل ما قال، لكني– وكأنما أصبت بعدى الإلحاح من كيكسفالفا– وجدتني أطالب جوابا اكثر دقة و إيضاحا، فسألته: "إذن، أنت ترى احتمال حدوث تحسين .. اعني انك قد حققت شيئا من التحسين، أليس كذلك؟" .. وهنا سكت الدكتور كوندور، وكأنما ضايقه سؤالي، ثم توقف عن المسير، والتفت إلي قائلا: "لعل الأفضل أن أصارحك بحقيقة الموقف .. كلا! .. إني لم اصل إلى تحقيق شيء البتة مما رجوت، و قد جربت معها أنواعا شتى من العلاج، لم تأت بنتيجة حتى الآن. وإذا كانت الفتاه قد شعرت أحيانا بتحسن في حالتها فما ذلك إلا نتيجة للإيحاء الذاتي الذي هو خير معين لنا نحن

الأطباء على كسب الوقت، وتمكين المريض من الصبر على مرضه حتى نهتدي إلى العلاج الشافي له .. وصدقني إنها ليست مهمة سهلة أن ابتكر كل حين وسيلة جديدة لتخدير أعصاب المريضة وإيهامها بأنها في تحسن مطرد، طيلة خمس سنوات كاملة! .. كلا! .. بل أني ارفض الاستسلام للفشل حتى لو استمر سنة أخرى، بل خمس سنوات ..! .. وقد حدث اني قرأت امس فقط مقالا في صحيفة طبيه باريسية عن حالة شلل مماثلة أصيب بها غلام في الرابعة عشرة، وبقي طريح الفراش، عاجزا تماما عن الحركة، عامين كاملين .. حتى تمكن البروفيسور "فيينو" من معالجته خلال أربعة اشهر علاجا أدى إلى استطاعته صعود السلالم بكل سهولة ويسر! ..

وقد كتبت فورا إلى البروفيسور اسأله مزيدا من الإيضاحات عن الطريقة التي وصل بها إلى هذه النتيجة، كي أرى ما يمكن تطبيقه منها على أديث! .. ومن هذا ترى اني أبعد ما أكون عن اليأس، بل إني ما زلت أتعلق بكل قشة يحملها التيار. وقد يكون لنا بعض الأمل في هذا العلاج الجديد .. وعلى كل حال احسبني قد ثرثرت اكثر مما ينبغي"

وكنا قد اقتربنا من المحطة، فرأيت اني ألقي على محدثي سؤالا واحد أخيرا، فقلت له: "إذن .. أنت تعتقد أن .." .. لكنه قطع كلامي قائلا: "لست اعتقد شيئا .. وليس في الأمر ما يحتمل أي استنتاج! ماذا نريد مني اكثر مما قلت، اني لست على اتصال تليفوني بالله سبحانه وتعالى .. فاعتبر اني لم اقل لك شيئا البتة، ولا أبديت أي رأي في

الموضوع .. ولست أعدك بشيء على الأطلاق .. والآن كفى نقاشا في هذا الأمر، وشكرا لك على مرافقتك إياي، ولتعد مسرعا قبل أن يغرقك سيل المطر الذي ينذر بالهطول" .. ثم تركني ومضى مهرولا إلى داخل المحطة، دون أن يصافحني!

الفصل السابع

صدقت تنبؤات الدكتور كوندور عن الحالة الجوية، فبدت نذر العاصفة، زتجمعت السحب السوداء فوق قمم الأشجار، وكان البرق يومض بين لحظة وأخرى، فأغلقت أبواب المتاجر والدور، وجميع النوافذ، وخلت الطرقات من المارة، فحثثت السير كي أصل إلى غرفتي قبل أن ينهمر المطر.

وما كدت اصل إلى باب المعسكر، حتى لمحت شبحا يبرز في ظل إحدى الأشجار، فحسبته شبح امرأة من النساء اللواتي اعتدن انتظار الجنود في الظلام، ثم فطنت إلى أن خطوات ذلك الشبح المجهول تتبعني مسرعة، فالتفت خلفي حانقا، وفي تلك اللحظة ومض البرق فجأة، فتبينت على ضوئه وجه الشبح، وكدت لفرط دهشتي ألا اصدق عيني، فهتفت به: "عجبا! .. هر فون كيكسفالفا هنا؟ .. ماذا أتى بك يا سيدي؟ .. ألم أتركك على أهبة النوم منذ ثلاث ساعات؟! .. فأجابني: "هذا صحيح، لكني لم استطع أن انأم قبل أن .." .. فأدركت ما يريد، وقلت له:" ينبغي أن تعود إلى البيت على عجل .. ألا ترى بوادر العاصفة المخيفة يا سيدي؟"

فقال: "إن معي سيارتي، وهي تنتظرني وراء المعسكر"

فقلت: "حسنا!.. إذن اسرع.. اسرع قبل أن يعوقك سيل الأمطار"

وإذ رأيت تردده، جذبته من ذراعه في غير توقير لأقوده إلى سيارته .. لكنه افلت ذراعه مني وهو يقول: "انتظر لحظة .. لحظة فقط. ماذا قال لك؟ ".. وتحققت أن لهفته على معرفه النتيجة هي التي دفعته إلى الترصد لي عند باب المعسكر منذ ثلاث ساعات، برغم سوء حالة الجو، كي يسألني عن رأي الطبيب .. فقلت له مطمئنا: "كل شيء على ما يرام .. كل شيء سوف يعود سيرته الأولى .. وغدا اقص عليك ما قاله الطبيب .. أما الآن فيجب أن تسارع إلى سيارتك كي تنجو من العاصفة! ".. فغمغم قائلا: "حسنا! " وتركني اقوده و استحثه مسافة عشر خطوات، أو عشرين على الكثر، ثم جذب ذراعه بقوة من يدي و عاد يقول: "لحظة واحدة ! .. هناك على ذلك المقعد! لست استطيع السير!"

.. وكان يترنح حقا كالثمل، بحيث لم أر ابدأ من تركه يستريح، فتهالك على المقعد الخشبي و هو يلهث! لقد اضنى الانفعال وطول الوقوف قلبه الضعيف، فاستند إلى ظهر المقعد في حالة انهيار .. وادركت انه سوف يتعذر علي تقويته على النهوض من مكانه، ما لم أبادر بتقوية روحه المعنوية وإدخال الطمأنينة على قلبه المنزعج .. ولكن، بماذا أطمئنه والحقيقة التي صارحني بها الطبيب موجعة لا تبعث على الأمل؟!.. وفي غمرة حيرتي، لم اجد غير ان اجمع شتات العبارات المشجعة التي تضمنها حديث الطبيب، واعدتها على سمعه موجزة،

وختمتها بذلك العلاج الجديد الذي شفى صبيا كسيحا في مثل حالة "أديث" خلال اشهر معدودات.

وكان لكلامي من الوقع السحري على الأب المنكوب ما أغراني بالمغالاة في تطمينه، فأخذت أعزز توكيدي واسرف في الوعود، وهو يردد في لهفة قوله: "اتعتقد ذلك؟.. هل قال الطبيب هذا ؟! ".. فقلت في لهجة المقنع: "نعم، إنها ستشفى قريبا .. تمام الشفاء! ".. فتنفس الصعداء وقال: "شكرا لله! .. شكرا لله!"

.. وخلال ذلك كانت العاصفة تزداد عتوا وشدة، حتى بدأت الأشجار ترزح تحت وطأتها وهي تئن وتتقصف، فقلت له وانا ادفعه إلى النهوض: "هيا .. يجب أن تعود إلى بيتك حالا". وفي هذه المرة أطاعني بلا مقاومة، فسار معي إلى السيارة في نشاط ملحوظ، وكأنما أمدته كلماتي بالقوة .. وأحسست بالارتياح وهو يبلغ سيارته في امأن واطمئنان، فقلت احدث نفسي: "أخيرا سوف سينعم المسكين بنعاس شهي عميق، لا يشوبه كابوس .. ولا ارق .. ولا انزعاج! ".. وفيما أنا انشر الغطاء على ركبتي الشيخ المحطم، في السيارة، خشية أن يصيبه البرد، اذا هو يفاجئني بإمساك كلتا يدي، و قبل أن أتنبه أو استطيع منعه، كان قد انحنى بفمه على كل يد يقبلها، قبله مفعمة بالشكر والامتنان .. ثم هتف والسيارة تنطلق به: "إلى غد! .. إلى غد!"

.. وبقيت هنيهة جامدا في مكاني، لكن بوادر المطر كانت قد بدأت تتساقط وتشتد .. فانطلقت اقطع الأمتار الباقية التي تفصلني عن باب المعسكر عدوا، ثم هرعت إلى غرفتي وأنا انفض الماء عن ثيابي!

وفي عصر اليوم التالي توجهت إلى القصر كعادتي، فاستقبلني "جوزيف" كبير الخدم قائلا في حماسة: "هل أقود سيدي الملازم إلى البرج توا؟ إن الآنستين تنتظران هناك! ".. و لحظت في لهجته لهفة غير عادية، فمضيت إلى السلم وانا اسأل نفسي عما هنالك؟ وحين اقتربت من السطح سمعت انغام موسيقى عذبة، يصاحبها غناء من أصوات نسائية جميلة .. فلما أرهفت أذني تبينت أن الموسيقى صادرة من "جراموفون" عادي، أما الغناء فكان بعضه بصوت "ايلونا" الرائع الشجي، الناعم كذراعيها .. وبعضه صوت فتاه أخرى حسبتها صديقه دعتها "أديث" لتناول الشاي معنا .. وشد ما كانت دهشتي حين وصلت الى الشرفة فلم اجد فيها غير الفتاتين، واذا الصوت الفضي العذب هو صوت أديث نفسها! .. وتسمرت بالباب ذاهلا، وكأني فاجأت الفتاتين عاريتين!

من كان يصدق؟! .. أديث العليلة، اليائسة من حياتها، تغني بذلك الصوت القوي الجميل الذي لا يصدر إلا عن الأصحاء الأقوياء؟! .. ترى ما الذي اسكرها بخمرة هذا الانشراح العجيب، والبهجة العاتية!؟ .. وزاد في دهشتي ان واحده منهما لم تبد أي ارتباك حين وقع بصرهما علي، بل هتفت أديث ببساطة: "تعال"، ثم أشارت إلى ايلونا أن تغلق

الجراموفون، وعادت تخاطبني في شوق ظاهر: "أخيرا؟ أخيرا؟ .. لكأني انتظرك منذ أجيال! .. والآن اسرع و قص علي كل شيء، بالحرف الوحد، فلقد كان أبي منفعلا من فرط فرحته إلى درجة انه تخبط سرد القصة .. تصور انه جاء إلى غرفتي حوالي الساعة الثانية أو الثالثة صباحا– وكنت يقظى بسبب العاصفة– فعجبت إذ وجدته يضحك و يقهقه، و يكاد يرقص وسط الحجرة كتلميذ المدرسة حين يستخفه السرور بالنجاح! وحين روى لي الحديث حسبته يحلم، أو أنا التي تحلم! .. ثم جاءت "ايلونا" ولبثنا نثرثر ونضحك حتى الصباح .. ولكن دعنا من ذلك وتعال قص علينا القصة بحذافيرها: قل لنا ماذا يكون هذا العلاج الجديد؟! ..

.. وكما تداهم احدنا موجة عاتيه من أمواج البحر، فيحاول عبثا تثبيت قدمه على الأرض، حاولت أنا أن أكافح أمواج الحيرة الشديدة التي تولتني على الأثر! .. أدركت توا إنني أنا وحدي كنت المصدر الموحى للفتاه بهذا الأيمان بالشفاء!.. وفيما أنا افكر في جواب، مضت الفتاه تستحثني: "ما بالك تتردد؟ .. ألا تقدر أهمية كل حرف من هذا الحديث بالنسبة لي؟ .. والآن قل لي: ماذا قال لك كوندور؟ ".. فأجبتها مكررا، كي اكسب الوقت: "ماذا قال لي؟ .. إنه .. كان .. متفائلا جدا .. وهو يأمل أن يحصل في الوقت المناسب على نتائج مرضية .. وإذا كنت لم أخطئ الفهم فهو يقترح تجربة علاج جديد يقوم الآن بالتحري عن تفصيلاته .. وعلى أي حال يمكنك أن تستفهمي منه عن حقيقة الأمر .."

وبدا أنها لم تلحظ محاولتي التنصل من الموضوع، أو لعل لهفتها أعمت بصيرتها، فقد قالت معلقة: "لقد قلت منذ زمن أن العلاج الحالي لا جدوى منه، إن المريض يعرف حالته اكثر من سواه .. أتذكر ما قلته لك يوما عن عقم كل هذه الوسائل، من تدليك وحمامات كهربائية وجهاز جراحي؟ إنها بطيئة جدا. فكيف استطيع الانتظار هكذا دهرا؟ لقد نزعت الجهاز هذا الصباح، بغير أن استأذنه! ولن تصدق مبلغ الارتياح الذي شعرت به. لقد امكنني السير بسهولة اكثر .. ولكن قل لي بسرعة: ما هو علاج هذا البروفيسور الفرنسي؟ وهل سوف أسافر إلى هناك، أم يمكن أجراء العلاج هنا؟ إني امقت تلك المصحات المزدحمة بالمرضى والعجزة .. ثم كم من الزمن يستغرق الأمر؟ هل صحيح ما قاله أبي عن ذلك الغلام الذي شفاه البروفيسور في أربعة اشهر فقط، بحيث صار بعدها يصعد السلم ويهبطه ويتحرك بملء حريته؟ .. تكلم، ما بالك تجلس هكذا كالدمية المحنطة؟ .. اسرد لي الحديث بأكمله. متى يبدأ الدكتور كوندور هذا العلاج، وكم من الزمن يستغرق؟"

.. وفي دوامة حيرتي المرة، إزاء هذه الورطة الجديدة، وسوء الفهم، رأيت ألا ادعها تستسلم لهذا اليقين المضلل، فقلت في أسلوب حذر: "ما من طبيب يستطيع أن يجزم سلفا بمدة العلاج، ولست اعتقد أن في الإمكان تحديد شيء من هذا الآن .. ثم إن الدكتور كوندور لم يتحدث في الأمر إلا بصفة عامة. قال إن المفروض أن ذلك العلاج يؤدي إلى نتائج باهرة، لكن لكل حالة فردية ظروفها .. وعلى أية حال يجب أن ننتظر حتى يحضر هو .." لكن الفتاة من فورة حماستها تجاهلت

"ضعف" لهجتي، فاستطردت: "يا فتاي العزيز، إنك لا تعرف كوندور .. انه لا يجزم عادة بشيء من فرط حذره الشديد وتحوطه في الكلام .. لكنه اذا وعد "نصف وعد" فكن على ثقة من انه سوف يفي به! .. وأنت لا تعلم مبلغ حاجتي إلى الارتكان على قرار نهائي في هذا الشأن، فلقد ضقت ذرعا بالصبر الذي أوصوني به، إلى اجل غير مسمى! ولو قيل لي اليوم أن علي أن اصبر ستة اشهر أخرى، أو حتى سنة كاملة، فإني استطيع أن أوطن نفسي على ذلك .. ولكن شكرا لله من اجل وصولنا إلى هذه المرحلة .. انك لا تستطيع تصور مدى الارتياح الذي أحسه منذ امس .. لكأني لم ابدأ حياتي إلا الآن! .. وقد خرجنا هذا الصباح إلى المدينة بالسيارة– لا تدهش– فما دمت قد قطعت اكثر المرحلة ولم يبق أمامي غير القليل فلن اخجل بعد اليوم من أن يراني الناس أو يرثوا لحالي، بل سأخرج للنزهة كل صباح .. وقد دبرنا بغد– الأحد– نزهة ممتازة، وطبعا ستكون لديك عطلة فتذهب معنا الى المزرعة .. إنني لم أرها منذ اربع سنوات أو خمس، وسوف تدهشك المفاجأة التي أعددناها لك!"

ثم التفت إلى ايلونا وسألتها ضاحكة: "هل أبوح له بالسر الآن؟" .. فضحكت هذه وأجابت: "نعم، فلنكف عن أن تكون بيننا أسرار منذ اليوم! ".. فقالت أديث: "حسنا! اصغ إلي إذن أيها الصديق العزيز .. كان أبي يريد أن نذهب بالسيارة، لكنني تذكر ما قاله لي جوزيف يوما من أن الأميرة العجوز الحمقاء التي كانت تملك القصر قبلنا كانت تخرج دائما في عربتها التي تجرها الجياد، عربة السفر الجميلة ذات اللون

الزاهي .. وكانت تحرص على أن تسرج فيها جيادها الأربعة حتى لو خرجت إلى مكان قريب، لا لشيء إلا ليعلم كل من يراها أنها أميرة، فإن أحدا غيرها لم يكن يجرؤ على الخروج "بمظاهرة" كهذه! .. وكم سيكون طريفا أن نخرج فيها نحن مرة، على تلك الصورة، سيما وان الذي سيقودها هو حوذي الأميرة القديم بعينه! .. إننا مازلنا نحتفظ بالشيخ المسن، وإن بقي بلا عمل منذ ابتعنا السيارة .. وقد كاد يطير فرحا حين أوصيناه امس بإعداد العربة للخروج! .. وهكذا ترى أننا دبرنا كل شيء، وسوف نستيقظ مبكرين، وأنت سوف تقضي الليلة هنا بطبيعة الحال – لا تحاول أن ترفض، فسنعطيك حجرة مناسبة و نحضر لك حاجياتك اللازمة لك من المعسكر .. كن ظريفا ولا تحرمنا هذه المتعة! .."

.. وهكذا اندفعت أديث في الثرثرة بلا حساب، وانا اصغي إليها متعجبا من التغير الذي طرأ على نفسيتها، وصوتها، وحديثها، ووجهها!.. كانت الفتاة التي أمامي مخلوقة أخرى– كالثملة!– ذات عينين وضاءتين ضاحكتين، وفم جذاب مرح .. وكأنما سرت عدوى مرحها إلي فأحسست بمثل ثملها ونشوتها المحمومة: ولم لا ينجح في حالتها العلاج الذي نجح في حالة غيرها، فتشفى هذه الصبية الغريرة، الظريفة المشرقة، التي فاض قلبها حبورا لمجرد تفكيرها في الشفاء؟ .. وهل من اللياقة أن أبدد نشوتها التي غمرت كيانها كله، لأعذبها بالشكوك من جديد؟ .. لقد تعذبت المسكينة بما فيه الكفاية!.. وكما يتحمس الخطيب لسماع العبارات الجوفاء التي نطق بها هو نفسه، وجدتني أتأثر بشعور الثقة الذي ولدته في نفوس الجميع مغالاتي في تطمينهم! .. فلما

انضم كيكسفالفا إلينا بعد حين، ألفانا في ابهج حال، نضحك ونثرثر وندبر أمور المستقبل كما لو كانت أديث قد شفيت فعلا .. حتى لقد تحدثنا في اختيار المدرب الذي سوف يعلم الفتاة ركوب الخيل من جديد بعد شفائها!

.. لكني لم اكد أخلو إلى نفسي في غرفتي، بعد انتهاء السهرة، حتى سمعت طرقة خفيفة على جدار قلبي، طرقة تحذير كأنها تقول: "أليست آمال الفتاة كلها من وحي المغالاة؟ أو لا يجدر بي أن اصد تيار هذا التفاؤل الخطر؟ .. لكني أبيت أن اعترف لوعيي بهذه الحقائق، وقلت لنفسي: "لم اشغل نفسي بالتفكير في هذا الأمر. وماذا لو أسرفت في إحياء موات الآمال؟ إن أكاذيبي التي ولدتها الشفقة قد أسعدت الفتاة إلى حد كبير، وما اسعد مخلوق شقي بالأمر الذي يعد جريمة، بأية حال!" واستيقظت في صباح اليوم التالي على صوت ضحكات مرحة تنبعث من الخارج، فتطلعت من النافذة لأجد الجمع كله قد التف حول العربة العتيقة الفاخرة، التي صنعها لجد الأميرة اوروزفار– منذ اكثر من مائة سنة– صانع العربات البلاط الإمبراطوري، فجاءت تحفة في الصناعة والزركشة، محاطة باللوحات الزيتية على جانبيها، والستائر الحريرية على نوافذها، والمرايا الصغيرة، والمناضد التي تطوى وتقام، وقوارير العطور المثبتة على جدرانها من الداخل .. إلى آخر هذه الكماليات ووسائل الراحة اللائقة بالأمراء!.. ورأيت الخدم يضعون في مخزن العربة أدوات المائدة الفضية ومفارشها الأنيقة– وكلها تحمل شعار أسرة اوروزفار– ثم ألوان الطعام و الشراب المختلفة المعدة للأكل في أي مكان، بعد

تسخينها بهمة مساعده الطاهي الذي اتخذ مكانه إلى جوار الحوذي، وكان هذا قد ارتدى ثيابه التقليدية المحلاة بالقصب! وسرة نبأ الرحلة "التاريخية" في المنطقة كلها، فخرج القرويون في ثياب يوم الأحد الزاهية إلى الطريق العام كي يروا تلك المظاهرة العجيبة .. وهكذا، بعد أن تناولنا الإفطار، اتخذنا مقاعدنا في العربة، ثم نفخ الحوذي في البوق، بالطريقة التقليدية، وضرب الهواء بسوطه محدثا صوتا مثل صوت الطلق الناري .. وانطلقت العربة بنا إلى الطريق العام، حيث استقبلنا طيلة المسافة بتحيات الاحترام والتبجيل من الكبار، وصيحا بالتهليل والغبطة من الصغار .. وثملت الفتاتان– أديث و ايلونا– بخمر المغامرة الجديدة، والشمس المشرقة، والهواء النقي العذب .. وعلى الجانبين ترامت حقول الحنطة الذهبية، المتماوجة الهامات مع توجات الهواء .. حتى وصلنا إلى أول قرية على الطريق، وكانت أجراس كنيستها تدق معلنه بدء الخدمة الدينية، فاقترحت أديث أن نتوقف لنحضر "القداس" ورحب بنا القوم ترحيبا كبيرا، وقد رأوا في دخولنا كنيستهم الصغيرة المتواضعة تشريفا لهم. وحين رأوا أديث تتوكأ على ذراعي ايلونا وجوزيف، بدا عليهم التأثر الشديد، الذي يصيب البسطاء دائما كلما رأوا أن الكوارث لا تحجم عن أن تضع قبضتها الثقيلة على الأغنياء أحيانا! .. وسرت الهمسات بين عجائز النساء، وخف البعض إلى إحضار عدد من الوسائد المريحة كي تستند إليها أديث حيث جلست، في احد مقاعد الصف الأول! وهزت يقيني بساطة القوم، وتقواهم الظاهرة، وإيمانهم الخالص .. لكني لم ألبث أن شردت بذهني عن جو العبادة إلى تأمل أديث الجالسة

بجانبي، فقد كانت تصلي بحرارة غير عادية، وهي تكاد تنتفض انفعالا .. وحين عدنا إلى العربة واستأنفنا رحلتنا، ظلت أديث مستغرقة في التفكير، فلذنا جميعا بالصمت، احتراما لصمتها ورعاية لمشاعرها .. حتى وصلنا إلى المزرعة، وهناك اعد لنا القوم استقبالا خاصا، فأقبلوا يركضون بجيادهم في سرعة عنيفة، مثل قبيلة من البدو والأعراب تغير على غيرها .. ثم اطلق قائدهم صفارة خاصة، فلانت قبضاتهم على أعنه جيادهم واصطفوا حولنا في صفين منتظمين، رافقا عربتنا حتى بلغنا جميعا دار "العمدة". وبعد أن طفنا بأنحاء المزرعة ورأينا حظائر الجياد حديثة الولادة. العاجزة عن قضم قطع السكر التي تقدم لها، اعد الغداء لنا في الخلاء، وأعاننا النبيذ المعتق على أن نسترد مرحنا السابق بل نمعن فيه .. وكانت أديث أكثرنا مرحا وضحكا وانشراحا، بحيث كدت انسى اني عرفتها من قبل فتاة كسيحة تعسة! .. وحين أدخلت هي بعد الغداء إلى دار العمة لتستريح، انطلقت اجرب جياد المزرعة واركض بها واحدا بعد الآخر في الفضاء الفسيح، و قد تولاني شعور "بالحرية" لم يكن لي به عهد من قبل! واختار لنا الحوذي– للعودة– طريقا آخر يخترق غابة صغيرة رطبة منعشة الهواء. وفي إحدى القرى التي مررنا بها فوجئنا بأكثر من عشر عربات قد سدت الطريق تماما في وجهنا، ولم يكن في داخلها أو حولها شخص واحد من أهل القرية، ولكن لم يكد الحوذي ينفخ في بوقه حتى اقبل بعضهم على صوته .. وعلمنا أن اغنى الزراع في القرية يحتفل بزواج ابنه، وان الأهالي جميعا قد ذهبوا إلى ساحة الاحتفال للمشاركة فيه بالرقص والغناء والهرج .. وسرعان ما سرى نبأ وصول "هر

كيكسفالفا" وأسرته، فجاءنا والد العريس يلهث ويرجونا ملحا أن نقبل دعوته إلى تناول كأس من نبيذ في مزرعته الخاص، نخب صحة العروسين .. ولم نجد ما يدعونا إلى رفض دعوته، فسرنا إلى ساحة الرقص بين نظرات الاحترام من الأهلين جميعا، وافسح لنا أقارب العروسين طريقا إلى المائدة الرئيسة، حيث شربنا نخبهما وسط مظاهرة من التهليل .. ثم قدم لنا العروسان، وانحنت العروس تحيي كيكسفالفا في ارتباك ظاهر، ثم قبلت يد أديث في احترام .. وجو العرس يثير دائما مشاعر العذارى، وينعش روح "التضامن" الغامض بينهن وبين بنت جنسهن التي تزوجت .. وهكذا رأينا أديث تجذب العروس إليها وتعانقها في تأثر، ثم خطر لها خاطر مفاجئ فنزعت من أحد أصابعها خاتما غير باهظ الثمن ووضعته في أصبع العروس، التي اضطربت لهذه الهدية غير المنتظرة فلمعت في عينيها دموع الفرح والعرفان .. ومرة أخرى أحاطنا أهل العروسين ومدعويهم بمظاهرة من التحيات الشاكرة الحماسية، وراحت أم "العريس" تتنقل في أرجاء المكان ثملة بالشرف الكبير الذي حظى به عرس ابنها! وعلى أثر ذلك صافح كيكسفالفا أصحاب العرس ورجالهم ألا يجعلوا وجودنا يعطل برنامج احتفالهم، ثم أومأ إلى الرئيس جوقة "الغجر" الموسيقية كي يبدأ العزف .. ولم يكد يستهل عازف الكمان المقطوعة الأولى بنغم كمانه حتى ذرت الموسيقى كل تحفظ في مهب الرياح، وانطلق الشباب إلى حلبة الرقص في نشوة نارية ضارية! .. ونظرت أديث إلى الجمهور الصاخب السعيد بعينين تلمعان ببريق الانفعال، ثم أحسست بيدها على ذراعي، وقالت بلهجه آمرة: "يجب

أن ترقص أنت أيضا" .. ولحسن الحظ لم تكن العروس قد اندمجت بعد في زحمة الراقصين، بل كانت ما تزال تختلس النظرات إلى الخاتم المهدى إليها! .. فأومأت إليها داعيا إلى الرقص، وإذ ذاك أحمر وجهها حياء وزهوا بهذا "الشرف"، وتركتني أخاصرها مرحبة .. وحذا "العريس" حذونا فدعا ايلونا إلى مراقصته .. واحتدم الرقص حاميا عنيفا بهيجا، كما لم يحتدم في القرية الوداعة من قبل! .. لكن جعبة المفاجآت التي انطوى عليها ذلك اليوم لم تكن قد فرغت بعد، اذا لم تلبث أن أقلبت احدى عجائز الغجر، مدفوعة بسخاء هدية أديث إلى العروس، فعرضت على الضيفة الكريمة إن تكشف لها طالع مستقبلها. وأغرى الفضول هذه بالقبول، فركعت الغجرية أمامها وتناولت كفها تفحصه. وكل من زار "هنغاريا" يعرف أن أولئك الغجريات يبشرن دائما من يرين طالعه بأشياء سارة مفرحة، كي يظفرن بأجر سخي .. لذلك أدهشني أن ألحظ على وجه الفتاه وهي تصغي إلى همس محدثتها سحابة من القلق والكآبة .. وحين فرغت المرأة من كلامها أومأت أديث إلى أبيها كي يقترب، فلما فعل أسرت إليه ببضع الكلمات، أخرج الرجل على أثرها من جيبه مبلغا– يبدو أنه كان سخيا– وقدمه للمرأة .. فركعت هذه على الأرض ولثمت طرف ثوب أديث كالمأخوذة ثم جعلت تغمغم ببضع تمائم وأدعية غامضة، وهي تمسح قدمي المشلولة بيديها .. وحين فرغت ابتعدت مسرعة كمن تخشى أن يؤخذ منها المال الذي أعطيته! .. وأقلقني أن أرى مسحة الشحوب الذي كسا وجه أديث، ثم سمعتها تهمس لأبيها على الفور: "يحسن بنا أن نذهب". ونهضنا على الأثر، فتوقفت جوقة الموسيقيين عن العزف، واشترك أفرادها في توديعنا مع جميع الحاضرين .. وفي العربة جلست أديث في مواجهتي، وكانت ما تزال ترتجف من رأسها

إلى قدمها، شأن من وقعت تحت تأثير نوبة انفعال عاطفي شديد .. وفجأة أخذت تنشج نشيجا عصبيا عنيفا، ينم عن الفرح الطاغي. كانت تبكي ثم تضحك على التوالي .. إذن فلا بد أن الغجرية الخبيثة قد بشرتها بشفاء قريب! وحين حاولنا تهدئتها، عارضت في إصرار وقالت: "دعوني! .. دعوني .. إني أعلم أن المرأة دجالة .. ولكن لم لا أخدع نفسي؟ .. لم لا أتعلق بالوهم، ولو مرة؟"

الفصل الثامن

وصلنا إلى القصر عائدين من رحلتنا، مع بداية هبوط الليل، اعتذرت عن تلبية دعوة القوم بمشاركتهم تناول العشاء، فقد شعرت بأنني نلت كفايتي من السعادة طيلة اليوم، وخشيت– إن بقيت– من حدوث أي شيء ينتقص من سعادتي هذه .. وهكذا انصرفت مبكرا، وسرت في طريق المعسكر وقد خلت نجوم السماء ترنو إلى بنظرات حانية، ونسمات المساء العذبة تشدو في أذني! كنت في تلك الحال من النشوة النفسية التي يود المرء فيها لو يعانق كل شجرة من أشجار الطريق ويتحسس جذعها، وكأنه يتحسس جسم محبوبته .. ويدخل كل بيت فيجلس إلى قاطنيه الغرباء كي يفضي اليهم بذات نفسه، ويلقى عن صدره وقلبه بعض ما يفيضان به من سعادة عارمة! .. وحين وصلت إلى المعسكر وجدت تابعي واقفا ينتظرني أمام باب غرفتي، فرأيت أن أشركه بدوره في سعادتي، فنفحته بشيء من المال يشرب به هو وفتاته بضعة أقداح من البيرة ويقضيان سهرة لطيفة! لكني لم أكد أمد يدي إلى جيبي حتى رفع يده إلى رأسه بالتحية العسكرية وابتدرني بقوله: "توجد برقية باسم سيدي الملازم"! .. وشعرت بانقباض لا علم لي بسببه، وسالت نفسي: "ترى من يكون على ظهر البسيطة ذلك الذي يريد مني شيئا عاجلا يستدعي أرسال برقية؟ .."... وفضضت المظروف بأصابع مرتعشة،

فإذا فيـه: "طلب مني أن أزور كيكسفالفا غدا. قابلني في الحانة الساعة الخامسة –كوندور"

لم أكد ألتهم السـطور ببصري حتى أفقت من نشوتي بسرعة البرق، وتبدد هنائي الحالم في لمح البصر.. وفي أقل من ثانية أدركت ما لبث ساعات طويلة أرفض الاعتراف به لنفسي: وهو أن سروري وطربي لم يكونا غير سكرة ولدتها أكذوبة! .. وإنني بفعل ضعفي ومغالاتي في شفقتي قد أثمت فخدعت نفسي وغيري .. وها هو ذا الدكتور كوندور قادم ليناقشني الحساب، وسوف أدفع ثمن الساعات الهيئة التي استمتعنا بها جميعا! .. وفي دقة الملهوف وجدتني أصل إلى باب الحانة قبل الموعد الذي حدده لي الطبيب، ولم يلبث قليلا حتى وصل قادما من المحطة في عربة يجرها جوادان، فاتجه من فوره نحوي وابتدرني قائلا: "كنت أعلم أني أستطيع الاعتماد علي مراعاتك للميعاد .. ولعله يحسن بنا أن نجلس في الركن الذي اجتمعنا فيه تلك المرة، فإن الأمور التي سنتناقش فيها ينبغي ألا يسمعها أحد!"

وبدا لي الطبيب رجلا غير الرجل الهادئ "البليد" الذي عرفته في المرة السابقة! كان يعروه شيء من الانفعال المكظوم وهو يتقدمني إلى المقصورة المنعزلة، ويخاطب الساقية التي هرعت إلينا، قائلا في جفاء ملحوظ: "أعطينا لترا من النبيذ، مثل تلك الليلة، ودعينا في خلوة تامه حتى نطلبك!" .. ثم التفت إلى عقب جلوسنا مباشرة، وقبل أن تحضر الساقية ما طلب، قائلا: "ينبغي أن أدخل في الموضوع رأسا، وبسرعة،

والا توهم القوم في "كيكسفالفا" أننا ندبر كل صنوف المؤامرات! لقد لقيت عناء كبيرا في التخلص من سائقهم الذي كان مصرا على أن يأخذني إليهم فورا .. ولكن، فلأبدأ من البداية: لقد فوجئت صباح أمس ببرقية هذا نصها: "أرجو أيها الصديق العزيز أن تحضر في أقرب فرصة. كلنا ننتظرك بفارغ الصبر. لك ثقتنا الكاملة وشكرنا العميق-كيكسفالفا" .. ولم أفهم سببا واضحا لهذا الاستدعاء الفجائي- ولم يمض على فصحي للمريضة غير بضعة أيام- وكذلك لم أفهم سر توكيد الرجل لثقته في بالبرق، أو الداعي الى شكره العميق لي! .. لكنى برغم ذلك أهملت الأمر، حاسبا أنها نزوة جديدة من نزوات الأب الملهوف.. أما الذى صدمني حقا فهو الخطاب الطويل الذى تلقيته من أديث بالبريد العاجل هذا الصباح، وفيه تذكر لي بلهجة النشوة المجنونة أنها أحست منذ البداية أنني الأنسان الوحيد على الأرض الذى يستطيع إنقاذها .. وأنها تعجز عن وصف السعادة التي غمرتها حين عرفت أننا قد بلغنا أخيرا هذه المرحلة .. لذلك فهي تكتب لي كي تطمئنني إلى أنى أستطيع الاعتماد على حسن استعدادها لتنفيذ أي علاج أصفه بغير إبطاء، مهما تكن صعوبته .. وأن كانت ترجوني أن أبدأ باستعمال العلاج الجديد فورا، لأنها شديدة اللهفة على بلوغ نتيجته المرجوة! .. وكلاما كثيرًا آخر لا يخرج عن هذا المعنى!.. وقد ألقت هذه الرسالة ما يكفي من الضوء على الموضوع كله، فأدركت توًا أن "شخصا ما" لابد قد ثرثر على مسمع من الفتاة أو أبيها بحديث العلاج الجديد الذى استنبطه البروفيسور "فيينو".. وهذا الشخص لا يمكن أن يكون غيرك أنت يا سيدى الملازم !" ..

.. ويبدو أنني أجفلت، بالرغم مني، حين واجهني الطبيب بهذا القول، فقد استطرد في لهجة حازمة: "كلا! أرجو ألا تدعنا نطيل المناقشة في هذه النقطة، فإني لم أفه لإنسان غيرك بحرف واحد عن علاج البروفيسور فيينو .. فإذا كان آل كيكسفالفا قد باتوا يعتقدون أن شلل ساقي أديث سوف يشفى بقدرة قادر خلال بضعة أشهر، فأنت وحدك المسئول عن اعتقادهم هذا! .. لكنى لست بسبيل لومك أو تحميلك المسئوليات، فقد أخطأت أنا بدوري إذ لم أتخذ جانب الحذر في حديثي معك، سيما وأنه لم يكن في وسعك طبعا أن تعرفه ما عرفته أنا– بالخبرة – من أن للمرضى وأقربائهم لغة خاصة ينبغي أن يخاطبوا بها، وأنهم كثيرًا ما يترجمون كلمة "ربما" بكلمة "يقينا"، بحيث يجب أن "يقطر" المرء لهم الأمل تقطيرا، بمنتهى الحذر، وإلا صعد التفاؤل إلى رؤوسهم فورا–كالخمر الرديئة– وأصابهم بما يشبه الجنون! .. و لكن ما حدث قد حدث، فلنغلق باب الحديث في تحديد المسئولية، فما طلبت مقابلتك اليوم كي ألقى عليك محاضرة في هذا الشأن .. وإنما كل ما في الأمر أنني رأيت من واجبى– وقد تدخلت في عملي– أن أوضح لك حقيقة الموقف الراهن، ولهذا سألتك أن نلتقى! "ورفع كوندور رأسه، لأول مرة، وحدجني بنظرة مباشرة .. لكن نظرته كانت خالية من التحامل، بل أنها– على العكس– كانت مفعمة بالشفقة والرثاء! .. حتى لكأن صوته قد لان، وازداد رقة، حين استطرد فقال: فلتعلم يا عزيزي الملازم أن ما سأقوله لك الآن سوف يؤلمك .. ولكن، لا وقت لدينا للعواطف، كما قلت لك! .. لقد تلقيت اليوم رد البروفيسور فيينو على استفساري

عن علاجه الجديد، فاذا هذا يؤكد نجاحه في نحو ثلاث حالات حتى الآن، لكنها جميعا- لسوء الحظ- لا يمكن مقارنتها بحالة أديث .. فالعلاج المذكور ناجح في شفاء أمراض النخاع الشوكي الناشئة عن السل، وفيها يمكن إعادة أعصاب الحركة إلى القيام بوظائفها الأولى على خير ما يرام .. أما في حالتنا، حيث الجهاز العصبي الرئيسي متأثر بالإصابة، فغن جميع طرائق البروفيسور فيين- كالرقاد بلا حركة داخل مشد من الصلب، واستخدام أشعة الشمس، والتمرينات الخاصة التي ابتدعها- كل ذلك لا يجدي فتيلا! .. هذا ما أردت أن أوضحه لك كي تفهم الموقف الراهن على حقيقته. ولعلك الآن تقدر مدى تهورك حين بعثت في صدر الفتاة التعسة ذلك الأمل الكاذب في أنها ستشفى خلال أشهر، وسوف تستطيع أن ترقص، وتجرى وتتحرك مثل سائر الناس! .. أو بعبارة أخرى أنك قد وعدتها بالشمس والقمر والنجوم، وما أحسب ألا أنها ستناقشك الحساب بصدد تحقيق هذه الوعود!"

.. وأحسست كأنى تلقيت ضربة حادة بفأس، على رأسي! .. وطبيعي أنني شعرت بحافز يدفعني إلى الدفاع عن نفسى، والتنصل ولو من بعض المسئولية على الأقل، لكن الكلمات التي خرجت من فمي جاءت متخاذلة، وكأنها دفاع تلميذ مذنب! .. قلت: "لكنى إن كنت قد تفوهت بحرف لكيكسفالفا، فإن ذلك لم يكن إلا بدافع .. بدافع .." .. فقطع الدكتور كوندور كلامي قائلا: أعلم ذلك .. لقد اغتصب الكلام منك، انتزعه انتزاعا؛ .. إنني أعرف الناس بإلحاحه اليائس الذى يحطم جميع خطوط دفاع محدثه! نعم، أنا أعلم أنك لم تضعف إلا بتأثير

شفقتك عليه، وهى أنبل الدوافع .. ولكن أحسبني حذرتك من هذا الخطر من قبل، فالشفقة سلاح ذو حدين: وكل من لا يتقن استعماله يجب أن يكف يديه– وقبل كل شيء: قلبه– عن .... !.. في البداية فقط تكون الشفقة، كالمورفين، مسكن يخفف آلام المريض، ولكن ما لم تعرف بالضبط مقدار الجرعة التي تعطيه إياها منه، ومتى تكف عن إعطائها، فأن المسكن ينقلب سما قاتلا! .. وكما يدمن الجهاز العصبي "المورفين"، فيظل يصرخ في طلب المزيد منه كل حين، كذلك تدمن النفس "الشفقة" فتصرخ في طلب المزيد منها يوما بعد يوم، حتى تطلب في النهاية أكثر ما يمكن للإنسان أن يعطى! .. وحين تأتى تلك اللحظة ينبغي للمرء أن يتوقع من المريض مقتا وكراهية يفوقان ما كان يناله منهما لو لم يمد لمريضه يد المساعدة على الأطلاق، منذ البداية! .. نعم يا عزيزي الملازم، يجب أن يزن الشخص شفقته بالقسطاس، وإلا أحدثت من الضرر أضعاف ما كان يحدثه عدم المبالاة! .. هذه حقيقة نعلمها جيدا نحن الأطباء، كما يعلمها القضاة والمرابون وغيرهم، فلو أطلق الجميع العنان لشفقتهم لانقلب نظام الكون .. وها أنت ذا ترى بنفسك ما أحدثه ضعفك من أضرار!" وكان على أن أدافع عن نفسى، فقلت: "لكن .. لا يستطيع الإنسان أن يترك غيره فريسة لليأس. وعلى أية حال فما كان هناك ضرر في محاولتي أن .." .. لكن الطبيب قطع كلامي قائلا في حدة: "لا تنس يا عزيزى أن العبرة بالنتائج وليست بالدوافع، فما جدوى أن تكون الدوافع نبيلة والنتائج سيئة؟ .. إن الشفقة ذاتها لا غبار عليها، ولكن هناك نوعين من الشفقة: الأول هو النوع

الضعيف، العاطفي، الذى لا يزيد على كونه لهفة القلب على التخلص بأسرع ما يمكن من الشعور الأليم الذى تخلفه رؤية شقاء انسان آخر .. وهذا النوع من الشفقة هو بمثابة رغبة غريزية في تحصين النفس ضد آلام الغير .. والنوع الثاني– الذى يعتد به– هو النوع غير العاطفي، الذى يعرف ما هو منصب عليه، ويغرى صاحبه بأن يصمد– في صبر واحتمال– إلى أقصى حدود طاقته، وربما إلى أبعد من ذلك! .. ولا يستطيع المرء أن يعين أحداً بشفقة، ما لم يمض في الشوط إلى نهايته القصوى المريرة، مستعينا بمعين لا ينضب من الصبر .. بل ما لم يوطن النفس على التضحية بذاته في هذا السبيل! "وشابت صوت محدثي مرارة ظاهرة ذكرتني فجأة بما قاله لي كيكسفالفا يوماً عن زوجة كوندور العمياء، التي وعدها برد بصرها إليها، فلما عجز عن ذلك .. تزوجها بدافع التكفير!.. لكنها بدلا من أن تعيش مقدرة لجميله، نغصت عيشه وجحدت فضله! .. غير أن الطبيب أيقظني من أفكاري بوضع يده على ذراعي في رقة، ثم قال لي: "عفوا، لم أقصد أن أقسو عليك، فإن استسلامك لعواطفك أمر يحدث لكل إنسان .. فلننتقل من هذه الأبحاث النفسية إلى الحلول العملية، وعلينا أن نعمل في هذا السبيل متضامين: وأول مهمة تواجهنا الآن هي أن ننتزع من أذهان القوم كل أمل في علاج البروفيسور فيينو، وكلما أسرعنا في ذلك كان أفضل .. لا أنكر أنها ستكون صدمة قاسية عليهم، لكننا لا نستطيع أن ندع وهما مثل هذا ينتعش وتتعمق جذوره في نفوسهم .. وفي استطاعتك أن تترك لي مهمة معالجة الموضوع بكل ما في وسعي من لباقة وحكمة .. أما بالنسبة لك،

فلعلك تقدر أن أسهل تخلص يبرئ ساحتي هو أن أوقع اللوم كله عليك- وبحق- فأذكر أنك قد أسأت الفهم، أو غاليت في التخيل! .. لكني لن أفعل ذلك، وإنما أفضل أن آخذ المسئولية كلها على عاتقي .. وإن كنت أصارحك بأنك لن تسلم تماما من التعرض لذكرك، فأنت تعرف كيكسفالفا وإلحاحه الرهيب، وما لم أتخذك بمثابة شاهد في "القضية" فإني لن أفلح في إقناعه بالحقيقة، لأنه سيظل يحاورني ويداورني بطريقته المعهودة، وبمثل هذا الجدل، فيقول لي: "لكنك وعدت صديقك الملازم بكيت؟" .. أو يقول "لكن صديقنا الملازم قال كذا!"، كيما يخدع نفسه بتصور أن هناك بقية من أمل! .. والآن علينا أن نبادر بهدم القصر الذي شيده القوم في الهواء، بأسرع ما يمكن، وإلا كانت الطامة الكبرى!"

وأطرق الدكتور كوندور هنيهة، كمن ينتظر موافقتي .. لكني لم أجرؤ على مواجهة نظرته، فإن ذكريات اليوم السابق جعلت تتسابق في مخيلتي: تذكرت التغير الذي طرأ على أديث، والسعادة التي أشرقت من محياها، وضحكاتها ودعاباتها .. كيف أبدد كل ذلك بضربة قاصمة؟! كيف أعيدها إلى اليأس القاتل الذي لم يكد يمضي يوم واحد على نجاتها من قبضته؟ .. كلا لن أستطيع أن أساهم في هذا الإثم! .. ومن ثم قلت لمحدثي، في تخاذل: "أليس في وسعنا .. أن أنتظر بعد الوقت قبل أن نفتح الحديث في الموضوع مرة أخرى؟ .. ولو بضعة أيام؟ .. فإني لاحظت أمس أن الفتاة قد وطنت نفسها على تجربة ذلك العلاج الجديد، وأن هذا الأمل قد أمدها بالقوة النفسية التي كنت تتحدث عن احتياجها إليها .. بل لقد خيل إلي أنها استطاعت السير بسهولة أكثر من

ذي قبل .. فلو تركنا الأمر على هذه الصورة في البداية، لربما غنمت الفتاة بعض الفائدة!"

فقال مقاطعا: "صه! .. إنك تكاد تزج نفسك في صميم الطب .. ولو أن الفكرة التي تقترحها ليست خرقاء من أساسها- أعني وجهة النظر الطبية طبعا!- بل لقد فكرت فيها أنا نفسي بالفعل، على أثر تلاوتي لرسالة أديث .. فكرت في أن نستغل هذا الإيمان الوطيد بالشفاء، الذي غرسته أنت دون قصد في أعماق الفتاة، فنرسلها مثلا إلى مصحة طبيب من أصدقائي .. وهناك نوهمها بأننا نستخدم معها العلاج المستحدث، وعندئذ لابد أن يحدث الأمل، وتغير الهواء والمناظر، أثرا وقتيا قد يغري الفتاة بأن تمطرنا حينا برسائل الشكر والامتنان! ... ولكني-كطبيب - ينبغي أن أفكر في النهاية لا في البداية فحسب، وأن أحسب حساب "رد الفعل" الذي لابد يعقب مثل هذه الآمال العارمة، المغالة فيها!" .. فقلت له: " لكنك تبدو مقتنعا بأن ذلك سيحدث تحسنا جوهريا في حالة الفتاة؟!"

.. فقال: "بلا شك .. في البداية سوف يحدث تقدما ملحوظ، سيما وإن النساء في العادة يستجبن سريعا للمؤثرات العاطفية، والأوهام .. ولكن فكر فيما عساه أن يحدث بعد بضعة أشهر، حين تستنفذ القوى النفسية طاقتها، وتفقد أثرها، فتحس المريضة أنها بعد كل ذلك الانتظار، والإجهاد، والانفعال المتواصل، والضغط على الأعصاب .. لم تكد تقترب خطوة من الشفاء، الشفاء الصحيح الكامل الذي أنتظره كحقيقة آتية لا ريب فيها! .. تخيل الكارثة التي تحدثها خيبة الأمل هذه .. ولا

سيما لفتاة مرهفة الإحساس! .. وكيف يمكن أن تعطي أديث ثقتها لي، أو لأي طبيب آخر، بل لأي إنسان في الوجود، بعد أن تتبين أننا خدعناها على هذه الصورة المؤلمة؟ .. كلا يا عزيزي، إن الحقيقة– مهما تكن قاسية – لأرحم من ذلك المصير! وفي الطب كثيرا ما يكون استخدام السكين أكثر الوسائل رأفة بالمريض! .. كلا، لن أستطيع تحمل مسئولية هذه الخطة بضمير خالص .. وتستطيع أن تدبر الأمر بنفسك .. فهل تواتيك الجرأة على سلوك هذا السبيل، لو كنت مكاني؟!"

فأجبته دون تردد: "نعم". لكني تبنيت في اللحظة التالية مبلغ تهوري في هذا الجواب، فأردفت حذرا: "أعني لو كنت مكانك لأرجات المصارحة بالحقيقة حتى تتحسن حالة الفتاة بعض الشيء .. أغفر لي يا سيدي الطبيب، قد يبدوا ذلك في نظرك جرأة أو غطرسة ووقاحة مني، ولكن أتيح لك أن تلمس–كما لمست أنا خلال الأسابيع الأخيرة– مدى حاجة مثل هؤلاء المرضى إلى عون وسند يقوي من عزائمهم ونفسياتهم، لو أفقتني على رأيي .. نعم، ينبغي أن تعرف الفتاة الحقيقة، ولكن ليس الآن .. بل عند ما تصبح قادرة على تحملها! .. أوسل إليك يا سيدي الطبيب .. ليس الآن .. ليس الآن!" .. فقال الدكتور كوندور: "ومتى إذن؟ .. ثم من الذي يتولى هذه المهمة؟ إنها لابد أن تعرف الحقيقة يوما، وأخشى أن تكون خيبة أملها فيما بعد قسى وأخطر مائة مرة منها لو عرفتها الآن .. فهل تود حقا أن تأخذ على عاتقك هذه المسئولية؟ ..."

فقلت: "نعم!".. قلتها بلهجة حازمة، متأثرا بإشفاقي من الجرح الذي أواجهه لو وافقت على رأيه فاضطررنا لذهاب من فورنا كي نصارح القوم بالموقف! ... ثم أردف قائلا: "سآخذ هذه المسئولية على عاتقي إلى النهاية، فأنا واثق من الفائدة العظمى التي سوف تجنيها أديث لو تركناها فترة من الوقت تنعم بأملها القوى في الشفاء .. وإذا أقتضى الأمر في الشفاء .. وإذا أقتضى الأمر في النهاية أن أصارحها بأني أغاليها في وعودي، فأنا على أتم الاستعداد لاعتراف بنصيبي الكامل من مسئولية هذه المغالاة .. وأنا على ثقة من أنها سوف تفهم عذري وتقدر موقفي!.."

فقال متعجبا: "لكنك تحمل نفسك مسئولية فادحة، والغريب في الأمر حقا أنك تصيب الناس بعدوى ثقتك العمياء هذه، الشبيهة في قوتها بالإيمان الديني! .. فلقد أصبت بها في أول الأمر آل كيكسفالفا، وها أنت الآن تصيبني بها أنا الآخر تدريجيا! .. حسنا، إذا كنت مستعدا حقا لاضطلاع بعبء هذه المسئولية الخطيرة، فأنت وشأنك. وفي هذه الحالة قد نستطيع المغامرة بإمهال الفتاة أياما أخرى، حتى تهدأ سورة انفعالها، ولكن دعني أذكرك يا سيدي الملازم بأنك لو فعلت ذلك الآن فلن يكون من حقك– بل لن تستطيع التراجع!..– ومن ثم أستحلفك أن تدبر الأمر في روية، فإن من أعسر الأشياء أن تسترد ثقة إنسان بعد أن يكتشف أنك خدعته! .. والآن، قبل أن أعدل على مصارحة القوم توا بالحقيقة، هل تعاهدني وتعدني بأنك لن تخذلني فيما بعد، بأني أستطيع الاعتماد عليك؟"

.. فلما عاهدته على ذلك، بدا عليه الارتياح وقال: "حسنا، فلنؤمل خيرا، وإن كنت شديد القلق من جراء هذا التأجيل. والآن سأذكر لك إلى أي حد سوف أتمشى معك. إني سأنصح للفتاة بالذهاب إلى مصحة "إنجادين" التي يديرها صديق لي، لكنني سأصارحها بأن علاج دكتور فيينو لم تثبت فائدته المحتمة بعد، وإن عليها ألا تنتظر معجزة من ورائه .. فإن شاء القوم بعد ذلك أن يتعلقوا بالآمال الكاذبة– اعتمادا على وعودك!– فعليك أنت أن تواجه الموقف .. والآن ينبغي أن أسرع اليهم قبل أن يزعجهم إبطائي!"

وخرجنا من الحانة إلى حيث كانت العربة تنتظره أمام الباب. وحين أتخذ مقعده، وتأهبت العربة للمسير، تحركت شفتاي .. وهممت بأن أناديه، كي يعود! .. لكن الجياد سبقت صوتي إلى الانطلاق!

وبعد ثلاث ساعات، وجدت في غرفتي بالمعسكر رسالة كتبت على عجل بخط مضطرب، وقد أحضرها سائق سيارة كيكسفالفا.. وكان فيها: "أحضر غدا مبكرا بقدر ما تستطيع. وعندي أنباء مهمة لك. لقد حضر الدكتور كوندور الليلة، وسوف نسافر خلال عشرة أيام.. إني سعيدة غاية السعادة– أديث"

الفصل التاسع

أي سر أوقع بيدي ذلك الكتاب بالذات، في تلك الليلة بالذات؟..

تملكني شعور عارم بأنني متعب ومجهد، بشكل يحول دون صفاء التفكير أو سرعة النوم، فرأيت أن أستعين على النعاس بواحد من تلك الكتب القليلة التي اقتنيتها في مناسبات متفرقة، بدافع الشفقة على بائعها الجائلين، وأحملها معي كلما نقلت من معسكر إلى معسكر، دون أن أقرأ منها شيئا ... ووقع اختياري على كتاب: "ألف ليلة وليلة"، لأن قصصه الساذجة التي أحتفظ بذكرى مشوهة لها منذ صباي، لها أثر منوم أكثر من سواها ..

وهكذا تمددت في فراشي وبدأت أقرأ في تكاسل: قرأت أولا قصة "شهر زاد" والملك الذي عشقها .. ثم مضيت في قراءة قصة بعد قصة، حتى استرعت انتباهي قصة الشيخ الأعرج الذي كان راقدا في عرض الطريق حين مر به شاب، فناشده أن يحمله على كتفه لأنه كسيح لا يستطيع السير على قدميه. وأخذت الشفقة ذلك الشاب فحمله على كتفه ومضى به، وسرعان ما تبين له أن ذلك المقعد المسكين ليس سوى جنى شرير لا يكاد يستقر فوق كتف حامله حتى يقعد فخذيه العاريتين حول رقبته فيسلبه أرادته، ويجعل منه عبدا خاضعا له يحمله إلى كل

مكان يقصده، ولا يكون له حق في ساعة واحدة يستريح فيها، مهما تخذله ساقاه أو يجف حلقه من الظمأ! .. وهكذا يغدوا الأحمق ضحية تعسه لشفقته، ويفرض عليه قدرة أن يحمل سيده الماكر الشرير على ظهره .. إلى الأبد!

وتوقفت عن القراءة إذ شعرت بقلبي يخفق بشدة وكأنما يوشك أن يقفز من صدري .. وتراءت لي صورة الساحر الشرير وقد أتخذ هيئة "هر فون كيكسفالفا"، بشعره الأشيب ووجهه النحيل، ونظارته ذات الإطار المذهب! .. وخلت نفسي ذلك الشاب الأحمق الذي استجاب لداعي الشفقة فحمل الجني على كتفه، بل لقد أحسست ضغط فخذي "الجني" فوق رقبتي، إلى حد ضاقت معه أنفاسي ... فسقط الكتاب من يدي، وصارت أطرافي في برودة الثلج، وشعرت بقلبي يدق بين ضلوعي كأنه يدق داخل صندوق من الخشب الصلب! .. وحين غلبني النعاس آخر الأمر، زارني الشبح في منامي وظل يستحثني على المسير .. فلما صحوت في الصباح، وقد بلل العرق شعري، كنت مضني من التعب والإجهاد وكأني سرت عشرات أميال!

وعبثا حاولت أن أستعين بعملي ورفقة زملائي على نسيان تلك القصة اللعينة! وحين أخذت طريقي بعد الظهر إلى قصر كيكسفالفا، كان ذلك الحمل المرذول ما يزال يثقل كاهلي، فإني في أعماق ضميري المبلبل كنت أدرك جيدا أني منذ ذلك اليوم قد اضطلعت بمسئولية ذات طابع مبتكر، لكنه جد مرهق، كما أدركت أن واجبي صار يقتضي أن

أؤدي في كل مناسبة– في إصرار وإلحاح– دورا تمثيليا معقدا، وأضع على وجهي قناعا زائفا صفيقا .. وأكذب في كل حين، في هدوء المجرم المحنك الذي يفكر في كل تفصيلات جريمته، ووقائعها، ويحضر دفاعه عن كل حركة أو سكنة من تصرفاته، قبل أن يسأل ويستجوب بأسابيع، وشهور! .. ولأول مرة في حياتي بدأت أتبين أن الضعف– لا الشر، ولا الوحشية – هو المسئول عن أسوأ الكوارث التي تقع في هذه الدنيا!

.. وفي القصر جرى كل شيء كما توقعت، أو خشيت، تماما، لم أكد أظهر في شرفة البرج حتى استقبلت في حفاوة وترحيب، وكنت قد حملت معي باقة من الورد كي أشغل بها انتباه القوم عني، فأبتدرتني أديث متسائلة: "ما الذي دفعك إلى أن تحضر لي وردا .. إني لست ممثلة أولى في مسرح؟" .. ثم أنتقلت على الفور إلى سرد ما عندها من أنباء: فذكرت كيف أمدها كوندور– ذلك الطبيب المدهش العجيب– بشجاعة جديدة على أن تحمل آلامها، وكيف يعتزم إدخالها مصحة في جهة "أنجادين" بعد عشرة أيام .. ثم أخذت تبدي عجبها لأن تقضي يوم واحد بعد أن اهتدوا إلى العلاج الشافي! كما ذكرت أنها حاولت الانتحار مرتين من قبل، كي تضع حدا لحياتها العقيمة، لكنها فشلت في المرتين! .. وكيف أنها لا ترى معنى أو فائدة من التحسن البسيط المؤقت الذي كانت تجنيه من أساليب العلاج السابقة، لأن المريض إما أن يشفى، وإما لا يكون ثمة رجاء في تحسن على الإطلاق! .. ومضت في ثرثرتها النشوانة على هذا النحو، حتى خيل لي أني طبيب أصغي إلى هذيان متهوس محموم! .. وكلما سمعتها تضحك، لمناسبة ما، كنت

أرتجف فرقا، فقد كنت أعرف ما لا تعرف هي! أعرف أنها تخدع نفسها، ونحن نخدعها! .. وحين سكتت في النهاية، انتابني شعور المسافر الذي يفيق من نومه عندما تتوقف عجلات القطار فجأة عن الضجيج! .. لكني أفقت لأسمعها تخاطبني: "ماذا؟ أليس عندك ما تقوله؟ .. ما بالك جامدا هكذا في مكانك، وعلى وجهك هذه النظرة الغبية؟ .. عفوا!. أعني نظرتك الشاردة! .. لم لا تقول شيئا؟ .. أليس تشاركني سعادتي؟"

فأجبتها وأنا أنتهز الفرصة كي أرضيها بعبارة ودية حارة تزيل كل أثر لجمودي: "كيف تتصورين شيئا هكذا؟ .. كل ما في الأمر أني فوجئت على حين غرة، وأنت تقدرين ذلك بالطبع. والواقع أني مسرور لهذه الأنباء!" .. وأحنقني أن أسمع الصدى المتكلف البارد لكلماتي! .. ولابد أنها لاحظة تحرجي، فقد تغير مسلكها على الفور، فأختفى انشراحها تحت سحابة من الكآبة المفاجئة، كمن أوقظت فجأة– في عنف– من حلم بهيج .. وقالت عاتبة: "لست أرى أنك أظهرت سرورا كثيرا!" وأدركت الإهانة التي ينطوي عليها قولها، فحاولت استرضاءها بقولي: "يا طفلتي العزيزة.." لكنها انفجرت تقاطعني في حدة: "فلتكف عن مخاطبتي بهذا الوصف.. أنت تعلم أني لا أطيقه، فإنك لا تكبرني كثيرا! .. ولعله يحق لي أن أدهش لعدم اهتمامك بالأنباء التي أطلعتك عليها، بينما كان ينبغي أن تسر بالعطلة الطويلة التي سوف تحظى بها، فإن هذا البيت سوف يغلق لبضعة شهور، وهكذا يغدو في وسعك أن تعود فتجلس مع أصدقائك في المقهى وتشاركهم اللعب .. وبذلك تعتق

من جلساتك المملة كل ليلة! .. نعم!، أستطيع أن أفهم جيدا أكثر من سبب لسرورك، فأمامك أيام ممتعة تطلع إليها!"

.. وكانت لهجتها لاذعة، بحيث رأيت أن أتقي إغضابها بتكلف المزاج في جوابي، فقلت: "أيام ممتعة؟! .. هذا ما يدور عادة في أذهان المدنيين، أما نحن العسكرين– ضباط سلاح الفرسان– فنعد شهور: يوليو، وأغسطس، وسبتمبر!".. فأخذت هي تكرر "آخر سبتمبر" مثنى وثلاثا ورباعا، ثم تساءلت كأنما تخاطب نفسها، وقد بدا عليها الاستغراق فجأة في التفكير: "متى إذن .. تحضر إلينا!"

ولم أفهم قصدها، فسألتها في بساطة: "أين أحضر إليكم؟".. وعندئذ عقدت ما بين حاجبيها وقال: "أما تكف عن هذه الأسئلة السخيفة؟ .. تحضر كي ترانا .. كي تراني أنا؟." .. فقلت: "تعنين في أنجادين؟".. قالت: "نعم". وعندئذ فقط أدركت قصدها، فضحكت سخرية من نفسي! كانت الفتاة الساذجة تخاطب رجلا تعتبر الرحلة القريبة إلى فيينا ترفا لا تتحمله ميزانية، برغم التخفيض الذي يمنح للضباط، بنسبة خمسين في المائة! .. فضلا عن أنها تطلب إليه أن يقضي أجازته كلها في جهة نائية، باهظة النفقات مثل "أنجادين"؟

كانت الفكرة أبعد من أن يفكر فيها مثلي! ومن ثم أجبتها ضاحكا: "يا لطرافة فكرتكم عن الحياة العسكرية، أنتم معشر المدنيين! .. أنكم تتصورونها تجوالا بين المقاهي، ونوادي البلياردو، ونزهات في الطرقات،

بحيث إذا ما شعر المرء بالملل من عمله فما عليه إلا أن يرفع أصابعه إلى قبعته يقول لرئيسه: "إلى اللقاء يا كولونيل، فلست أحسن ميلا إلى العمل، وسوف أعود حين أجد في نفسي هذا الميل!" .. ألا تعلمون أن أحدنا إذا أراد التغيب ساعة واحدة كان عليه أن يقف أمام رئيسه متصلب القامة وقتا طويلا، كي يمن عليه بهذا الفضل؟ .. أما إذا أراد أجازه ليوم كامل، فلا بد له في هذه الحالة من أن تموت له عمة، أو تقام جنازة فرد ما من أفراد عائلته! .. وبودى لو رأى ما يلوح على وجه رئيسي لو وقفت أمامه ذات يوم لأخبره بأني مشوق إلى السفر في أجازه إلى سويسرا! .. أحسب أنه لا بد منهال علي يومئذ بوابل من الألفاظ والنعوت التي لا توجد في أي قاموس يصلح لأن يقرأها الجنس اللطيف! .. كلا يا أنستي العزيزة، إنك تغالين في تبسيط الأمور!"

.. غير أن أديث لم يبد عليها أنها اقتنعت بحججي هذه، فقد أجابتني بقولها: "هذا الذي تقوله هراء! .. إن كل شيء يغدوا ممكنا إذا وضعت تنفيذه نصب عينيك! فلا تصور لنفسك أنك شخص لا يمكن للفرقة الاستغناء عنه! .. ولهذه المناسبة، يستطيع أبي أن يدبر الأمر مع رؤسائك المختصين في وزارة الحرب في خلال نصف ساعة .. والواقع إنك سوف تستمتع برؤية العالم الخارجي، وتستريح من عملك الممل المألوف فترة من الزمن .. والآن كفى أعذارك، وعدني بأنك ستحضر!" ... وغاظني أن تتكلم أديث بهذه اللهجة، مؤكدة استطاعة أبيها أن يملي أوامره على رجال وزارة الحرب، كأنهم خدم عنده، في حين ننظر نحن لهم كأنهم أنصاف آلهة! .. لكنني آثرت الاحتفاظ بلهجتي المازحة،

فقلت: "حسن جدا أن أمنح الإجازة بهذه السهولة- وعلى طبق من الفضة!- كما تتخيلين، ولكن أباك سوف يضطر أيضا إلى أن يحصل لي على استمارة سفر أيضا، علاوة على الإجازة!"

.. وحين بدا على الفتاة أنها لم تفهم قصدي، رأيت أن أكون صريحا معها، فقلت جادا: "هل فكرت حقا يا آنسة أديث فيما عسى أن كلفني إياه رحلة كهذه؟" .. وعندئذ هتفت من فورها: "أوه، إذن فهذا ما تعنيه؟ .. إن الأمر لن يكلفك أكثر من بضع مئات الريالات!"

وهنا لم أستطع قمع غيظي، فقد كان موضوع النقود "عاهتي" المستعصية، أو "وتري الحساس" الذي لا أتحمل لمسه إلا برفق .. كنت في صدده أحس شعورا بالنقص يعادل شعورها هي بالنقص بسبب شللها! ومن هنا أجبت، في شيء من الحدة: "بضع مئات من الريالات فقط؟ .. أنها مسألة تافهة، أليس كذلك؟ .. ولعلك ترين من غير اللائق أن أفكر فيها أو أتحدث في شأنها! .. ولكن هل فكرت في مستوى المعيشة الذي تسمح به لنا مرتباتنا نحن الضباط؟"

وبدا لي أن الفتاة ترمقني بتلك النظرة نفسها التي حسبتها نظرة احتقار، فتملكني ميل جارف إلى أن أكاشفها بفقري وحقيقة حالتي المالية .. تماما مثلما وجدت هي- من قبل لذة في التشفي فينا وتحدي مشاعرنا نحن الأصحاء، بعرض عاهتها المؤلمة علينا في أبشع صورها والسير وسط الحجرة بعكازيها دون معاونة أحد! .. وهكذا وجدتني

استطرد قائلا: "هل فكرت يوما في معرفة المرتب الذي يدفع لملازم مثلي؟ فلأصارحك أنا به: أنه مائتا ريال، مفروض أن تكفي صاحبها ثلاثين يوما، فيدفع منها أجر الطعام واللباس ومقابل أجر السكن، ثم يشتري منها الكماليات التي تناسب رتبته العسكرية .. هذا إذا لم يصب جواده بسوء يقتضي علاجا!.. فإذا بقي له شيء بعد ذلك فقد يستطيع أن يجلس في المقهى بين حين وحين، وأقصى ما يمكن أن يطلبه في هذه الحالة: قدح متواضع من القهوة!".. على أنني لم أكد أتفوه بهذه العبارات، حتى شعرت لتوي بأنني ارتكبت حماقة إذ أطلقت العنان لمرارة نفسي كي تنفجر وتفيض على هذه الصورة، في مواجهة طفلة غريزة لم تسمح لها ظروفها بأن تقدر يوماً أية قيمة للمال! .. وما كدت أرفع عيني إليها حتى أدركت مبلغ أثمي وقسوتي، فقد صعد الدم فجأة إلى وجنتيها، فحجبت وجهها بكفيها، وقالت في استحياء: "ومع ذلك فأنت تذهب وتشتري لي كل هذه الزهور الغالية؟!" .. وتلت ذلك لحظات عصيبة، خيل لي أنها تنقضي! شعرت أنا بالخجل أمامها، وشعرت هي بالخجل أمامي! .. كان كلانا قد جرح أحساس الآخر، وخشي أن ينطق بكلمة أخرى! وبعد حين استطاعت الفتاة أن تقول: "يا لي من غبية حمقاء؟ كيف جاريتك في كل هذا الهراء؟ .. أنك إذا حضرت لزيارتنا فستكون ضيفنا. وهل تحسب أن أبي سيسمح لك بأن تتكلف نفقات الرحلة، علاوة على مشقة السفر للسؤال عنا؟ .. أي هراء هذا؟! .. والآن كفلا حديثاً في هذا الموضوع وحذار أن تنطق فيه بكلمة أخرى!" .. ولكني قلت لها: "بل هناك كلمة أخرى لابد أن تقال، تجنباً أي سوء

تفاهم بيننا: فلتعلمي بأني لن أسمح لأحد بأن يحصل لي على رعاية أو امتياز خاص لا يتاح لزملائي. أنا أعلم أن نيتك حسنة وكذلك نية أبيك، لكن هناك أناساً لا يقبلون كل خيرات هذه الدنيا .. فلا تدعينا نتكلم في هذا الموضوع مرة أخرى!".

فنظرت إلي ملياً وقالت: "أذن، أنت لا تريد أن تحضر لزيارتنا؟" .. فقلت على الفور: "أنا لم أقل ذلك، لكني شرحت لك لماذا لن أستطيع الذهاب!" .. فقالت: "حتى لو ألح عليك أبي، راجياً قبول دعوته؟" .. فقلت دون تردد: "نعم .. لن أستطيع ذلك حتى في هذه الحالة!" .. فسكت هنيهة ثم قالت: "وإذا سألتك أنا أن تحضر .. باعتبارك صديقاً عزيزاً؟" .. فقلت لها: "أرجو ألا تفعلي، فالمسألة في حكم المفروغ منها!".

ولاذت الفتاة بالصمت، لكني لمحت في اختلاج شفتيها بوادر العاصفة! .. أن الطفلة المدللة لم تألف من قبل أن يتصدى لها إنسان برفض طلب لها! .. وما هي إلا لحظة حتى مدت بصرها فاختطفت باقة أزهاري من فوق المنضدة وقذفت بها بعيداً في حنق، ثم قالت وهي تصر على أسنانها منفعلة: "حسناً! .. على الأقل قد عرفت الآن مدى صداقتك. أنه اختبار لها، جاء في أوانه! .. فلأنك تخشى ألسنة زملائك، تدمر متعة صديقة لك .. فليكن! .. لن أفاتحك في الأمر مرة أخرى .. أنت لا تريد الحضور .. كما تشاء أذن!" .. ولبثت تكرر العبارة الأخيرة وهي تضغط بأصابعها المتقلصة على ذراعي المقعد في عصبية شديدة .. ثم استطردت قائلة: "حسناً! أن المسألة قد انتهت عند هذا

الحد، ورجاؤنا الذليل قد رفض! .. أنك ترفض أن تحضر لترانا، حسناً سوف نتحمل ذلك، وقد عشنا على ما يرام قبل أن نعرفك .. لكن هناك سؤالاً واحداً أريد أن تجيبني عليه بصراحة، فهل تعدني بشرفك أن تفعل؟".

فقلت: "نعم، أعدك بشرفي!".

فقالت: "حسناً لا تخش أن ألح على "سموك" في شأن السفر! .. إنما أريد أن أعرف: ما دمت لا تريد الحضور لزيارتنا هناك – لأي سبب من الأسباب – فما الذي يدفعك إلى أن تزورنا على الإطلاق .. أعنى: هنا؟!".

وقد كنت مستعداً لأي سؤال منها، عدا هذا السؤال .. فجعلت أردده كالذاهل! .. ثم قلت لها أخيراً: "هذا أمر بسيط، بسيط يا سيدتي، وما كان ليحوجك إلى أن تستحلفيني بشرفي!" .. ثم لذت بالسكوت، لكنها هي لم تسكت، وإنما مضت تقول: "أذن .. أجب على السؤال في الحال!".

ولم يكن ثمة سبيل أمامي لمواصلة السكوت أو تسويف الجواب، على أني حرصت على أن ألتزم الحذر واللباقة ما استطعت، ومن ثم قلت لها: "يا عزيزتي .. لا تبحثي عن دوافع خفية وراء ذلك، ولعلك تعلمين أني لست بالشخص الذي يفكر كثيراً في دوافعه الخاصة، فلم يحدث أن سألت نفسي يوماً: "لماذا أزور هذا الشخص أو ذاك، ولماذا أحب هؤلاء الناس ولا أحب آخرين غيرهم .. ولست أستطيع أن أعطيك سبباً لمجيئي إلى هنا يوماً بعد يوم سوى هذا السبب البسيط وهو أني أفعل

ذلك لأنه يروقني، ولأني أحس هنا أني أسعد مائة مرة مني في أي مكان آخر، إذ لا أكاد أسترسل في الحديث معكم حتى ..".

ووقفت عند هذا الحد، ولكنها راحت تستحثني على إتمام عبارتي، قائلة في اهتمام: "حتى ماذا؟ .. تكلم!".

فقلت: ".. حتى أقول لنفسي – واغفري لي صراحتي – أنكم ترحبون بوجودي بينكم، وأن مكاني هنا .. فأني أشعر هنا – أكثر من شعوري في أي مكان آخر – كأني في بيتي .. وكلما نظرت إليك أشعر بأني .. بأني إزاء شخص لست في نظره "كمية مجهولة" مثلما أنا في نظر زملائي في الفرقة! .. وأحياناً أتساءل متعجباً: كيف لم تضايقك زياراتي بعد .. بل كثيراً ما ينتابني الخوف من أن تكوني قد مللت عشرتي، لكني لا ألبث أن أذكر نفسي بأنك وحيدة في هذا البيت الكبير الفارغ، وأنه قد يمتعك أن تجدي شخصاً يأتي لزيارتك، وهذا ما يمدني دائماً بالشجاعة .. فكلما رأيتك في هذه الشرفة أو في غرفتك، أقول لنفسي: أني أحسنت صنعاً بالمجيء، بدلاً من تركك تقضين اليوم كله وحدك .. ألست تفهمين هذا الشعور؟!".

كان رد الفعل الذي أحدثه كلامي في نفسها غير ما توقعت، فقد جمدت عيناها الغبراوان، وكأن كلماتي قد حولت إنسانيها إلى كرتين من الزجاج أو الحجر الأصم .. وبدأت أصابعها تروح وتجيء على ذراعي المقعد، وتنقر على خشبهما اللامع نقرات عصبية سريعة .. ثم خرجت

عن صمتها أخيراً فقالت على حين غرة: "أني أفهم شعورك هذا جيداً، وأعتقد أنك الآن قد ذكرت الحقيقة، وعبرت عن إحساسك في عبارات مهذبة، وأن كانت معذبة لي في الوقت نفسه! .. لكني فهمتك تماماً، فأنت تحضر لأني وحيدة .. أو بعبارة أخرى لأني مقيدة إلى هذا الكرسي. هذا هو السبب الوحيد لمجيئك إلى هنا كل يوم: أن تمثل دور "فاعل الخير" الذي يرأف بحال فتاة كسيحة مسكينة –كما تطلقون على ولاشك، وراء ظهري! – فأنت إنما تحضر بدافع الشفقة وحدها .. نعم، أني أصدقك، وما الداعي إلى الإنكار الآن؟ أنك أحد أولئك "الناس الطيبين" كما يسميهم أبي، الذين يذوبون شفقة على كل مصاب! .. فشكراً لك على أي حال، لكني في غنى عن صداقتك التي تظهرها نحوي لا لشيء سوى أني كسيحة .. لقد ارتبت في الأمر منذ زمن، لكني لم استوثق منه غير الآن، حين اعترفت به دون أن تشعر بأسلوبك اللبق الملتوي .. ولعلك تغبط نفسك وتنتظر أن يحمد الناس لك هذا الإنكار النبيل للذات، ولكن يؤسفني أن أصارحك بأني أرفض أن أسمح لأحد بتضحية نفسه من أجلي! .. أرفض أن أتحمل ذلك من أي إنسان، فكم بالأحرى منك؟!. بل أنا أمنعك من أن تفعل ذلك، أتسمعني؟ .. أني أمنعك! .. أني في غنى عن نظراتك المفعمة بالعطف، وحديثك اللبق المنمق، وفي وسعي أن أعيش من غيرهما كما كنت أعيش .. ويوم أعجز عن تحمل عيشتي هذه فأنا أعرف كيف أتخلص منكم جميعاً .. أنظر! – ومدت إلى فجأة راحة يدها – أنظر إلى هذه الندبة! لقد حاولت مرة، لكني فشلت! .. كان المقص الذي استخدمته تنقصه الحدة، فلحقوا بي

وأسعفوني قبل أن أحقق غايتي، ولكن ثق بأني في المرة القادمة سوف أتقن فعلتي! .. فأني أفضل الموت على حياة أكون فيها موضع شفقة من أحد! .. هناك مثلاً .. أترى سور هذه الشرفة؟ "وانفجرت فجأة ضاحكة ضحكة حادة كالمنشار" .. لقد جعله أبي منخفضاً كيلا يحرمني من رؤية المناظر الجميلة المحيطة بي، ولم يخطر بباله، أو ببال الطبيب، أو المهندس، أنني قد أستطيع استخدامه يوماً ما لغرض آخر .. تأمل جيداً!" .. وتحاملت بغتة على نفسها فرفعت جسمها واندفعت بثقله كله نحو السور فأمسكت بحافته بيديها كلتيهما، ثم أردفت: "نحن هنا في الطابق الخامس، وتحتنا في القاع ساحة من الخرسانة المسلحة فيها أكثر من الكفاية .. وبي والحمد لله بقية من عافية تعينني على تخطي هذا السور .. نعم، فإن التوكؤ على العكازين يقوي العضلات! .. وهكذا لن أحتاج إلى أكثر من حركة واحدة، أتحرر بعدها إلى الأبد، منك ومن شفقتك اللعينة! وأريحكم جميعاً من عبئي، أنت وأبي وايلونا .. أنظر، لن يكون على غير أن أتكئ على السور، وأنحني قليلاً هكذا!".

وهنا لمحت في عينيها الغبراوين بريقاً خطراً، فقفزت من مقعدي منزعجاً وأمسكتها من ذراعها، لكنها انتفضت مجفلة – كأن ناراً قد لسعتها! – وصاحت بي: "إليك عني! .. كيف تجرؤ على أن تلمسني؟ أذهب بعيداً .. أن من حقي أن أفعل ما أشاء! .. دعني .. وأغرب فوراً عن وجهي!".

وإذ أبيت أن أطيعها ورحت أجذبها بعيداً عن السور، بالقوة، استدارت بالجزء العلوي من جذعها ولكمتني بقوة في صدري، بقبضتها

.. لكن الحركة أفقدتها توازنها، فخارت ركبتاها وانهارت بثقل جسمها كله على الأرض، قبل أن يستطيع ذراعاي أن يتلقياها! .. وأثناء سقوطها جذبت معها منضدة الشاي التي حاولت التشبث بها، فسقطت معها بجميع ما عليها من أدوات وأطباق، تحطم أكثرها محدثاً دوياً ورنيناً عاليين .. وتدحرج الجرس البرونزي الكبير على أرض الشرفة حتى آخرها، فضاعف من صوت الضجيج .. بينما رقدت أديث على الأرض مثل كومة تعسة لا حول لها ولا طول، وهي تشهق باكية في حرقة، من فرط الحنق والخجل! .. وكلما حاولت رفعها ضربتني صائحة: "أغرب عن وجهي .. أذهب بعيداً .. أيها الوحش!" .. ثم راحت تبذل كل جهدها كي تنهض بغير معاونتي، وهي تكرر صياحها في كل مرة أحاول فيها الاقتراب منها!.

وكان الضجيج قد بلغ مسمع "جوزيف"، فاستقل المصعد إلى حيث كنا .. ولم يكد يرى المنظر حتى غض من بصره في تأدب وخف إلى سيدته المنتفضة المنتحبة يقيل عشرتها في رفق – دون أن ينظر إلي – ثم يحملها عائداً إلى المصعد الذي هبط بهما على الأثر .. وبقيت وحدي في الشرفة، وحولي الأواني المحطمة، مبعثرة في كل مكان .. كأنها حطام متخلف عن معركة!.

الفصل العاشر

لا أعلم على وجه الدقة قدر الوقت الذي قضيته واقفاً في ذلك الوضع، عاجزا عن إدراك أي سبب لتلك الثورة المفاجئة! .. أي قول أحمق نطقت به يستحق هذه الغضبة الشنعاء؟! .. وفيما أنا أقلب الأمر على وجوهه سمعت "أزيز" المصعد عائداً إلى السطح .. ولم يلبث أن برز منه جوزيف، واقترب مني قائلاً في أدبه المعهود: "فليسمح لي سيدي الملازم أن أجفف سترته المبتلة .." .. وعندئذ فقط تنبهت إلى بقعتين كبيرتين من سترتي وبنطلوني مبللتين بآثار الشاي الذي انسكب أثناء سقوط المائدة .. وبعد أن انهمك الرجل فترة من الوقت في محاولة تنظيف ثيابي وتجفيفها بمنشفة، قال يائساً: "لا فائدة .. لعله يحسن أن أرسل السائق بالسيارة إلى المعسكر كي يحضر لسيدي الملازم سترة أخرى ريثما أنظف هذه وأكويها .

وكانت لهجته تنطق بالعطف البالغ، فقلت له في بساطة: "لا داعي لكل هذا لأني ذاهب من فوري إلى المعسكر". وطلبت منه أن يرسل في طلب عربة تقلني إلى هناك .. وعندئذ رفع إلى عينيه المتعبتين في حركة توسل، وهو يقول: "هلا بقي سيدي الملازم بعض الوقت؟. أني أعلم عن يقين أن سيدتي سوف تستاء جداً لو أنك انصرفت الآن! .. أنها قد أوت إلى مخدعها ومعها الآنسة أيلونا، وقد طلبت مني الآنسة أيلونا أن أرجو سيدي الملازم أن يتفضل بانتظارها هنا، فأنها قادمة بعد لحظة!" ..

وشعرت بتأثر عميق، فربت بيدي في رفق على كتف الخادم الوفي قائلاً له: "دع هذه البقع حتى تجف في الشمس، وأجمع حطام الأواني المبعثرة .. ولسوف انتظر الآنسة أيلونا حتى تحضر"، فأطلق جوزيف تنهيدة ارتياح وقال: "ما أجمل أن يبقي سيدي الملازم! .. أن سيدي هر فون كيكسفالفا لن يلبث قليلاً حتى يعود، ولسوف يسر حين يرى سيدي الملازم. لقد أرادني أن ..".

وقبل أن يتم عبارته، أقبلت أيلونا نحونا وهي تغض من بصرها، وقالت لي: "كلفتني أديث أن أسألك الذهاب إليها في مخدعها لبضع دقائق فقط. وهي تؤكد أنك تؤدي لها بذلك صنيعاً كبيراً".

وهبطنا السلم معاً، ثم سرنا صامتين خلال ممر طويل يؤدي إلى مخدع أديث .. وحين بلغنا الباب همست في أذني على عجل: "كن لطيفاً معها .. لست أعلم ما حدث في الشرفة، لكني ألفت نوباتها هذه من قبل! .. وصدقني إنها أول من يندم عليها ويشقى بسببها، من تأثير الخجل وتوبيخ الضمير .. ولعلنا نعذرها لو قدرنا كم تقاسى في محنتها!".

ولم أجب بشيء، بينما طرقت أيلونا الباب، وإذ ذاك سمعنا صوتاً واهناً من الداخل يقول: "أدخل" .. وكانت الغرفة غارقة في ضوء برتقالي خافت، وفي نهايتها فراش رقدت فيد أديث، وقد ابتدرتني قائلة في استحياء: "تعال وأجلس هنا بجانبي .. لن أعوقك غير لحظات!". ولما

جلست بجانبها، أردفت قائلة وهي تغض بصرها خجلاً: "أغفر لي أني أستقبلك هنا، فقد شعرت بهزال ودوار شديدين، ربما لأني مكثت طويلاً في الشمس .. والواقع أني لم أكن في كامل وعيي .. ولكنك ستنسى كل ما حدث، وستغفر لي خشونتي معك، أليس كذلك؟" .. وكان في صوتها من التوسل ما جعلني أبادر بإجابتها فوراً: "ما هذا الذي تقولين؟ .. أنا الذي استحق اللوم! .. ما كان ينبغي أن أدعك تطيلين البقاء في الشمس!".

– أتعني أنك لست غاضباً؟ وسوف تحضر ثانية؟!.

– نعم، هذا ما أعنيه، ولكن بشرط واحد!.

فسألتني في لهفة: "ما هو؟" .. فقلت: "أن تثقي بي، وتكفي عن توهم الإساءة المزعومة لي .. أن ما بين الأصدقاء لأقوى كثيراً من أن يؤثر فيه أمر تافه كهذا! .. وليتك تعلمين مدى تغيرك حين تدعين نفسك على سجيتك فتضحكين وتمرحين، كما فعلت يوم رحلتنا الأخيرة! .. لقد قضيت تلك الليلة بأكملها أفكر في التغير الذي طرأ عليك، ولن ..." .. فقطعت كلامي قائلة: "حقاً؟ .. هل قضيت ليلة كاملة تفكر في أمري؟" .. فقلت: "نعم، ولن أنسى ذلك اليوم قط .. كان رائعاً بهيجاً!" .. فقالت: "نعم، هذا صحيح، وقد كان يوماً رائعاً حقاً! .. ولعله ينبغي لي أن أكثر من الخروج في رحلات كهذه .. فأن البقاء داخل جدران هذا "السجن" البغيض يرهق أعصابي .. آه لو ينتهي هذا السجن واسترد

حريتي ..؟!" .. فقلت: "سينتهي قريباً، فتذرعي بالشجاعة والصبر فترة أخرى من الزمن!".

وعندئذ رفعت جسمها قليلاً في الفراش وقالت: "أتعتقد مخلصاً، أعني أتعتقد حقاً أن هذا العلاج الجديد سوف يشفيني؟ .. لقد كنت واثقة من الأمر حين جاء أبي إلى غرفتي في منتصف الليل أول من أمس ليبشرني! .. لكن مخاوفي وشكوكي عاودتني أمس من جديد، فقد خيل إلي أثناء فحص الدكتور كوندور أياي أنه يذر الرماد في عيني، وأن الأمر كله خدعة! .. بل لقد بدا لي كأنه يروغ من مواجهتي، وتنقصه الثقة بنفسه! .. لأنه لم يكن صريحاً صادقاً كعادته، ولست أدري لماذا شعرت – في موضع أو موضعين من حديثه – أن شيئاً ما يخجله في حضرتي! .. أني أصارحك وحدك بهذا الشعور، بصفة خاصة، فلا تذكر له حرفاً مما أقول .. فلعل الأمر كله محض شكوك مبعثها خيبة أملي المتكررة فيما طالما منوني به من شفاء قريب .. كلا! .. ما عدت أستطيع تحمل هذا الانتظار الرهيب!".

وكانت – في انفعالها – قد رفعت جسمها في فراشها إلى وضع يقرب من الجلوس، وقد أخذت يداها ترتجفان، فهتفت بها مناشداً: "كفى، كفى! .. لا تعودي إلى انفعالك .. واذكري أنك وعدتني!" .. فقالت: "نعم، هذا صحيح! .. ولا فائدة من تعذيب نفسي على هذه الصورة! .. والواقع أني لم أكن أعتزم التحدث في هذا الأمر، وإنما أردت أن أشكرك لكونك لم تغضب مني بسبب ثوراتي الحمقاء! ...

ومن أجل لطفك معي الذي لا أستحقه .. وكلما فكرت في أني ... لكن دعنا ننسى هذا كله" فقلت لها: "هذا أفضل فعل! .. والآن يجب أن تنالي قسطاً وافرا من الراحة .."

ثم نهضت لأصافحها وأنصرف، فوقع بصرها على سترتي المبللة بآثار الشاي .. وكأنما أدركت أن الفعلة فعلتها، فغضت من بصرها في خجل وندم. وتأثرت لمسلكها، فقلت لها مازحا: "أنه أمر تافه!. طفلة شقية سكبت علي الشاي!."

فقال: "وهل أعطيت الطفلة الشقية علكة طيبة"

–كلا!. فإنها أحسنت التصرف بعد ذلك.

– إذن .. لم تعد غاضباً منها؟

–البتةّ!. وليتك رأيت ظرفها وهي تسألني الصفح!

– وهل صفحت عنها؟

–كل الصفح!. ولكن عليها دائماً أن تبقى طفلة مرحة، طيبة، مطيعة!. فتصبر حين يقال لها "أصبري"، ولا تطيل الجلوس في الشمس، ولا تطيع تعليمات الطبيب بدقة .. كما أن عليها قبل أي شيء أن تنام فورا!. ولا تشغل ذهنها بشيء .. طابت ليلتك!

ومددت إليها يدي، فبدت في عينيها الضاحكتين إشراقة السعادة الغامرة وهي تصافحني، ولكني لم أكد أضع يدى على مقبض الباب حتى لاحقتني ضحكتها المرحة، الشبيهة بضحكة طفلة عابثة، وقالت لي: "أنسيت ما تحصل عليه الطفلة قبل أن تنام؟".. فتوقفت وألتفت إليها مغمغما في حيرة، "ما هو؟" .. فقالت: "إن الطفلة حسنة السلوك تحصل عادة على "قبلة". قبل النوم!"

.. وكانت مفاجئة!. ولكن على الرغم من عدم ارتياحي، لم أشأ بالمخاطرة بتكدير صفو الفتاة وهي على أهبة النعاس، فقالت في بساطة وعدم مبالاة: "بلا شك!. كدت أنسى ذلك!" .. وفيما أنا أخطو إلى فراشها، أدركت من صمتها أنها تحبس أنفاسها، وكانت عيناها مثبتتين على وأنا أقترب، ورأسها جامد على الوسادة لا يتحرك .. فانحنيت فوقها على عجل وطبعت على جبينها- في رقة وخفة- "قبلة طائرة"، لم تكد شفتاي تلمسان بشرتها، بينما ملأ خياشيمي عطر شعرها الخفيف!. ولكني فوجئت بيدها تنطبقان على عنقي بكل قوتهما، قبل أن أملك أبعاد رأسي، لكني فوجئت بشفتيها تطبقان على شفتي بحرارة وشراهة، حتى تلامست أسنانا .. بينما رفعت صدرها حتى ألتصق بصدري .. وكانت قبلة ضاربة، يائسة، ظامنة، لم أذق مثلها في حياتي!

وبقيت أديث متشبثة بعنقي وصدري، حتى خانتها قوتها فخفت حدة عناقها لي، وتحولت يداها في نشوة محمومة عن شعري إلى رأسي، وهي تحدق في عيني كالمسحورة، دون أن تخلي سبيلي! .. وبعد أن

استراحت هنيهة، جذبتني إليها من جديد وأخذت تنثر قبلات حارة عمياء على وجنتي .. وجبيني .. وعيني ... وشفتي، في شيق وحشي، شأن العاجز الذي يبغي التعويض عن عجزه!. وكانت وهي تجذب رأسي نحوها تغمغم ملهوفة: "يا لك من غبي .. لكم أنت غبي كبير!" بينما تزداد قبلاتها حرارة وعنفا وضراوة، وأخيرا هزت جسدها رعشة مفاجئة، فتراخت يدها وسقط رأسها إلى الخلف على الوسادة .. لكن عينيها لبثتا تراقبنني ببريق الانتصار!

وفي النهاية أردت عني وأخلت سبيلي تهمس لي، في أعياء وخجل: "والآن أذهب، أذهب .. أيها الغبي الكبير .. أذهب!"

وذهبت .. وأنا أترنح كالثمل!. وقبل أن أبلغ نهاية الممر المعتم، خذلتني قواي، وأصابني دوار فاستندت إلى الجدار .. أذن كان هذا سرها .. سر قلقها ومسلكها المتناقض غير المفهوم! وانتابني أحساس من أنحني في غير ارتياب فوق زهرة زكية الرائحة، فلدغته أفعى تستتر خلفها!

فقد كنت متأهبا لقبول كل شيء إلا أن أرى هذه الكسيحة التعسة قديرة على أن تحب، راغبة في أن يحبها الرجال! .. وكنت على استعداد لأن أصدق كل شيء إلا أن هذه المخلوقة العاجزة التي لم تنضج بعد، تملك الجرأة– بل النزق!– على أن تحب وتشتهى، بمثل تلك العاطفة المشبوبة العارمة!. ولهذا توقعت كل احتمال إلا هذا الاحتمال!. لكن حين قلبت الأمر على وجهه أصبت بصدمة جديدة، إذ تبينت أن زيارتي

المتكررة للفتاة، بدافع الشفقة وحدها، هي المسئولة عن توهم المسكينة- القابعة في سجنها المنعزل عن العالم الخارجي- عن أنني أكن لها عاطفة خاصة .. في حين كنت أنا- الغبي الساذج- أنظر إليها نظرتي إلى كسيحة معذبة، أو بعبارة أخرى إلى طفلة، لا أمرأه! .. وما خطر ببالي قط أن تحت غطائها وثيابها يتنفس، ويشعر، وينتظر، جسد ظامئ مشتعل، يشتهى ويتوق إلى أن يشتهيه الرجال! وقد يكون جمال جسم ايلونا قد استثارني في بعض الأحيان، لكني لم أفكر قط في أديث باعتبارها أنثى كاملة الأنوثة مثلها .. حتى فطنت أخيرا إلى الحقيقة التي أغفلها أكثر الكتاب الذين صوروا الحب في قصصهم: وهي أن المنبوذين، والمشبوهين، والأشقياء في حياتهم عامة، يشتهون ملذات الجسد بشراهة أعنف وأخطر مما يشتهيها السعداء! .. وأنهم حين يحبون يكون حبهم عنيفا، يائسا، مهلكا، "أسود" .. كأنما يشعرون بأن ليس هناك ما يبرر وجودهم ألا أن يحبوا، ويحبهم الناس!

نعم، هكذا ترتفع من أعمق أعماق هاوية اليأس، أشد تأوهات الظامئين إلى الحب؟ .. ذلك هو السر الرهيب الذي حجبته عن أدراكي- فيما مضى- سذاجتي ونقص تجاربي، ثم شعرت به أخيرا يخترق وعيي مثل سكين حادة! .. وأدركت لم قفز لفظ "غبي" إلى شفتي الفتاة في غمرة ثورتها العاطفية، وهي تضغط صدري بصدرها! .. لقد كانت محقة في أن تطلق هذا الوصف؟.. هل أنا غير غبي!؟. أكبر الظن أن أهل الفتاة جميعا: أباها، وايلونا، وجوزيف، وبقية الخدم، قد لاحظوا تعلقها بي وراقبوا شغفها المكتوم في كثير من القلق، وأنا وحدي الذي

أعمتني شفقتي الحمقاء عن أدراك الحقيقة، فمضيت في تعذيب هذه الروح الرقيقة .. دون أن أدري!

وكما تضيء ومضة النور الخاطفة عشرات الأشياء التي تقع عليها، في آن واحد، أضاءت قبلات الفتاة المحمومة عشرات من الأمور الصغيرة، كانت غامضة على طيلة الأسابيع السابقة: أدركت فجأة علة استيائها كلما ناديتها بقولي: "يا طفلتي العزيزة"، فقد كانت تطوق إلى أن أعتبرها أمرأه، وأهفو إليها كمعشوقة! .. كذلك فهمت سبب ثورتها كلما لمست مني تصرف ينم عن لشفقة، فقد أدركت المسكينة بغريزة المرأة أن الشفقة شعور أقرب من الأخوة من إلى الحب الحقيقي! .. وكم تاقت المسكينة ولا ريب إلى أن تسمع مني كلمة أو أشاره رقيقة تنبئ عن استجابتي لعاطفتها، أو إحساسي بها على الأقل .. ولكن دون جدوى!. وكم ألهبها القلق واللهفة، وأضناها الانتظار .. ولكن بدلا من أن أروي ظمئها الطويل .. أو أبتعد من طريقيها فأدع لها فرصة النسيان، بقيت أغذي عاطفتها– من حيث لا أشعر– وأضاعف من قلقها وعذابها، بزياراتي اليومية المتكررة! .. أذن ولم يكن عجبا أن تنهار أخيرا أعصابها، وتنفجر عواطفها الكظيمة على تلك الصورة التي فوجئت بها!

وتتابعت مئات الصور والخواطر والكلمات، متسابقة إلى ذهني في غير انتظام، وأنا أجر ساقي عبر الممر الطويل المعتم المؤدى الى الردهة الكبرى، حيث تركت سيفي وقبعتي .. وخطر ببالي أن ألوذ بالفرار قبل أن ينتبه أحد إلى خروجي من مخدع الفتاة، خشية أن ترى على وجهي

آثار الاضطراب .. لكن ما خشيته وقع، فقد خرجت إلى "أيلونا" من الصالون، وكأنما كانت تنتظرني هناك– ولم يكد بصرها يقع، على حتى أبتدرتني في جذع:

– ماذا حدث هل أصبت "أديث" بمكروه؟

– فأجبتها بما وسعني من جهد: "كلا! بل هي الآن على ما يرام، ولعلها قد نامت"، ثم أردفت قائلا: "لا تؤاخذيني! .. يجب أن أنصرف دون أبطاء!" ... لكنها لاحظت على ولا ريب ما أزعجها، فقد استوقفتني في حزم ودفعتني إلي أقرب مقعد مريح، وهي تقول: "أجلس قليلا حتى تسترد هدوءك .. وتصلح من هيئتك .. ألا ترى شعرك المشعث؟ .. سأحضر لك كأسا من الكونياك!"

– واتجهت إلى البار فملأت لي منه كأسا، جرعت ما فيها مرة واحدة ثم وضعتها جانبا بيد مرتعشة .. وبقينا هنيهة صامتين، وايلونا تختلس النظر إلي في حذر وقلق، كما لو كنت مرضا! ثم قالت أخيرا: "هل ذكرت لك أديث شيئا .. أعني شيئا يتصل بك؟"، وأدركت من لهجتها أنها فهمت كل شيء، فغمغمت: "نعم!". وعادت تسألني بعد تفكير: "ألم تلحظ ذلك حقا قبل الآن؟" .. فاندفعت أجيبها: "وكيف كان يمكن أن تكون لدي أدنى فكرة عن شيء مثل هذا؟ .. شيء جنوني، لا يقبله العقل؟ .. كيف أمكنها ..؟. ولم أكن أنا .. دون الناس جميعا؟"

وعندئذ تنهدت وقالت: "يا الهي .. لقد طالما ظنت المسكينة أنك تأتي خصيصا من أجلها .. وكنت أنا أرجح أنها على خطأ، وأستنتج من تصرفاتك معنا، في بساطة وغير كلفة، أنك لا تحس نحوها غير الشفقة. ولكن ما كنت لأقوى على أن أقسو على طفلة مثلها فأحرمها من الوهم الجميل الذي يسعدها، في الوقت الذي خلت الحياة فيه حياتها من أسباب السعادة!" .. وهنا وجدتني أقول لها وقد بدأت أقدر خطورة الأمر: "ينبغي أن تبددي هذا الوهم قبل أن يستفحل! .. أنه جنون منها، حمى، نزوة صبيانية! .. ولعله لا يعدوا أن يكون شغفا بالسترة العسكرية .. ولو أنها صادفت غدا ضابط آخر فقد تتكرر القصة .. أوضحي لها ذلك .. وفي مثل سنها يمكن التغلب على هذه الأزمات في وقت وجيز!"

لكن ايلونا هزت رأسها في اكتئاب وأسى قائلة: "كلا يا صديقي العزيز! .. لا تخدع نفسك! .. إن الأمر لأديث جد خطير، وهو يزداد خطرا كل يوم .. ولو عرفت ما يجري في هذا البيت منذ حين لآمنت برأي: أنها توقظنا بجرسها مرات كل ليلة، لكي تسألنا في لهفة: "ألا تعتقدون أنه يحبني، ولو قليلا!" ... ثم تطلب أن نأتي لها بالمرآة لترى وجهها! .. لكنها لا تلبث أن تلقيها بعيدا، وكأنها تنبهت فجأة إلى مدى حماقتها .. ومع ذلك لا تنقضي ساعتان، حتى تكرر القصة ! .. وفي نوبات يأسها تستجوب أباها، وجوزيف، والخادمات .. وأمس أرسلت في طلب تلك "العرافة" الدجالة التي قابلناها في عرس القرية، كي تستمع لأكاذيبها مرة بعد مرة .. بل لقد كتبت إليك خمسة خطابات، ثم مزقتها

قبل أن ترسلها! .. وكم من مرة كلفتني أن أذهب فأبحث عنك وأسألك: "هل تحبها، وإلى أي مدى؟" .. ولم أكن أفرغ من ارتداء ثيابي، ويعد السائق السيارة للخروج، حتى أسمع جرسها اللحوح يدعوني مرة أخرى لتستحلفني بكل عزيز ألا أذهب! .. وفي كل ليلة لم تكن أنت تنصرف حتى تعيد هي على مسمعي كل كلمة قلتها لها، وكل إشارة بدرت منك، وتسألني رأي في مدلول هذه، ومغزى تلك .. فإذا أيدت ظنونها الطيبة، صرخت في وجهي: "أنتِ كاذب! هذا غير صحيح! أنه لم يوجه إلي اليوم أية عبارة رقيقة!" .. ثم تتكرر أسئلتها وإجاباتي، وثورتها ورضاها، ويأسها وأملها ... كل ساعة من ساعات يقظتها في النهار أو الليل! .. ومنذ "أصيبت" بهذه الحالة بات "مرضها الجديد" شغل أبيها الشاغل، وصار يصحبها كل ليلة إلى مخدعها كي يجلس إلى فراشها ساعات، يهدئها ويلاطفها، حتى يغلبها النعاس آخر الآمر .. وعندئذ يمضي إلى غرفته، كي يذرعها حائرا مفكرا أكثر الليل! .. آه لو علمت كم يحبك التعس؟! إنه يكاد يعبدك! .. فهل تريد أن تقول أن هذا كله جرى دون أن تلحظ منه شيئا؟!"

وهنا صحت قائلا في نوبة يأسي البالغ: "كلا! .. أني لم أحس شيئا من ذلك مطلقا! .. وإلا فهل كنت تحسبينني أواصل زياراتي في غير كلفة، لو كانت في ذهني أدنى فكرة عن شيء كهذا يجري في البيت؟ .. وكيف كان يمكن لمثلي يفكر في "جنون" من هذا القبيل؟ .. كلا! .. وأقسم لك!"

.. وكدت أقفز من مقعدي حيرة واضطرابا، لولا أن مسكت أيلونا ذراعي قائلة: "أرجو أن تهدأ، وأخفض صوتك، فإن لأديث آذانا تخترق الجدران ... ثم عدني أن تكون رحيما بها .. لقد تفاءلت المسكينة بكونك أنت الذي جلبت نبأ العلاج الجديد .. وليتك رأيتها وأباها وهما يجهشان بالبكاء والشكر لله من أجل شفائها المرتقب، ونهاية أيامها السوداء! .. لقد كان أول ما فكرت فيه أنك – حين تشفى هي– لن تتردد في .. إنك تفهم قصدي! .. لذلك ينبغي ألا تلقي بالتعسة في هاوية اليأس، في هذا الظرف الذي هي محتاجة فيه إلى قوتها النفسية كي تباشر العلاج الجديد!"

.. لكني صحت في جنون اليأس، وأنا أضرب ذراع المقعد بقوة: "كلا .. كلا! لا أستطيع! .. لن أدعها تحبني على هذه الصورة، ولن أستطيع تجاهل الأمر والمضي في مسلكي القديم .. هذا مستحيل! .. إنك لا تعرفين ما حدث في غرفتها، إنها واقعة تحت تأثير خطأ شنيع فيما يتصل بي! .. إني لا أشعر نحوها بغير الشفقة .. الشفقة وحدها ولا شيء غيرها!"

.. فتنهدت ايلونا ثم قالت: "هذا ما خشيته منذ البداية! .. ولكن، رباه! ... ماذا عساه يحدث الآن؟ .. كيف ننهي إليها الحقيقة؟"

وساد الصمت بيننا فترة، وقد أدرك كلانا حرج الموقف .. وفجأة سمعنا صوت سيارة كيكسفالفا تقف أمام الباب، فهتفت ايلونا: "يحسن

ألا تقابله الآن وأنت منفعل .. سأحضر لك سيفك وقبعتك كي تخرج من الباب الخلفي" .. وبعد لحظات كنت أغادر البيت متسللا، كلص يستخفي في الظلام!

الفصل الحادي عشر

لدي اعتقاد يلازمنى منذ أدركت مرحلة الشباب، خلاصته أن أشواق الحب وآلامه أفظع عذاب ممكن أن يصيب القلب البشري! .. لكني في تلك الليلة بدأت أدرك أن هناك عذابا أمر من عذاب الشوق والاشتهاء، هو عذاب من يجد نفسه محبوب رغم إرادته، من أمرأه تتلظى بنيران الرغبة، وهو عاجز عن تخليصها من وسط النيران! إن الشخص الذي يصاب بالحب قد يستطيع السيطرة على عاطفته في بعض الأحيان، وذلك لأنه هو نفسه خالق بؤسه، وقد يعجز عن السيطرة لكن على الأقل يعرف أنه المسئول عن آلامه .. أما "المحبوب، غير المحب" فضائع لا خلاص له، لأنه لا يستطيع أن يضع حدا لعاطفة عاشقه، وحدة رغبته! .. ولعل الرجل أقدر من المرأة على إدراك مدى قسوة هذه المأساة، لأن المرأة التي تصد حبا غير مرغوب فيه، إنما تطيع قانون جنسها، الذي يعتبر الصد أو الرفض أمرا غريزيا في الأنثى، لا يمكن أن تهتم من ورائه بمجافاة الشعور الإنساني! .. أما حين يقلب القدر الموازين، فتجرأ أمرأه على مغالبة جمودها الطبيعي إلى حد التصريح لرجل بأنها تحبه، قبل أن تستوثق من أنه يبادلها الحب، بحيث نراها تعرض عليه حبها، فيصدها هو بقلب بارد .. فإن المسائلة تتعقد وتصبح مأزقا يصعب الفكاك منه! .. لأن الرجل الذي لا يبادل عاشقته عاطفتها إنما يمزق كبريائها، وهو حين يقابل تقربها منه وتوددها إليه، بالنفور والأعراض، إنما يطعنها في

أعز مشاعرها وأنبلها .. وعبثا تكون كل رقته وأدبه في التنصل منها، بل أنه ليهينها أن عرض عليها صداقته الخالصة، بعد أن تكون قد كشفت له ضعفها .. فإنها تعد ذلك منه جريمة خطيرة، وقسوة بالغة!

كيف لا هو علم أن هناك أمرأه تنتظره، وتفكر فيه، وتشتاق إليه، وتتنهد من أجله ليل نهار! .. بل علم أنها تريده وتشتهيه بكل خلية وعصب في كيانها، بجسدها، بدمها! .. تريد يده، وشعره وشفتيه، ورجولته، وليله ونهاره، وعواطفه وحواسه، وجميع أفكاره وأحلامه! .. تريد أن تشاطره كل شيء، وتأخذ منه كل شيء، تنهله نهلا مع أنفاسها .. وسواء أكان يقظان أم نائما فهي يقظة محمومة، تنتظره وتحلم به! .. عندئذ يكون من العبث الظالم أن تحاول عدم التفكير في المرأة التي تفكر دائما فيك، أو تحاول الفرار ممن استوعبتك في دمها ذاته، فإنها تحملك معها، بل فيها، أينما ذهبت هي وحيثما ذهبت أنت! تحملك سجينا في أعماقها، فماذا بك تحس تفكيرها فيك، وحنينها إليك، وعذابها بسببك، كما و كان ذلك كله نار تلتهمك، وتملئك بغضا وخوفا! .. إنها لأفظع محنة، لا فكاك منها، ممكن أن تصيب رجلا: أن يجد نفسه محبوبا بغير إرادته! .. أنه عذاب يفوق كل عذاب، وعبء على الضمير لا يحرره أبشع أثم!

وهكذا وجدتني أواجه هذا الحب اليائس، فأعاني من شفقة مزدوجة: شفقة على الفتاة التي تقاسي نار حب مرفوض، وشفقة على نفسي التي تقاسي عناء صد تيار حب مرفوض .. لكن نصيبي من هذا

البؤس المزدوج المقسوم كان أثقل النصيبين، فلئن كان إخلاف رجاء مرأة في حبها يعد قسوة ووحشية، فكم بالأحرى يكون رفض حب هذه الفتاة التعسة الكسيحة، الملتهبة العاطفة، وطعني شعورها بعد أن طعنتها الحياة قبلي في الصميم، طعنة نجلاء؟!

وهكذا لم يخف على أنى – بالتنصل من حب هذه الصبية الغريرة – قد أعرض حياتها وعقلها للخطر .. وأني أن لم "أتظاهر" على الأقل، بالاستجابة لعاطفتها –ما دمت عاجز عن الاستجابة لها حقا – فإني إنما أرتكب بذلك برغمي، جريمة بشعة نكراء:

على أني – لسوء الحظ– لم يكن لي في الأمر خيار! .. وفي اللحظة الرهيبة التي انتزعت فيها جسمي من بين ذراعي عاشقتي، لأتخلص من عناقها العنيف، أدركت بغريزتي – قبل أن أدرك بعقلي– إنني لن أقوى مطلقا على أن أحبها كما تحبني، بل لن أجد في قلبي حتى من الشفقة ما يكفي لكي أتحمل عاطفتها الثقيلة الوطأة .. ومن هنا قدرت منذ البداية أن لا مخرج من هذا المأزق الرهيب، ولا حل لهذه المشكلة المعقدة .. وإن أحدنا أو كلينا لابد سيشقى بذلك الحب العقيم!

وصلت لقلب البلدة في ذلك الأصيل وأنا لا أدري كيف وصلت! .. كل ما أعرفه أني سرت في طريق مسرعا، وفكرة واحدة تنبض في عقلي مع كل نبضة من قلبي: بعيدا! بعيداً، بعيداً عن هذا البيت، بعيدا

عن هذا المأزق، لذا بالفرار، أهرب، اختلف! لا تطأن قدمك عتبه هذا المنزل، ولا تعد لرؤية هؤلاء الناس... اختبئ، لا تدع أحداً يراك، ولا تقيد نفسك بشيء إزاء مخلوق، ولا تعط الفرصة لإنسان كي يوقعك في فخ! .. بعيداً .. بعيداً! ... بعيداً! ... ومن الغبار الذي كسا حذائي، والتمزقات التي أحدثتها الشجيرات الشائكة في ملابسي، أدركت فيما بعد أنني اخترقت حقولا وأحراشاً، ودروباً وأزقة .. حتى وجدتني عند بداية الطريق الرئيسي والشمس العاربة توشك أن تختفي خلف قمم المباني .. فمضيت كالنائم الذي يسير في نومه، ثم إذا بي أفاجأ بيد تربت على ظهري ...! وما كدت التفت حتى وجدت نفسي أمام أربعة من زملائي الين اعتادوا قضاء الأمسيات معي في المقهى .. وابتدروني قائلين إنهم بحثوا عني في كل مكان كي يبلغوني أن ضباط الفرقة جميعاً مدعوون لتناول العشاء في الساعة الثامنة والنصف على مائدة "بالنكاي"! وتذكرت أخيراً من يكون بالنكاي صاحب هذه الدعوة! أنه ضابط سابق من ضباط الفرقة كان مقامراً عربيداً فطرد من الخدمة العسكرية– بعد حادث يؤسف له، لم أعرف تفصيلاته– ومضي يضرب في الأرض .. حتى التقي في فندق "اكسلسيور" في القاهرة بأرملة هو لنديه ثرية تملك خطاً للملاحة، تسير عليه سبع عشرة سفينة، ومزارع فخلب لبها وتزوجها! ... ومنذ ذلك التاريخ وهو لا يفتأ يرسل الهدايا لضباط فرقته القديمة، في الأعياد والمناسبات، ويزور المعسكر كلما مر بالنمسا خلال رحلاته الطويلة لتفقد أملاكه، فيقيم لزملائه القدامى مأدبة ينفق عليها ببذخ خيالي، يظل حديث أهل البلدة بعد ذلك لأسابيع!

وحاولت أن أزوغ من حضور الحفلة، ملتمساً لذلك شتى المعاذير، لكي زملائي الأربعة أخذوا بيدي إلى حيث تقام، فشاركت مضطراً في إعداد العدة لاستقبال الضيوف الغرباء عن الفرقة، من كبار الشخصيات، حتى اقترب موعد وصولهم فتركني الزبانية الأربعة كي أسرع إلى غرفتي فأغسل وجهي وأبدل ثيابي، ثم أعود قبل بدء الاحتفال.

وفيما أنا أصفف شعري أمام مرآتي الصغيرة، وقد تجردت إلا من ثيابي الداخلية.. دخل تابعي يحمل في يده خطاباً لي، في مظروف سميك أزرق .... ولم أكن في حاجة إلى تأمل الخط الذي كتب به اسمي عليه، كي أعرف شخصية كاتبه!

وهمس في أعماقي صوت محذر: "فيما بعد، ... لا تفضه الآن! لا تقرأه الآن!" .. لكني – رغم كل تحذير عقلي الواعي– فضضت الخطاب وقرأته! .. كان مؤلفاً من ست عشر صفحة، وقد كتب في عجلة ظاهرة، بيد مضطربة ... وهو من ذلك النوع الذي لا يكتبه المرء، أو يتلقاه، أكثر من مرة في حياته! ... كانت عباراته متلاحقة في استطراد فياض، لا تخللها فواصل أو نقط تقسمها إلى عبارات وفقرات ... وكأنها الدم يتدفق من جرح مفتوح! .. وبرغم مضي سنوات وسنوات على ذلك التاريخ، استطيع الآن أن أذكر كل سطر من ذلك الخطاب، بل كل حرف! .. استطيع أن أتلوه عن ظهر قلب، صفحة صفحة، من البداية إلى النهاية .. وذلك من كثرة ما قرأته واستعدته! .. حتى لقد بقيت شهوراً أحمله معي أينما كنت: في البيت، والمعسكر، والشارع، والقطار، وفي

الخنادق أثناء الحرب ... حتى أصيبت فرقتنا في إحدى المعارك بهزيمة منكرة، فاضطررت إلى تمزيقه– وقلبي يتمزق– خشية أن يقع في أيد غريبة! .. وكان نصه كما يلي:

"لقد كتبت إليك قبل الآن ستة خطابات، مزقتها كلها قبل أن أرسلها .. فإني لم أرد أن أطلق العنان لنفسي كي اكشف ستري، بل آثرت أن أكتم ما بي، ما بقيت لي قدرة على المقاومة! جاهدت أسابيع وأسابيع كي أخفي مشاعري عنك .. وفي كل مرة جئت فيها تزورنا في ود وبراءة، كنت أقهر يدي على أن تجمدا، ونظرتي على أن تظهر عدم المبالاة، حتى لا أزعجك! .. بل لقد عاملتك في بعض الأحيان بخشونة واحتقار، كي لا تخالجك أدنى شبهة في شيء مما أعانية من أجلك! .. حاولت كل ما في وسع كائن بشرى أن يفعله، وأكثر مما في وسعه .. لكن الواقعة وقعت اليوم، وأقسم لك أنها دهمتني برغم إرادتي، وفاجأتني على حين غرة. أنا نفسي لا أعرف كيف أمكن أدع شيئاً كهذا يحدث، حتى لقد كدت بعد حدوثه أن أضرب نفسي، عقاباً لها، من فرط الخجل اليأس الذي انتاباني! .. أنني اعلم يقينا مدى الجنون والحماقة في أن أفرض نفسي عليك .. فإن المخلوقة العرجاء الكسيحة، مثل، لا حق لها في أن تحب ... وهل يمكن أن أكون إلا عبئاً ثقيلاً عليك، أنا المحطمة التعسة التي ترى نفسها موضعاً للاشمئزاز والكراهية؟ .. وإذا كانت مخلوقة مثلي لا حق لها في أن تحب، فهي من باب أولى لا حق لها في أن يحبها أحد! .. وما يخلق بتا إلا أن تزحف بعيداً إلى ركن قصى لتموت، وتكف عن أن تثقل على الآخرين بوجودها! .. نعم، كل ذلك

أعرفه حق المعرفة، ولهذا أجدني في هذه الحياة روحاً ضائعة! .. وما كان ينبغي لي أن أجرؤ على أن ألقي بنسفي عليك، ولكن من سواك أدخل إلى قلبي الأمل في ألا أبقي روعي أن مقدوري أن أتحرك وأمشي، مثل غير من الناس .. مثل الملايين من البشر الذين لا يدركون أو يقدرون أن كل خطوة يخطونها على أرجلهم بلا عائق، إنما هي نعمة مباركة مجيدة! ..؟ وكانت قد صممت تصميها صارماً على أن ألوذ بالصمت، حتى تحل حقاً تلك اللحظة المرموقة التي أصير فيها مخلوقة بشرية حقه، يحتمل أن تكون جديرة بك أيها الحبيب .. لكني لهفتي، وظمئ إلى الشفا، بلغا من القوة– في تلك اللحظة التي انحنيت فيها على– بحيث اعتقدت حقاً وصدقا، بضمير خالص نقي، وغباء مطلق أحمق، أني قد شفيت، وصرت تلك المخلوقة الأخرى، الجديدة السليمة! .. ذلك لأني– كما تعلم– قد طالما أردت ذلك وحلمت به .. فلما لمستني، وشعرت بك قريباً مني في تلك اللحظة، كما لم تقتر مني من قبل، نسيت ساقي المهيضتين، لم أعد أشعر بنفسي ألا كما أردت أن أكون من أجلك! .. ألا تستطيع أن تفهم كيف ينسى الإنسان نفسه لحظة في حلم من أحلام اليقظة، إذا كان قد حلم به على التوالي دون غيره ليل نهار، عاماً بعد عام؟! .. صدقني أيها الحبيب، إن ذلك الوهم الأخرق بأني تحررت من عجزي، هو الذي صعد إلى رأسي فأثملني .. وأن شوقي الملهوف إلى أن أبقى كسيحة منبوذة، هما وحدهما اللذان جعلا قلبي ينساق معي في هذا الجنون .. فهلا فهمتني، لقد اشتقت إليك طويلا، شوقاً بدا كأن ليست له نهاية!

"لكنك الآن تعرف ما كان ينبغي ألا تعرفه إلا يوم استطيع أن أقف على قدمي .. وتعرف من هو ذلك الذي من أجله وجده– دون سواه من سكان هذه الأرض– أريد أن أشفي. أنه أنت وحدك لا سواك! فأغفر لي يا حبيب قلبي هذا الحب! .. وقبل كل شيء، استحلفك وأتوسل إليك إلا تخشاني أو تنفر مني! .. لا تحسب أني– لأني كنت معك يوما ملحاحه ملحفة– سوف أزعجك مرة أخرى، أو أحاول التشبث بك .. كلا! أقسم لك أنك لن تجدني يوما أفرض نفسي عليك، بل سأسعى جاهدة كي أخفى عنك مشاعر. ولست أبغي غير أن أنتظر، وأنتظر صابرة، حتى يرحمني الله فيشفيني. ومن ثم أتوسل إليك يا أعز الناس على ألا تخشي حبي، وأرجو ان تذكر– وأنت الذي أشفقت على كما لم يشفق على أحد قبلك– كم أنا عاجزة أبشع العجز، مقيدة إلى مقعدي، محرومة من القدرة على أن أخطو خطوة واحدة، بل من القدرة على أن أتبعك وأندفع وراءك حيثما تذهب! .. نعم أرجوا أن تذكر أني "سجينة" عليها أن تنتظر في سجنها في صبر نافذ، حتى تأتي أنت وتتفضل عليها بساعة من وقتك .. وتسمح لها بأن تنظر إليك وتسمع صوتك، وتعلم أنك تتنفس الهواء الذي تتنفسه هي، وتحس جودك قريباً منها .. إلى آخر مظاهرة السعادة التي منحتها إياها! .. أذكر كل هذا وصورة لنفسك. أذكر أني طالما انتظرتك نهاراً وليلاً، وكانت كل ساعة تمتد وتطول إلى ما لانهاية، حتى تثقل وطأة الانتظار على الأعصاب، ويصير عسير الاحتمال .. فإذا ما جاءت آخر الأمر، لم استطع أن أخف للقائك، أو أعانقك، واحتضنك، بل وجدت نفسي مضطرة إلى أن أبقي

في مكاني وأسيطر على شعوري، وألوذ بالصمت .. حذرة في كل كلمة أقولها، وكل نظرة أنظرها، وكل نبرة من صوتي، حتى لا ترتاب أنت في أني "اجترئ" على أن أحبك! .. ومع ذلك، أيها المحبوب، كنت قانعة بهذه السعادة المريرة المتواضعة ... وكنت أغبط نفسي كلما نجحت في كبت مشاعري .. وهكذا بقيت أنت حراً طليقاً، جاهلاً بحبي، غير مرتاب في شيء .. بينما كنت أنا أتعذب بسبب تورطي اليائس في الوقوع تحت تأثير سحرك!

"لكن المحظور قد وقع! .. ولم يعد في إمكاني الآن أن أنكر أو أخفى شعوري نحوك أيها المحبوب، فرجائي إليك ألا تقسو على! أن أحقر المخلوقات– كما تعلم– لها كبرياؤها، وأنا لن أتحمل أن تحتقرني لكوني عجزت عن قمع عاطفة قلبي!.. لكني– وأقسم بالله، القادر وحده على أن يضمد جراحي وينقذني– أنني لا أنتظر منك، أن تبادلني الحب، فلست أجرؤ على أن أتوقع منك ذلك، حتى ولا في أحلامي.. كما لا أبغي أيه تضحية من جانبك، أو شفقة!.. كل ما أسألك أياه إن تدعني أنتظر، في صمت، وألا تردني عند رداً عنيفاً حاسما!

"وأنا أعلم أن طلبي هذا قد يكون مغالاة من جانبي، وطمعا ولكن.. هل أنت حقا تستكثر على كائن بشري أن تمنحه هذه الجرعة التعسة من السعادة– التي يمنحها الإنسان راضياً لأي كلب!– سعادة النظر بين حين وآخر، في صمت ومذلة، إلى سيدة؟... وهل يلزم أن تدفعه بعيدا عنك في عنف، وتطرده بسوطك في احتقار؟!.. أن الشيء الذي لا طاقة

لي نفورك واشمئزازك منى، أو سبباً لعقابك لي– "فيكفي عقاباً لمثلي، هذا الخجل الذي استشعره من نفسي، وهذا اليأس الذي أعانيه!"– وإلا فلن يبقي لي، في هذه الحالة، غير مخرج واحد أنت تعرفه، لأني أريتك إياه!

"ولكن كلا، لا تنزعج فلست أريد أن أهددك، أو أخيفك، فانتزع منك الشفقة بدلاً من الحب! وإنما أريدك أن تشعر بأنك حر تماماً، لا يثقلك أي التزام. والله يعلم أني لا أبغي أن أثقل عليك بالعبء الذي أحمله، أو أحملك أثما أنت منه برئ... وإنما كل ما أطمع فيه هو أن تغفر لي ما حدث وتنساه، بل تنسي كل ما بحت لك به! أن كلمة واحدة منك تكفيني .. كلمة أفهم منها أنني لم أصبح كريهة في نظرك، ثقيلة عليك.. وإنك ستظل تأتي لزيارتنا، كأن شيئاً لم يحدث!.. إنك لا تتصور إلى أي مدى أخاف أن أفقدك.. فمنذ تلك اللحظة التي أغلقت فيها الباب خلفك، وأنا في فزع مروع من أن تكون تلك آخر مرة أراك فيها!.. أنك أنت شاحب الوجه، وفي عينيك نظرة رعب أثلجت أطرافي فجأة، وأنا في قمة نشوتي!.. وقد علمت أنك غادرت البيت على أثر ذلك– أخبرني بذلك جوزيف– قشعرت بأنك فررت منى، كما يفر الإنسان من وباء مخيف!.. ولكني لا ألومك أيها المحبوب!.. لأني أنا ذاتي أتراجع مذعورة من نفسي كلما رأيت الأثقال التي تنوء بها ساقاي، ثم لأني أعلم بشاعة الحالة التي أكون فيها حين تثور أعصابي! نعم، أنا أحق الناس بأن أفهم لماذا يفر الناس منى مذعورين!.. على أني برغم ذلك أتوسل إليك أن تصفح عني، فلا ليل لي ولا نهار بغيرك، وإنما يأس

مطبق!.. فلترسل إلى كلمة قصيرة تطمئنني، كلمة تكتبها على عجل، أو حتى ورقة بيضاء، أو زهرة، أو أي شيء أفهم منه أنك لن تنبذني، ولن تعافني نفسك! .. ولا تنسي أني في خلال بضعة أيام سوف أسافر لأغيب شهوراً، وبذلك يبلغ عذابك نهايته- وأن كان عذابي أنا سوف يتضاعف ألف مرة! – لكني استحلفك أن تفكر في نفسك فقط، كما أفكر أنا دائماً فيك وحدك! .. أنك في خلال أسبوع سوف يطلق سراحك، فتعال مرة أخرى .. زرنا كما كنت تفعل .. وفي انتظار ذلك، أرسل إلى كلمة عاجلة، أعطني إشارة مطمئنة.. فلست استطيع أن أفكر، أو أتنفس، أو أشعر، حتى أعلم أنك غفرت لي! .. ولن استطيع أن أعيش، إذا أنكرت على حقي في أن أحبك!".

***

قرأت الخطاب، وأعدت قراءته من البداية مرة ومرات، ويدي ترتعش، ونبضات قلبي تدق صدغي بقوة.. وقد نال منى الذعر، بل الفزع من هذا الغرام اليأس! .. وفجأة تنبهت على وقع يد ترتب على ظهري وكانت يد احد" الزبانية الأربعة" – زملائي في الفرقة- وقد لحظ تأخري فجاء يتعجل عودتي إلى الحفلة، وأبي أن يغادر الحجرة ألا وذراعي في ذراعه، بعد أن وضعت الخطاب في جيب سترتي العسكرية، لصق صدري.

ووصلنا في الموعد المناسب، قبل حضور الرؤساء وكبار المدعوين، وسرعان ما التأم الجمع حول مائدة العشاء الكبرى، وارتفع الضجيج والثرثرة وصخب حركة الكؤوس والأطباء والملاعق والسكاكين! .. وجلست صامتا وسط زملائي المرحين، أتحسس خلسة بين حين وآخر شيئا ينبض تحت سترتي، كقلب ثان، ويحدث مثل فرقعة النار التي أضرمت حديثا. نعم أنه هناك، يتحرك وينبض على صدري، ككائن حي! .. وفيما كان الآخرون منهمكين في طعامهم وشرابهم في مرح ونشوة، لم استطع أنا أن أفكر في غير الخطاب الراقد فوق قلبي، والصرخة اليائسة التي أطلقتها كاتبته فيه!

ولم آكل شيئا مما وضع أمامي. كنت كالنائم وعيناه مفتوحتان، وكانت أحاديث الجالسين إلى يمني ويساري تصل إلى سمعي دون أن أفهم كلمة منها، وكأنهم يتحدثون بلغة أجنبية!.. ورأيت أمامي وإلي جواري: وجوها، وشوارب، وعيونا، وأنوفاً، وشفاها، وسترات عسكرية... لكني رأيتها جميعاً في غير وضوح، كما ترى الأشياء من خلال واجهة زجاجية لمتجر .. كنت هناك بجسمي فقط، جالسا بغير حراك، بينما ذهني كله منصرف إلى ذلك الخطاب، وشفتاي تتمتمان فقرات من محتوياته، كما يتمتم العابد دعاء أو صلاة!

ثم وقف قائد الفرقة خطيبا، وبدأ يلقي خطابه المعد من قبل، فأصغيت له بانتباه، لكن وعي أبي أن يشترك في الإصغاء، فلم أسمع غير

عبارات متقطعة تدوي في فضاء القاعة: "شرف الجيش .. روح سلاح الفرسان النمسوي.. الإخلاص للفرقة.."

ولكني خلال ذلك سمعت همس كلمات أخرى ناعمة، متوسلة، كأنها آتية من عالم آخر: "يا حبيب قلبي لا تخف .. لن أقوى على العيش ذا أنكرت على حقي في أن أحبك! .." ثم يعود صوت القائد يدي: "لم ينس زملاءه الضباط القدامى .. من بعيد .. بلد آبائه .. النمسا وطنه" ومرة أخرى يهمس الصوت الآخر في شبه نشيج أو صرخة مختلفة "كل ما أرجوه أن تدعني أحبك.. كل ما أطلبه أن تطمئنني بكلمة عاجلة!".

وفجأة تذكرت أنها سألتني في خطابها أن أجيبها برسالة قصيرة. وقلت لنفسي: "أما ينبغي لي أن أبادر بالاتصال بها ..؟ وهل يليق أن يترك الإنسان شخصاً في مثل هذه الحالة من القلق؟ ... يجب أن أبعث إليها برسالة ما، يجب أن.."، وكان الخطيب قد جلس، وأعقبه زميل أخذ يلقى قصيدة فكهة، تلقاها الحاضرون بعاصفة من الضحك نهشت قلبي!.. كيف يضحكون هكذا وهناك شخص يئن أنين اليأس ويعاني عذاباً مروعا؟! كيف يطلقون نكاتهم الصاخبة في حين تحتضر نفس معذبة؟ .. ثم لا شك أنهم بعد هذا سيغنون ويضحكون، ويرقصون بغير حساب!" وفجأة شعرت بأني عاجز عن تحمل منظر أولئك الماجنين ذوى الوجوه فانتهزت فرصة تصفيقهم للزميل، وتسللت خارجا في هدوء دون أن يلحظ خروجي احد من الزملاء. أخيراً سوف انفرد بنفسي!

وحين بلغت غرفتي ألقيت قبعتي وسيفي، ثم أضأت المصباح واتجهت إلى المنضدة كي أقرأ مرة أخرى– في جو من الهدوء التام– ذلك الخطاب المفجع، أول خطاب تلقيته– أنا الشاب الساذج– من امرأة! ولم أكد اقتراب من المنضدة حتى أجفلت، إذ لمحت فوقها وسط دائه الضوء التي يلقيها المصباح، ذلك المظروف الأزرق الذي كان فيه الخطاب، فأخذتني الدهشة لوجوده هناك، مع علمي بأنه في جيب سترتي! .. وساءلت نفسي: كيف يمكن هذا؟ هل أنا ثمل، أو نائم أحلم؟ أم هل فقدت وعي؟ ألم اسمع قرقعة الخطاب في مخبئة بالسترة وأنا أخلعها منذ لحظة فقط؟ .. وذهبت أفتش في جيب السترة.. فإذا الخطاب في مكانه! وعندئذ فقط أدركت جلية الأمر: أن هذا الخطاب الذي فوق المنضدة .. هو خطاب" آخر" منها!

نعم: خطاب آخر منها، في خلال ساعتين!.. وشعرت بأن حلقي جف، غضباً وغيظاً ! إذن فسوف يتكرر ذلك، كل يوم، وكل ليلة! خطاب في أثر خطاب.. ولو رديت على خطابها فسوف تلاحقني بخطاب ثالث! وهكذا لن تفتأ تطلب مني شيئا كل يوم .. ولسوف تلاحقني. بالرسائل، والتليفون، والجواسيس الذي يتعقبون خطواتي، وحركاتي وسكناتي! إنها لن تدعني في راحة بعد الآن، لن استرد حريتي من هؤلاء القوم الجشعين الأنانين حتى يهلك أحدنا– هي أو أنا– صحية هذه العاطفة العقيمة المدمرة!.. وحدثتني نفسي بألا أفض خطابها الجديد إلا في الصباح، إذ لم تبق لي قوة تتحمل الشد والجذب اللذان يمزقان قلبي... وخير لي أن

أمزق الخطاب أو أرده إليها دون أن أفتحه! .. إلى الجحيم يا آل كيكسفالفا جميعا!

وسرعان ما خطر ببالي احتمال أن تكون الفتاة قد فعلت بنفسها مكروها حين لم تصلها كلمة مني! .. فمزقت المظروف بحركة عصبية عنيفة، وحمدت الله إذا وجدته خطابا قصيرا: ورقة واحدة فيها عشرة سطور فقط، تقول فيها: مزق خطابي السابق فوراً.. لقد كنت مجنونة، مجنونة تماما! كل ما كتبته لم يكن صحيحاً، فلا تحضر لزيارتنا غداً.. أروج ألا تحضر. يجب أن أعاقب نفسي لكوني أذللت شخصي لك على تلك الصورة الفظيعة.. من أجل ذلك لا تحضر غداً بأية حالة، لا أريدك أن تأتي، بل أمنعك .. ولا ترسل أي رد مزق خطابي السابق دون إبطاء، وانس كل كلمة فيه. ولا تفكر فيه بعدا الآن!".

وساءلت نفسي: "كيف لا أفكر فيه؟! .. يا له من مطلب صبياني!... هل لإرادة المرء دخل في مثل هذا الحال؟... وكيف لا أفكر فيه وأفكاري تتلاحق حوله كجياد ضارية تركض في المسافة الضيقة بين صدغني؟ كيف لا أفكر فيه وذاكرتي المحمومة تلقي صورة بعد صورة منه على شاشة ذهني؟ وكلماته الملتهبة قد وسم بتا وعي كما يوسم اللحم بميسم من نار؟

بل كيف لا أفكر فيه وأنا لا استطيع أن أفكر إلا فيه، وفي البحث عن وسيلة للفرار.. للمقاومة .. لإنقاذ نفسيي من هذه اللجاجة النهمة،

من هذه العاطفة المتطرفة غير المرغوب فيها؟! .. لا أفكر فيه؟.. ليتني استطيع ذلك. وقمت فأطفأت النور، بزعم أن النور يسبغ على الأفكار مزيداً من الحدة والعنف، ويجعلها أقرب إلى الوقائع...وحاولت أن أناي بنفسي بعيداً، أن أختبئ في الظلام.. ونزعت الثياب عن جسدي كي أتنفس بسهولة أكثر، وألقيت نفسي على فراشي، محاولاً أن أخمد كل مشاعري.. كلن الأفكار لا تهدأ هكذا بمجرد الرغبة في التخلص منها، وإنما تنطلق في اضطراب– كالخفافيش! بين جدران الذهن المتعب الكليل، وتقرض الأعصاب كالجرذان المتوحشة!.. وكلما جمدت في الفراش بلا حراك، ازدادت هي حركة وثورة وهياجا! .. وهكذا اضطررت إلى أن أنهض فأضيء النور من جديد كي اطرد الأشباح، لكن أول ما وقع عليها ضياء المصباح كان ذلك المظروف الأزرق لخطابها، والسترة التي سكبت عليها الشاي بالأمس ... كل شيء يذكرني ويوبخني! كيف لا أفكر في الخطاب؟ نعم أنا نفسي لا أريد أن أفكر فيه، لكن هذا يخرج عن نطاق قدرتي! .. وهكذا رحت أذرع الحجرة ذهابا وجيئة، وأفتح خزانتي، ثم إدراجها، واحداً بعد الآخر، حتى عثرت على قارورة الدواء المنوم، فتناولت منها جرعة ثم عدت أدراجي إلى الفراش... ولكن لا مفر ولا مهرب!.. فإن الأفكار السوداء، تلك الفيران القلقة التي تفرض النعاس في مخي، تسللت حتى إلى أحلامي!

وحين استيقظت في الصباح، أحسست كأن خفاشاً من تلك الخفافيش قد أفرغ مخي، وجفف مادة رأسي!.. وكنت أعلم أن من أحسن وسائل العزاء والسلوان في مثل هذه الحال أن يمضى المرء إلى

أداء عمل محتوم، وعلى هذا غادرت غرفتي لكي امتطى صهوة جوادي وأخرج إلى الخلاء على رأس سريتي، كي أتلقى الأوامر، وأصدر الأوامر، فأفر من نفسي ومن أفكاري ثلاث ساعات، أو أربع!.. وفي البداية، سار كل شيء على ما يرام. كان اليوم لحسن الحظ حافلاً بالعمل، استعداداً للمناورات وكان نصيبنا من التحضير لها يومئذ يقتضي كل ضابط مزيداً من الانتباه وتركيز الفكر في مراقبة كل جندي من جنود السرية، بحيث أنساني ذلك كل شيء عداه. حتى حانت فترة العشر دقائق التي تمنح للجياد كي تسترد أنفاسها وتستريح، فحامت نظرتي حول الأفق الممتد أمامي وراء الحقول الشاسعة.. وإذا أنا ألمح على حين غرة برجا عاليا هو برج قصير كيكسفالفا، ولاحت لي شرفته التي تجلس فيها أديث كل أصيل.. وهنا أحسست حافزاً لا يقاوم يدفعني إلى التفكير فيها: الساعة الآن الثامنة، الساعة التي تستيقظ فيها ... لتفكر في!... لعلها الآن تحدث أهلها عني، وتستفسر منهم هل أرسلت إليها ردا؟ .. أو ربما تكون قد صعدت إلى الشرفة واتكأت على سورها لتطل على كما أرنو بنظرتي إليها! وانتهت فترة الاستراحة وعادت الأوامر تتطاير من أفواه الضباط هنا وهناك، ومختلف وحدات السرية تنفذ "التحركات" المرسومة بدقة، والجياد تركض براكبيها فتتجمع وتتفرق حسبما توجهها أعنتها.. ولكني وأن استأنفت القاء الأوامر لجنودي، إلا أن أفكاري كانت في واد آخر بعيد.. كنت في أعماق وعي وخبايا ذهني أفكر في ذلك الشيء الذي أردت وأرادتني الفتاة– ألا أفكر فيه!

وأقبل قائد الفرقة يركض بجواده، وقد احتقن وجهه وراح يسب ويضخب!.. لابد أن ضابطاً قد أصدر أمراً خاطئاً، فإن طابورين كان مفروضا أن يلتقيا ليؤلفا فيلقا واحداً، قد اصطدما.. فجمحت بعض الجياد، وأجفل بعضها الآخر، وسقط جندي تحت الحوافر، وساد الاضطراب والهرج وقعقعة السلاح صفوف الطابورين، كما لو كانت قد نشبت معركة حقيقية! وحين أقبل بعض الرؤساء لتدارك الأمر، اقتاضاهم ذلك بعض الوقت كي يعاد النظام إلى الميدان.. وعندئذ ساد صمت مطبق، وأقبل القائد على جواده فتوسط المكان، واحتبست الأنفاس في انتظار مؤاخذة المسئول.. وفجأة ارتفع صوت القائد، حاداً كالسيف، منادياً: الملازم هو فميلر!".

عندئذ فقط أدركت أنني ذلك المسئول، وأنني أصدرت الأمر الخاطئ، أثناء تشتت أفكاري!.. ولم يكن بد من مواجهة الموقف المخزي، فلكزت بركبتي جوادي وتقدمت الصفوف نحو مكان القائد، تحوطني نظرات أصدقائي المشفقة الحائرة .. وساد سكون أشبه بسكون الموت الذي يسبق تنفيذ حكم الإعدام !.. كان الكل يعرفون مقدما ما تدخره لي الدقائق التالية!

ويحسن إلا أذكر نفسي بما حدث على أثر ذلك، وبعبارات التقريع التي انهالت على من فم القائد في مثل هدير الموج، وقد شعرت بمئات النظرات المستهزئة تثقب ظهري، والرجل ماضي في حملته القاسية التي لم يتعرض ضابط منا لمثلها منذ شهور! وارتعشت يداي الممسكتان

بعنان الجواد، من فرط شعوري بالذلة، ووددت أو أنطلق بجوادي فارا من الميدان، وبرغم ذلك اضطررت إلى أن أبقي في مكاني بلا حراك، دون أن تختلج عضلة واحدة في وجهي.. حتى أنهى الرجل مهمته وأصدر أمره للجنود بالتفرق.. وعندئذ كان على أن أرفع يدى بالتحية العسكرية قبل أن ألوى عنان جوادي عائداً إلى مكاني، وقد اطرق زملائي بأنظارهم خجلاً مني– أو هكذا خيل إلى وقتئذ!– وانتهز صديقي"فيرنز" فرصة مروره بجواري أثناء تفرقنا، فهمس لي مشجعا: لا تلق بألا إلى الأمر.. إن ذلك قد يحدث لأي واحد منا. لكني صحت به في جفاء: هل لك أن تهتم بشؤونك الخاصة؟".

... وفي تلك اللحظة أدركت، لأول مرة، كيف تكون الشفقة التي تنقصها اللباقة جارحة موجعة.. أدركت ذلك الأول مرة، ولكن بعد فوات الأوان!.

الفصل الثاني عشر

رغبة في الفرار!

"ألا يئست هذه الحال!" ... ذلك ما كنت أحدث به نفسي وأنا أخب بجوادي عائداً من ميدا التدريب! وددت لو استطيع الرحيل بعيداً، إلى مكان لا يعرفني فيه أحد، لكي أفر بعيداً من هذا الجو الكرية، ولا أدع أحد يذلني بعد الآن! ولازمتني هذه الفكرة، وكأنما صارت نغماً يصاحب وقع حوافر جوادي أثناء المسير.. فلما بلغت المعسكر سلمت زمام الجواد لأحد الجنود وسارعت إلى الخروج، معتزما ألا أتغذى في مطعم الضباط، حتى لا أدع مجالاً لأحد كي يهزأ بي أو يرثي لحالي!.. لكني لم أكن أدرى إلى أين أذهب؟!.. لم تكن أمامي خطة معينة أو هدف مرسوم، سوى أن أفر بعيداً من المعسكر، والبلدة كلها.. لقد غدا موقفي حرجاً في محيط عملي في المعسكر، وفي محيط صلتي بأسرة كيكسفالفا!.. وهكذا مضيت في طريقي على مغير هدى، متعدا عن المعسكر .. وفجأة سمعت صوتا يناديني بلهجة ودية، من الجانب الآخر للطريق، ولما التفت لأتبين صاحب النداء، وجدت رجلاً في ثياب مدنية يشير للي، وهو وواقف بجانب سيارة معطلة، رقد تحتها عاملان ميكانيكيان يصلحان ما بتا. وكان ذلك الرجل هو "بالنكاي، زميلنا القديم!

وأقبل على مرحبا!.. و لم أكد ألمس في نظرته وتحيته فرحة الصديق المخلص، حتى ومضت في ذهني فكرة أن التمس مساعدته وسرعان ما توالت على مخيلتي الخ واطر المتسلسلة في أقل من ثانية: ها هو ذا ضابط قد ترك الجيش وصار سيد نفسه، ولقد مر بمرحلة مشابهة، وهو يمد يد المساعدة لكل من ينشدها من زملائه القدامى وأقربائه، فلم لا يعينني في محنتي؟ .. وسرعان ما حزمت شجاعتي وسألته:" أتستطيع أن تمنحني خمس دقائق من وقتك؟" .. قبل مرحباً، وقادني إلى غرفته.. وهناك صارحته برغبتي في ترك الجيش لأسباب لا محل للخوض فيها، وسألته: "هل في وسعك أن تجد لي عملاً مناسباً في إحدى شركاتك ومؤسساتك؟".

وبغت بالنكاي لقراري المفاجئ، وراح يحدثني عن عواقب قدامي على هذه الخطو الطائشة، وعن المصاعب التي صادفته، والمذلة التي عاناها بعد تركه الخدمة العسكرية، حتى قيضت له المقادير صفقة زواجه من الأرملة الثرية، وهي صفقة لا تتاح لشخص من بين كل ألف شخص!.. ثم صارحني بأنه حين تعرف إلى زوجته– في أحد فنادق القاهرة!.. لم يكن سائحاً موقراً من نزلاء الفندق، بل كان ساقيا ذليلاً، في مرتبة الخدم!.. وحين أفرغ "بالنكاي" ما في جعبته من النصائح، وجدني ما أزال على إصراري وحينئذ ذكر لي أنه بعد أن أراح ضميره من مسئوليته تشجيعي على الخطوة الخطيرة التي اعتزمت اتخاذها بصدد مستقبلي، يقبل عن طيب خاطر أن يطالب زوجته بإيجاد عمل لي في إحدى مؤسساتها، لكنه لا يستطيع أن يعدني بغير عمل تافه في البداية،

على أن ارتقي السلم تدريجاً بكفاءتي، لا أن أقفز فوق أكتاف بفضل صداقته لي!

وقبلت شروطه العادلة، فأخذني في سيارة إلى فيينا" كي يعرض الأمر على زوجته، وأنا في شبه ذهول من تطور المرور بهذه السرعة، وانقلاب حياتي ومستقبلي هكذا رأسا على عقب في أقل من ساعة!.. وحين وصلنا إلى الفندق الذي تقيم به زوجته في العاصمة، تركني في الردهة وصعد إلى غرفتها كي يتحدث إليها في المر... ثم عاد إلى بعد دقائق باسم الوجه، يبشرني بان زوجته اختارت لي عملاً مبدئياً على إحدى سفنها، هو أن أكون مساعداً لأمين حسابات السفينة، كي أتعلم، اللغات اللازمة وأقف على سير الأعمال في جزر الهند الشرقية الهولندية، حيث مقر مزارعها وأملاكها الشاسعة.. وعندئذ يصبح في الإمكان أن تسند إلى عملا أهم، في أحد المراكز الثابتة.. ثم ختم بالنكاي" كلامه مكرراً لي نصيحته بأن أعدل عن قراري الطائش وأبقي في الاتجاه الذي رسمته الأقدار لمستقبلي ... وترك لي الخيار في تسلم عملي الجديد في أي يوم أشاء!.. وهكذا لم يبق أمامي غير إجراء واحد بسيط هو أن اكتب استقالتي من الخدمة العسكرية وأسلمها إلى الرئيس المختص.. وبعد ذلك أعدو حراً، وفي الوقت نفسه أكون قد نجوت!

والآن، استطيع أن أذكر بوضوح أدق تفاصيل ما حدث في الدقائق التالية لتوديعي لصديقي بالنكاي في تلك الأمسية:

لقد اتجهت إلى أقرب حانوت سجاير، فابتعت ورقتين من الأوراق المدموغة المخصصة للمكاتبات الرسمية، ومظروفاً مناسبا، ثم عرجت على أقر مقهى- ومقاهي "فيننا" هي المكان المختار الذي تتم فيه أخطر الأعمال وأتفهمها- فجلست إلى مائدة رخامية مستديرة إلى جوار نافذة، وشرعت أكتب بخط جميل، وفي شيء من العناية- الصيغة الرسمية للاستقالة، وأنا أتخيل رد الفعل سوف يحدث وصول خطاب الاستقالة إلى قائد الفرقة، وبين زملائي الضباط، الذي سيعجبون جميعاً، ولاشك بنخوتي وآبائي قبول الضميم، والاستكانة للمذلة والتحقير!.. وشعرت إذ ذاك يكثر من الزهو، فقد كانت تلك أول مرة في حياتي تتاح لي فيها فرصة الظهور لزملائي في مظهر الرجل المعتز بكرامته!.. والزهو من أقوى الدوافع التي تغري ذوى الطبيعة الضعيفة بالإقدام على أي عمل يظهرهم في مظهر الأقوياء الشجعان الحازمين!

وحين فرغت من كتابة العشرين سطراً التي تتألف منها صيغة الاستقالة التقليدية، وقعت عليها، ثم نظرت إلى ساعة المقهى فإذا هي تشير إلى انتصاف الساعة السادسة، قلقت لنفسي وقد شعرت بأن حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهلي: فلأدفع الحساب للساقي، ثم أخرج لأتمشى قليلا- ولآخرة مرة!- بسترتي العسكرية، في شوارع فيينا، وبعد ذلك استقل قطار المساء إلى حيث تعسكر فرقتنا، وفي الصباح أسلم الاستقالة لرئيسي.. وبذلك تبدأ صفحة جديد في حياتي ومستقبلي!".

وتناولت الورقة فطويتها، مرة، ثم مرة، كي أضعها في جيب سترتي، وهنا حدث شيء عجيب، إذا اصطدمت الورقة بشيء في جيبي، فلما مددت أصابعي أتحسس ما يعوق دخولها.. إذا أصابعي تجفل متراجعة، كأنما أدركت قبل علقي ماهية الأوراق المنسية في جيبي: أنها خطاب "أديث"، بل خطاباها اللذان أرسلتهما إلى أمس!.

ولست استطيع وصف المشاعر التي تقاذفنني عند ذاك- والتي كانت تمت إلى الخجل أكثر مما تمت إلى الفزع!- ففي تلك اللحظة انجابت عن إدراكي السحابة التي كانت تحجب عنى الحقائق، فتبينت زيف كل الأفعال والأفكار والمشاعر التي اكتنفت حياتي في الساعات الأخيرة، بما فيها حنقي على لوم القائد لي، وزهوي بمشروع تركي خدمة الجيش!.. وتبينت أن الحافز الأول إلى تفكيري ذلك لم يكن ثورة رئيسي على- فهي تحدث للواحد منا أو للآخر كل بضعة أيام- بل كان رغبتي في الفرار من وجه أسرة كيكسفالفا، أو بالأحرى الفرار من مسئولياتي!.. وكما ينسي المريض- بمرض قالت- عذاب مرضه الأصلي، مؤقتا، إذ إصابة ألم عارض في أسنانه مثلا، نسيت أنا- أو حاولت أن أنسى عذابي المتأصل الذي يغريني بالفرار كالجبان، وتوهمت أن ذلك الحادث التافه الذي وقع لي أثناء عملي هو الدافع لي على الاستقالة، ذاهلا عن أن استقالتي لن تعد عملاً من أعمال إحدى سفنها، هو أن أكون مساعداً لأمين حسابات السفينة، كي أتعلم اللغات اللازمة وأقف على سير الأعمال في جزر الهند الشرقية الهولندية، حيث مقر مزارعها وأملاكها الشاسعة... وعندئذ يصبح في الإمكان أن تسند إلى

عملاً أهم، في احد المراكز الثابتة.. ثم ختم "بالنكاي" كلامه مكرراً لي نصيحته بأن أعدل عن قراري الطائش وأبقي في الاتجاه الذي رسمته الأقدار لمستقبلي.. وترك لي الخيار في تسلم عملي الجديد في أي يوم أشاء!.. وهكذا لم يبقي أمامي غير إجراء واحد بسيط هو أن أكتب استقالتي من الخدمة العسكرية وأسلمها إلى الرئيس المختص.. وبعد ذلك أغدو حرا، وفي الوقت نفسه أكون قد نجوت!

والآن، استطيع أن أذكر بوضوح أدق تفاصيل ما حدث في الدقائق التالية لتوديعي لصديقي بالنكاي في تلك الأمسية: لقد اتجهت إلى أقرب حانوت سجاير، فاتبعت ورقتين من الأوراق المدموغة المخصصة للمكاتبات الرسمية، ومظروفاً مناسباً، ثم عرجت على أقرب مقهى- ومقاهي "فيينا" هي المكان المختار الذي تتم فيه أخطر الأعمال وأتفهمها- فجلست إلى مائدة رخامية مستديرة إلى جوار نافذة، وشرعت أكتب بخط جميل، وفي شيء من العناية- الصيغة الرسمية للاستقالة، وأنا أتخيل رد الفعل الذي سوف يحدث وصول خطاب الاستقالة إلى قائد الفرقة، وبين زملائي الضباط، الذي سيعجبون جميعاً ولاشك بنخوتي وآبائي قبول الضميم، والاستكانة للمذلة والتحقير! وشعر إذ ذاك بكثير من الزهو، فقد كانت تلك أول مرة في حياتي تتاح لي فيها فرصة الظهور لزملائي في مظهر الرجل المعتز، بكرامته!.. والزهو من أقوى الدوافع التي تغري ذوي الطبيعة الضعيفة بالإقدام على أي عمل يظهرهم في مظهر الأقوياء الشجعان الحازمين!

وحين فرغت من كتابة العشرين سطرا التي تتألف منها صيغة الاستقالة التقليدية، وقعت عليها، ثم نظرت إلى ساعة المقهى فإذا هي تشير إلى انتصاف الساعة السادسة، فقلت لنفسي وقد شعرت بأن حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهلي: "فلأدفع الحساب للساقي، ثم أخرج فأتمشى قليلاً، ولآخر مرة!.. بسترتي ا لعسكرية، في شوارع فيينا، وبعد ذلك استقل قطار المساء إلى حيث تعسكر فرقتنا، وفي الصباح أسلم الاستقالة لرئيسي وبذلك تبدأ صفحة جديدة في حياتي ومستقبلي!". وتناولت الورقة فطويتها، مرة، ثم مرة، كي أضعها في جيب سترتي، وهنا حدث شيء عجيب، إذا اصطدمت الورقة بشيء في جيبي، فلما مددت أصابعي أتحسس ما يعوق دخولها. إذا أصابعي تجفل متراجعة، كأنما أدركت قبل علقي ماهية الأوراق المنسية في جيبي: أنها خطاب "أديث"، بل خطاباها اللذان أرسلتهما إلي أمس!.

ولست استطيع وصف المشاعر التي تقاذفتني عند ذاك– والتي كانت تمت إلى الخجل أكثر مما تمت إلى الفزع!– ففي تلك اللحظة انجابت عن إدراكي السحابة التي كانت تحجب عنى الحقائق، فتبينت زيف كل الأفعال والأفكار والمشاعر التي اكتنفت حياتي في الساعات الأخيرة، بما فيها حنفي على لوم القائد لي، وزهوي بمشروع تركي خدمة الجيش!.. وتبينت أن الحافز الأول إلى تفكيري ذلك لم يكن ثورة رئيسي على– فهي تحدث للواحد منا أو للآخر كل بضعة أيام– بل كان رغبتي في الفرار من وجه أسرة كيكسفالفا، أو بالأحرى الفرار من مسئولياتي!.. وكما ينسي المريض– بمرض قالت– عذاب مرضه

الأصلي، مؤقتا، إذ إصابة ألم عارض في أسنانه مثلا، نسيت أنا– أو حاولت أن أنسى عذابي المتأصل الذي يغريني بالفرار كالجبان، وتوهمت أن ذلك الحادث التافه الذي وقع لي أثناء عملي هو الدافع لي على الاستقالة، ذاهلا عن أن استقالتي لن تعد عملاً من أعمال البطولة أو الاعتزاز بالشرف، كما توهمت، بل هي ليست إلا فرارا حقيراً من مواجهة عواقب حماقاتي!.. لكن الأنسان متى اعتزم امر، يصعب عليه أن يعدل عنه، وهكذا وجدت من العسير على بعد أن كتبت استقالتي أن أرجع فيها، فجعلت التمس لنفسي الأعذار التي تبرر مضي في طريقي، والتخلص من كيكسفالفا وابنته: وما ذنبي إذا أحبتني امرأة غريبة على هذا النحو؟ .. إبهام بملايينها الطائلة تستطيع أن تجد شخصاً آخر تحبه، وإذا لم لم تجد فليس هذا شأني...يكفي أني سأهجر عملي وأغامر بمستقبلي من أجلها!.. ثم ما صليت أنا بهذه التخمينات الهيسترية عما إذا كانت ستشفي من دائها أم لا؟ إلا سحقاً لكل ذلك.. وهل أنا طبيب؟

وإنما ذكرتني كلمة "طبيب" بالدكتور "كوندور"! أنها مهمته هو لا مهمتي أنا، وتلك الفتاة الكسيحة مريضته لا مريضتي! فليحصد إذن ثمرة ما زرع ولأذهب إليه فوراً لا خطره بأن نفضت يدي من المسألة كلها!..

ونظرت إلى الساعة فإذا هي لم تبلغ السابعة بعد، بينما القطار لا يتحرك قبل العاشرة... فأمامي إذن متسع من الوقت!.. لكن أين يقطن هو؟... لابد أن عنوانه مسجل في دليل التليفون .. وسرعان ما هرعت إلى الدليل وأخذت أقلب صفحاته على عجل:.. يا ..يو... كا...

كو....كوندور.. كوندور أنتون "تاجر" .. كوندور أميرمتشن "طبيب" شارع فلوريانيجاس رقم ٩٧" ولم يكن بالدليل طبيب آخر بهذا الاسم. وإذن فلابد أنه هو صاحب هذا العنوان!.

وركبت أول سيارة أجرة صادفتها وذكرت العنوان للسائق، وبعد دقائق كانت السيارة تتأهب للوقوف.. ترى هل أخطأ السائق أم أخطأت أنا في ذكر العنوان؟ هل يعقل أن يقطن طبيب مثل كنوندور في حي حقير قذر مثل هذا؟ إنه يتقاضى من كيكسفالفا وحده ولاشك مكافآت ضخمة...ولكن شكوكي تبخرت حين قرأت لافته الطبيب على الباب، فنفذت السائق، أجره وصعدت سلما قذراً معتماً تآكلت درجاته وتصاعدت روائح الأطعمة الرخيصة من المطابخ المطلة عليه، حتى بلغت الطابق الثالث الذي يقطنه صاحبنا، وأنام أرثي لحالة حقا!

ولم يكن قد عاد من الخارج بعد، فأجلستني الخادم في حجرة انتظار تواضعه، تنم عن فقر طبقة المرض الذين أعدت لهم- وبعد حين سمعت خطوات تقترب في حذر، ثم رأيت مقبض الباب يتحرك ببطء- كأن الذي يفتحه لص!- وهتف صوت من ورائه: هل يوجد أحد هنا؟" ومات الجواب على شفتي، فقد رأيت امرأة عمياء تتقدم نحوى وتذكرت فوراً ما قاله لي كيكسفالفا عن زواج كوندور من مريضته التي عجز عن شفائها من عماها!... ولكن، يا إلهي! أبهذا القبح هي؟ له الله ذلك المسكين! وأجبتها وأنا انحنى لها تأدباً دون وعي، كأنما هي تراني: أني انتظر الدكتور كوندور" فقالت في استياء ظاهر: إن ساعات الاستشارة قد

انتهت منذ الساعة الرابعة. ولابد لزوجي حين يعود من أن يتعشى ويستريح.. هل لك أن تأتي غدا؟".

وتذكرت ما قاله كيكسفالفا عن حدة المرأة وسوء طباعها، فرأيت ألا استفزها، وقلت لها: الواقع أني لا أريد استشارة الدكتور في هذه الساعة المتأخرة. وإنما أردت أن أقول له بضع كلمات في شأن إحدى مريضاته!". وإذ ذاك انفجرت المرأة صائحة.. مريضاته؟ مرضاه؟... دائما هكذا؟! في الليل الماضية أيقظوه في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ثم في السابعة صباحا!.. وها هو ذا ما يزال في الخارج حتى الساعة ! إنه سوف يمرض يوما، نتيجة لهذا الإجهاد. أما ترحمونه؟ سوف يمرض يوما، نتيجة لهذا الإجهاد. أما ترحمونه، أما تدعونه في سلام؟ ألا تستطيع أن تأتي غداً، أو تذهب إلى طبيب آخر؟.. أتسمعني، أخرج.. أخرج حالاً.. دعه يأكل وينام مثل بقية الناس!.. وتقدمت المرأة نحو، مادة قبضتيها في وجهي كأنما تود أن تخنقني وفي تلك اللحظة سمعنا صوت الباب الخارجي يفتح، فتغير وجه المرأة في الحال، وبدأت ترتجف من رأسها إلى قدمها.. ثم ضمت يدها في حركة توسل، وهمست لي مستعطفه "بربك لا تثقل عليه. لابد أنه متعب الآن... ضع نفسك مكانه .. أشفق عليه!".

وفتح باب الحجرة، ودخل الدكتور كوندور، وسعران ما أدرك الموقف، فقال في صوته الرقيق الذي يخفى في العادة انفعالاته العنيفة: "أوه! أري أنك كنت ترحبين بسيدي الملازم... كم هو لطيف منك ذلك

يا كلارا!" واتجه إلى زوجته العمياء فربت على كنفها في رفق الآن ملامح وجهها، فقالت معتذرة في خجل:" عفوا، ولكن كان لابد أن أصارح هذا السيد بأنك في حاجة إلي أن تتناول عشاءك حالا، فإنك ولاشك جوعان... وقد ذكرت له أنه يحسن صنعاً لو حضر غدا...".

فقطع كوندور كلامها ضاحكاً وقال: "لقد أخطأت هذه المرة، فليس الملازم هو فميلر مريضا، بل هو صديق طالما وعدني بأن يحضر لزيارتي، وعمله لا يتيح له الحضور إلا في الليل. ولكن دعينا من هذا، فالشيء المهم الآن هو: عل عندك عشاء لنا؟".. فتدخلت أنا في الحديث قائلاً: "شكراً! أنني لن استطيع البقاء، لأن على أن أسافر بقطار الساعة العاشرة.. ولن يستغرق حديثنا أكثر من دقائق!" ولكن الطبيب رأي- إرضاء لزوجته، وتخلصا من إلحاحها وإزعاجها لنا- أن يتناول عشاءه معها أولا، كي يفرغ للحديث معي بعد ذلك. ونصح لي بأن انتهز تلك الفرصة فأضجع على أريكة في الحجرة كي أريح جسمي من أثر الإجهاد الذي يبدو واضحاً على وجهي! وكان مصيبا، وأن لم أتنبه إنا لمدى تعبي إلا بعد أن تمددت على الأريكة، وأطفأ هو لي النور... ويبدو أنني أغفيت، فإني لم أشعر إلا ويده على كتفي، بعد أن عاد إلى الحجرة عقب تناول العشاء. وإذا حاولت أن أنهض، قال لي محتجا: أبق حيث أنت، وسآتي أنا لأجلس بجانبك أن الحديث في الظلام أيسر وأفضل، وكل ما أرجوه منك أن تخفض صوتك، فليس أحد من حاسة السمع عند فاقدي البصر!.. والآن، صارحني بما عندك ولا تخجل، فقد أدركت لأول وهلة أن عندك جديدا!".

ولعل الظلمة أذابت قدرتي على المكر والتكلف، وعزمي السابق على إخفاء بعض الحقائق، فوجدتني أصارحه بكل شيء: بثورة أديث المفاجئة.. وانهيارها.. وعناقها المحموم ... وانزعاجي أنا، وخوفي، ونفوري!... فأنصت الطبيب للقصة صامتاً، وحين فرغت منها قال: "إذن فهذا كان سر ما اعترى الفتاة من تغير؟ ... يا لغبائي! كيف لم استنتجه في حينه؟ لقد ارتبت في أن تكون لهفة أديث المفاجئة على الشفاء نتيجة تدخل طبيب آخر في العلاج، لكن لم أفكر في أكثر الاحتمالات بساطة وتمشياً مع المنطق: وهو أن الفتاة تمر ب السن الطبيعية الملائمة للوقوع في الحب!... لكن أسوأ ما في الأمر أن يحدث ذلك في هذا الوقت بالذات، وبمثل هذا العنف!.. يا للفتاة المسكينة!.. أنها لن تقنع الآن بأي تحسن طفيف في حالتها، لن تقنع بغير الشفاء التام.... يا إلهي، أية مسئولية رهيبة قد أخذناها على عاتقنا!".

فقلت وقد تولاني حنق مفاجئ على الأقدار التي ورطتني في هذه المحنة: "أنا من رأيك: ينبغي أن نضع حداً لهذا الجنون في الوقت المناسب! يجب أن تكون حازماً معها، وأن تقول لها: أن عاطفتها هذه ليست إلا حماقة صبيانية!... نعم، يجب أن تقنعها بالإقلاع عنها!" .. فقال ساخراً: "أقنعها بالإقلاع عنها؟. ما هذا الذي تقول؟! أأقنع امرأة بالإقلاع عن الحب؟ بأن لا تحس شيئاً، تحسه هي بالفعل؟.. هل سمعت يوما أن المنطق يقوى على العاطفة؟ أو سمعت أن شخصاً استطاع أن يقول للحمي: "أيتها الحمي، تراجعي!" أو يقول للنار" أيتها النار انطفئي!". .. أو تريدني أن أقول لفتاه كسيحة مقعدة: "لا يدورن في

خلدك أن في وسعك أن تحبي مثل بقية الناس، فإنها لو قاحة منك وأنت مشلولة أن تظهري شعوراً ما نحو أحد، وتنتظري من أحد أن يظهر شعورك نحوك!.. وما على مثلك إلا أن تنزوي في ركن قصي، وتهجر كل أمل في الحب!". .. أهذا ما تريدني أن أقوله للفتاه" وهل فكرت في النتيجة الرائعة التي تترتب على مثل هذه الخطوة؟ .. ولماذا تطالبني أنا بأن أقول لها ذلك؟!".

فأجبته: "لأني لا استطيع أن أقوله لها!".

فقال: "نعم، أنت لا تستطيع، وينبغي ألا تفعل... ينبغي ألا تظهر للمسكينة– سواء بالقول أو الإشارة– أن شغفها بك يضايقك، أو لا يجد منك ترحيبا!.. أن ذلك يكون بمثابة الانقضاض على رأسها بفأس حادة!".

قلت:" ولكن لا مفر لي من أن يصارحها أحدنا بأن.. أعني بأن...". فقطع كلامي قائلاً: أن ترددك لا ينم عن ضمير خالص! فهل تعتزم– بسبب هذا الخطاب الذي أرسلته المسكينة إليك– أن تقطع صلة الصداقة التي بينكما؟".

لم أجب، ولم أرفع عيني إليه .. فاتخذ صوته لهجة المحقق المتحدي، قوال: هل تدرك عاقبة انسحابك المفاجئ في هذه الظروف، بعد أن أدرت رأس الفتاة بشفقتك الغالية؟".

ولما بقيت صامتاً مطرقاً، وأصل كلامه فقال: "ما دمت تلوذ بالصمت، فدعني أصارحك برأي الشخصي في هذا المسلك الذي تعتزمه: "إن الفرار على هذه الصورة يكون جبنا ونذاله! .. لا تؤاخذني إذا لجأت إلى هذا التعبير، فإن الأمر يتعلق بسعادة فتاة أعتبر نفسي مسئولاً عنها إلى حد ما، وفي ظرف كهذا لا تنتظر مني أن أكون مؤدباً في كلامي.. بل دعني أقل لك– كي تقدر ضخامة العبء الذي تحمل ضميرك إياه لو لذت بالفرار– أن تصرفك هذا يكون جريمة بشعة ضد مخلوقه بريئة، بل أخشى أن يكون بمثابة جناية "قتل"!... نعم، قتل مع سبق الإصرار، وأنت تعلم ذلك!.. وإلا فهل يدور بخلدك أن تلك المخلوقة الأبية، المرهفة الإحساس، تستطيع أن تواجه الحياة إذا كانت– في أول مرة تفتح فيها قلبها لرجل– تصدم بفرار هذا الرجل منها مذعوراً، كما لو كان يفر من شيطان؟... ألم تقرأ خطابها، أم انك بلا قلب، على الإطلاق؟!.. أن أية امرأة عادية، سليمة الجسم والنفس، لا تتحمل مثل هذه الإهانة، وصدمة كهذه كفيلة بأن تودي بعقل الفتاة!.. وإن لم تقتلها الصدمة قتلت هي نفسها!.. نعم، أنا واثق بأنها لن تستطيع مواجهة مثل هذا المسلك "الوحشي"، وأنت لن تستطيع مواجهة مثل هذا المسلك "الوحشي" وأنت تعلم هذا كما أعلمه أنا بالضبط. ولأنك تعلم ذلك فإن فرارك الآن لا يعتبر فعلا ينطوي على الجبن والضعف فحسب، وإنما هو أيضا "جريمة قتل" شريرة متعمدة!".

وأجفلت برغمي.. ففي اللحظة التي نطق فيها بكلمة "قتل" تراءي لي منظر سور الشرفة التي في أعلى البرج، وقد تشبثت به الفتاه وأطلت

على الفضاء السحيق، وأنا أجذبها إلى الوراء، في الوقت المناسب!... أن ما يقوله الدكتور كوندور لا مغالاة فيه، فقد تقدم الفتاة على تلك الفعلة في لحظة يأس!... وأغمضت عيني، فخيل إلى أن الحادث قد وقع فعلا، وأحسست كأني أنا نفسي أهوى من الطابق الخامس على الأرض الحجرية!.. بينما أستمر الدكتور في كلامه قال: "هل تستطيع أن تنكر ذلك؟.. وهل تعد عملا كهذا متفق مع الشجاعة التي تنسبها لنفسك كجندي؟!"

.. ووجدت صوتي أخيرا لأقول له: "يا سيدي الطبيب، ماذا تريدني أن أفعل؟ إنني لا أستطيع أن أقول كلاما لا أعنيه، فكيف أتصرف كما لو كنت أشجع وهمها الجنوني؟ كلا! لست أطيق ذلك، لست أطيقه.. لا أستطيعه ولا أطيقه!"

ويبدو أني صحت مكررا هذه العبارة الأخيرة بأعلى صوتي، فقد أمسك كوندور ذراعي بقبضته القوية وهو يقول: "هدئ من روعك وإلا اضطررت إلى أن أعاملك كمريض... والآن دعنا نتفاهم في صراحة وهدوء: ما هو الذي لا تستطيعه ولا تطيقه؟ لا تخجل من الاعتراف بحقيقة شعورك.. إني أستطيع أن أفهم إيساء الرجل الذي يفاجأ بامرأة تعلن عليه الحب هكذا، في حرارة وعنف، فإن الأخرق وحده هو الذي يفرح ويزهو بإعجاب النساء! أما الرجل بمعنى الرجولة في الأخلاق، فهو خليق بأن يستاء إذ يعلم أن أمرأه قد تورطت في حبه، بينما هو عاجز على أن يبادلها عاطفتها!.. كل هذا أفهمه جيدا، لكني لا أفهم

هذا الذعر الشديد الذي يصيبك!.. فهل هناك عامل خاص–أجهله– يؤثر في مسلكك؟!.. ولكن أكثر صراحة: أعني هل توحى إليك عاه أديث، بشيء من النفور والاشمئزاز الجسماني؟"

فأجبت محتجا: "كلا!.. كيف تفكر في شيء من هذا؟.."

فقال وقد أبسطت أسارير وجهه: "هذا يطمئنني إلى حد ما.. والواقع أن الطبيب يشاهد الكثير من الحلات التي ينفر فيها رجال– طبيعيون للغاية– من أبسط شذوذ جثماني في المرأة، بحيث يستحيل عليهم أن يمارسوا معها أية صلة جنسية. ومن سوء الحظ إن هذا النفور، شأنه شأن كل شعور غريزي، يتعذر معالجته... لهذا يسرني أن أسمع منك أن سبب نفورك من أديث ليس بسبب شلل ساقيها. وفي هذه الحالة أستطيع أرجح أن انزعاجك من وقوع الفتاة في هواك إنما يرجع إلى ظروف خارجية محضة–لا تتصل بك أو بأديث– مثل خوفك من "كلام الناس"، أو من سخرية أصدقائك الضباط منك بسبب زواجك من أمرأه كسيحة!"

وشعرت كأن الرجل قد طعنني في القلب مباشرة، بإبرة حادة من إبره، فقد طالما أحسست–في عقلي الباطن– بهذا الذي يقوله، دون أن أنتبه إليه بعقلي الواعي.. فمنذ البداية كنت فريسة رعب دائم من أن يكشف زملائي صلتي بالفتاة، فيوسعونني زراية استهزاء، شأنهم كلما شاهدوا واحد منهم في صحبة أمرأه قبيحة الخلقة، أو وضعية المرأة!..

نعم، لقد صدق كوندور، فمنذ صارحتني الفتاة بحبها، خجلت منها أشد الخجل، وخجل مما قد يقوله الناس عني حين يعرفون النبأ!

وفي غمرة شرودي سمعت صوت كوندور يستطرد، وهو يضع يده في رفق على ركبتي: " كلا، لا تخجل.. فإن كان أحد يستطيع أن يفهم رعب الإنسان من السخرية الآخرين، فأنا هذا الشخص!.. إنك قد رأيت زوجتي، أليس كذلك؟.. أتدري كم قاسيت بسببها من كلام الناس؟ لقد أشاع زملائي أني تزوجتها لأنني أنا الذي أفقدتها البصر بسوء علاجي!.. وأكد أخرون أني تزوجتها لأنها تملك ثروة طائلة، أو لأنها تنتظر أرثا ضخما!.. حتى أمي بقيت عامين ترفض استقبالها في بيتها، لأنها كانت قد أعدت ل زيجة مغرية من قبل أحد كبار الأطباء ذوي النفوذ، ولو كنت فعلت ذلك لعينت خلال أسابيع أستاذا في كلية الطب، وضمنت لنفسي بذلك مستقبلا باهرا!.. لكني كنت أعلم أن "كلارا"–زوجتي الآن– سوف تنهار تماما لو لم أخذ بيدها في محنتها.. فقد كانت تؤمن بي، وبي وحدي، ولو أني انتزعت إيمانها منها، لعجزت عن مواجهة الحياة!.. وأعترف لك بأني لم أندم على اختياري قط، فإن الحياة يغدو لها طعم ومتعة خاصة حين يشعر الإنسان بأنه كان السبب في إسعاد إنسان آخر، أو تخفيف آلامه!"

كانت لهجة الدكتور كوندور عميقة الأثر في نفسي، فشعرت بشفقتي القديمة على الفتاة الكسيحة التعسة تمطي في صدري من جديد، وتوشك أن تنتعش، وتقهرني!.. لكني اعتزمت أن أقتل هذه

الشفقة في مهدها، وأقطع على نفسي خط الرجعة، فقلت في لهجة حازمة: "أصغ إلي يا سيدي الطبيب: كل رجل يعرف حدود طاقته وقوة احتماله، ومن ثم أصارح لك بأنني لست الشاب الطيب المضحي الذي تحسبه، وأنني الآن قد بلغت آخر حدود قدرتي.. وأقسم لك بشرفي العسكري أني جاد في قولي إنك ينبغي ألا تعتمد علي في مساعدة أديث بعد هذا، وألا تغالي في إحسان الظن بي أكثر من الازم!"

... ويظهر أني كنت حازما في لهجتي، فقد ألتفت كوندور إلى واجما، ثم قال لي: " يبدوا لي أن عزمك قد أستقر على إجراء حاسم.. والآن صارحني بالحقيقة كاملة: هل اتخذت خطوة لا رجوع فيها؟" فقلت .. "نعم .. إليك هذه الورقة فأقرأها بإمعان!"

ومددت يدي إلى جيبي فأخرجت من خطاب استقالتي وسلمته إليه .. فقرأه في روية، ثم طواه ووجهني قائلا في هدوء صارم: " أعتقد أنك– بعد كل ما ذكرت لك– تدرك عواقب الأمر حق الإدراك، وتعلم يقينا أن قرارك على هذا النحو يعني حكما بالموت– أو بالأحرى بالانتحار– على الفتاة التعسة!" .. ولما لم أجب، أردف يقول: "لقد وجهت إليك سؤلا يا سيدي الملازم، وأكرره الآن: هل تدرك العاقبة المحتومة لفرارك؟ .. هل تحمل ضميرك المسئولية كاملة؟"

.. ومرة أخرى لم أجب، فأقترب مني ومد يده إلي بالخطاب قائلا: "هاك استقالتك. أني أنفض يدي من المسألة كلها!" .. ولكن ذراعي

شلت ولم أقو على رفعها، ولم أجد الشجاعة لمواجهة نظرات محدثي، فقال لي: "أذن.. أنت لا تنوي المضي في تنفيذ هذا الحكم بالإعدام!"

وحين أمعنت في صمتي، قال: "هل لي أن أمزقه؟". وحينئذ أجبته: "نعم. .. أرجو أن تفعل!" .. فأتجه الطبيب إلى سلة المهملات، ودون أن أرفع بصري سمعت صوت تمزيق الخطاب، مرة، فأثنين، فثلاثة.. وشعرت بارتياح عميق!.. ثم عاد الطبيب فجلس في مواجهتي، وقال: "أعتقد إننا قد حلنا دون وقوع كارثة فظيعة.. والآن فلنبحث عن حل عملي للموقف: لقد لمست من قلقلة عواطفك، وتعجلك في الانقياد لأفعالك، أنك شخص لا يعتمد عليه، ولا ينبغي أن توكل إليه مسئوليات ثقيلة، تتطلب مثابرة طويلة وعزما راسخا.. لذلك لن أطالبك بالكثير، أو أكلفك بغير الواجب الجوهري اليسير: لقد عزمت أديث– ومن أجلك– أن تجرب العلاج الجديد المزعوم، وسوف تسافر إلى سويسرا بعد أسبوع كي تدخل مصحة "أنجادين".. وكل ما أطلبه منك أن تعاونني بصفة مؤقتة، خلال هذا الأسبوع الباقي على موعد سفرها، وبعد ذلك تستطيع أن تسترد حريتك كاملة فيما يتصل بالأمر كله!.. والآن عدني بألا تظهر للفتاة –خلال الأيام السبعة القادمة، سواء بكلامك أو تصرفاتك– أن شغفها بك يثقل عليك أو يضايقك أدنى مضايقة... ركز كل همك في ضبط مشاعرك خلال هذه الفترة القصيرة... قل لنفسك ليل نهار: " لم يبق غير أسبوع، ستة أيام، خمسة أيام، ثم يصبح في وسعي أن أفخر بأني أنقذه حياة إنسان!"

فسأله: "لكن ماذا سيتغير من الأمر بعد هذا الأسبوع؟"

فقال: "قد يحدث أي شيء، فلندع ذلك في يد الله وعنايته الإلهية... قد تتحسن حالة الفتاة فعلا خلال الأشهر التي تقضيها في المصحة، أو قد تشفى من حبها لك... إلى أخر هذه الاحتمالات المتنوعة التي ينبغي ألا تشغل نفسك بالتفكير فيها. فلنمنح المسكينة هذا الأسبوع من السعادة الخالصة، والاطمئنان الكامل، اللذين لا تشوبهما شائبة!.. فهل تستطيع أن تأخذ على عاتقك هذه المهمة البسيطة؟"

فأجبته، وقد أمدني بقوة شديدة شعوري بأن مهمتي باتت مؤقتة، قصيرة الأمد: "بكل تأكيد.. أعدك بذلك!"

وإذ ذاك تنفس الطبيب الصعداء، وأردف قائلا: "بقى شيء واحد: لو حدث خلال هذه الفترة ما يعرقل خطتنا: لو خذلتك أعصابك مثلا، أو استيقظت شكوك الفتاة، لسبب ما، فعليك أن تتصل بي فورا. زرني أو كلمني بالتليفون، في أية ساعة من الليل أو النهار، وسوف يسرني أن أخف لنجدتك بغير إبطاء، فإن أتفه إهمال قد يكلف الفتاة غاليا.. وحذرا أن تتخذ خطوة حاسمة بغير علمي، مهما يكن الثمن. ولو بدرت منك غلطة أو حماقة ما، فإياك أن تخجل من أن تصارحني بها في الحال، فنحن الأطباء نرى من الأجساد العارية، والنفوس العارية، ما يجعلنا نتسامح في مخازي الطبيعة البشرية!.. والآن هيا بنا نلحق بزوجتي

في الغرفة المجاورة، فقد ترتاب في حديثنا. إن الذين امتحنتهم الأقدار بضربات قاسية، يعيشون طيلة حياتهم مرهفي الإحساس، سريعي التأثير!"

ونهض الطبيب فأضاء النور، وعندئذ تنبهت–لأول مرة– إلى الأخاديد العميقة التي تغضن جبينه من فرط التعب والإجهاد.. فقلت لنفسي: "إنه دائما يعطي من نفسه لآخرين، ويهب راحته، بل حياته، للمعذبين!".. وشعرت لنفسي باحتقار شديد لنفسي، ولرغبتي الدائمة في الفرار من مواجهة الحقائق الموجوعة... وكأنما أدرك هو ما يجول بخاطري، فأبتسم وقال لي: "كم يسرني أنك جئت تفاجئني في الأمر.. فكر فيما عساه كان يحدث لو عمدت إلى الفرار من مشكلة ببساطة، ولا ترو... كانت مسئوليتك تجثم على صدرك مدى حياتك، فإن الإنسان يستطيع أن يهرب من كل شيء، إلا نفسه!.. والآن تعالى يا صديقي العزيز نجلس بعض الوقت مع زوجتي، حتى يحين موعد قطارك.."

... وأثرت في نفسي حرارة لهجته، وتلقيبه أياي بصديقي العزيز، فقد وقف على مبلغ ضعفي وجبني، ومع ذلك لم يحتقرني!.. فقد كان شيخا مجربا، وكنت حدثا متهورا.. وقد رد إلي بتلك العبارة ثقتي في نفسي، فشعرت كأن حملا ثقيلا.. قد أزيح من صدري!

الفصل الثالث عشر

استعدت ثقتي بنفسي بعد أن وضع كوندور حدا للمهمة الملقاة على عاتقي، ولم يعد يقلقني سوى التفكير في اللحظة التي سوف إرى فيها أديث لأول مرة بعد أن صرحت لها بأنني أحبها.

أعرف استحالة ألا يعتريني ارتباك حين ألقها بعد ذلك العناق الحار، فإن نظرتها الأولى لي في لقاءنا المنتظر لا يمكن إلا أن تكون محملة بتساؤل معناه: " هل صفحت عني؟.. هل تقبل حبي؟ وهل تستطيع أن تبادلني حبًا بحب؟".. نعم، أن اللحظة ا لأولى التي سترفع فيها عينيها في لهفة وخجل، ستكون هي اللحظة الخطرة الحاسمة، فإن كلمة واحدة خرقاء، أو حركة واحدة ينقصها التوفيق، قد تكشف لها عن الحقيقة بكل قسوتها – الحقيقة التي ينبغي ألا أكشفها لها بأي ثمن ! – فتصيبها تلك الصدمة المباغتة التي حذرني منها الدكتور كوندور .. ولكن إذا مرت تلك اللحظة بخير فإني أكون قد نجوت، وأنقذتها هي أيضًا !.

وهكذا مضيت بعد ظهر اليوم التالي إلى قصر كيكسفالفا، فلم أكد أتقدم في الردهة حتى أدركت أن أديث قد أعدت – مثلي – لتلك اللحظة الحرجة عدتها، فدعت بعض من تعرف لزيارتها في الساعة التي اعتدت أن أصل فيها، كي يتم لقاؤنا الأول على غير انفراد! .. وقدمتني

ايلونا إلى الزائرتين، وكانتا زوجة "مأمور" المنطقة وابنتها، فجلسنا جميعًا نتبادل الأحاديث .. وهكذا استطعت أن أتجنب النظر إلى أديث – وأن شعرت بنظرتها تستقر على بين حين وآخر في قلق مكتوم – وحين نهضت الزائرتان آخر الأمر، ذكرت ايلونا أنها ستتركننا نحو ساعة كي تعد بعض معدات السفر، واقترحت أن نقضي هذه الساعة في لعب الشطرنج .. فلما خرجت، سألت أديث في لهجة عادية: "هل تحبين أن نلعب؟"، فأجابت وهي تخفض عينيها: "نعم، يسرني ذلك" .. وبدأنا نلعب، وقد لاذ كلانا بصمت صارم. كان كلانا يخشى أن تفضح كلمة منه مشاعره، أو تقوده إلى موقف حرج، فاستغرقنا في اللعب استغراق أساطين اللاعبين الذين يركزون اهتمامهم في اللعبة وينسون كل ما عداها! .. لكن أديث لم تلبث أن تورطت في بضعة أخطاء متتالية نمت عن شرودها، وأدركت من حركة أصابعها أنها لم تعد تحتمل الصمت المرهق للأعصاب .. وفي منتصف المباراة الثالثة دفعت منضدة اللعب عنها قائلة: "هذا يكفي .. أعطني سيجارة!".. فمددت إليها يدي بالعلبة المذهبة، وأشعلت لها سيجارتها بعود ثقاب .. وفيما أنا أفعل، لم أستطع تجنب النظر إلى عينيها، كانت نظرتهما مركزة على لا شيء، على الفضاء السحيق، وقد تجمدت فيهما نظرة غضب باردة، وارتفع حاجباها في شبه قوس مختلج .. الأمر الذي دلني على اقتراب عاصفة من عواصف انفعالها، فهتفت بها مناشدًا في انزعاج: "كلا بربك .. كلا!" .. لكنها مالت في مقعدها إلى الخلف، وتشبثت يداها بمسندي المقعد في عصبية، وقد بدا جسدها كله ينتفض، وأسنانها تصطك، في شبه نوبة

بكاء صامت مكتوم! .. وعدت أناشدها في فزع حائر وقد عجزت عن أن أجد ما أقوله لها، فرحت أردد: "كلا .. كلا!"، ثم انحنيت نحوها مرتاعًا ووضعت يدي على ذراعها، كي أهدئها .. فإذا بها وكأن تيارًا من الكهرباء قد سرى من ذراعها إلى جسمها كله، فتوقفت رعدته فجأة، وسكن! .. وبدا لي كأن كل ذرة فيه قد انشغلت باستنباط مغزى هذه اللمسة مني: هل تدل على ميل، أو حب .. أو مجرد شفقة؟ .. لكني لم أجد في أصابعي القوة على تحويل تلك اللمسة الخفيفة إلى القبضة العارمة التي أحسست أن جسد الفتاة الملتهب ينتظرها بصبر نافد، فتركت يدي راقدة على ذراعها في استكانة، وكأنها ليست جزءًا مني!

.. ولا أدري كم بقينا على هذا الوضع، حتى تنبهت على يدها اليمنى تدفع يدي تلك في رفق عن ذراعها كي تجذبها إلى موضع قلبها، ثم تطبق عليها بيسراها وتعتصرها بين يديها في حياء رقيق، وتهيب، وهي تعبث بأصابعي بين حين وآخر عبثًا حنونًا، خيل إلي معه أنها باحتضانها هذا الجزء الصغير مني – الذي أسلمتها إياه – إنما تحتضن جسدي كله ! .. ثم غاصت في مقعدها وأغمضت عينيها، كمن تحلم، بينما انفرجت شفتاها قليلاً وشاعت في محياها إشراقة هادئة – شأن من تنعم بسكينة نفس كاملة – ويداها ماضيتان في عبثهما الناعم بأصابعي وراحة يدي! .. ولا أذكر أني انتشيت يوما بعناق امرأة، أيًا كان عنفه، مثلما انتشيت ساعتئذ بتلك المداعبة الرقيقة بالأيدي، وذاك العبث الحالم .. حتى لقد خيل إلى أن حواشي كلها قد تأثرت بمخدر سحري أفقدني القدرة على سحب يدي .. وتذكرت وأنا أنعم بدغدغة أناملها لبشرتي، في شبه حلم،

هذه العبارة في خطابها: "كل ما أطلبه منك أن تدعني أحبك في صمت!" .. فشعرت بخجل عميق إزاء هذا الحب العارم، الذي لا أجد له في نفسي صدى غير الاضطراب الحيي والنشوة الحائرة!

.. وشيئًا فشيئًا بدا جمودي يثقل علي! وأحسست بالحرج من تركي يدي هكذا بلا حراك، وكأنها ليست مني! .. وكان لابد أن أفعل شيئًا، أصد به شغفهما الشديد، أو أستجيب له! .. لكني لم أجد في نفسي القوة على هذا، أو ذاك! .. وحدثتني نفسي بأن أضع حدًا لهذه اللعبة الخطرة، فبدأت أحرك عضلات يدي في حذر، كي أستردها من قبضة الفتاة اللينة، في رفق ولباقة .. لكن أديث سرعان ما أدركت – بحساسيتها المرهفة الحادة – أني أوشك أن أ سحب يدي، فأتت بحركة مفاجئة أخلت بها سبيلي .. وإذ ذاك لم أشعر إلا وقد زال عن بشرتي دفء الملمس الناعم، فاستردت يدي المهجورة في شيء من الارتباك .. بينما غام وجه الفتاة وبدا فمها يختلج برعشة الانفعال المكتوم، فهمست لها منزعجًا: "كلا .. كلا بربك ! .. لن تلبث أيلونا أن تأتي بعد لحظة.."، فلما لم تفلح كلماتي السخيفة الجوفاء في تهدئة ثائرتها، تملكتني نوبة من الشفقة المباغتة فانحنيت عليها .. وطبعت قبلة سريعة على جبينها!

ولكن عينيها ظلتا جامدتين، تحدجانني بنظرة فاحصة نفاذة! .. لقد فشلت في أن أخدعها، وأدركت المسكينة أني بسحب يدي قد تنصلت

من عناقها، وأن قبلتي "الطائرة" لم تكن دليل حب حقيقي، ولا تريد على كونها دليل "شفقة" حائرة!

وفي الأيام التالية، تكررت مني هذه الحماقة التي لا سبيل إلى غفرانها أو التكفير عنها! لقد عجزت – برغم كل جهودي اليائسة – عن أن أحشد ما بقي لي من القوة والصبر للقيام بمحاولة ناجحة لإخفاء مشاعري .. ولم يجد تصميمي على أن لا أفضح – سواء بالقول، أو النظرة، أو الإشارة – نفوري من حبها! .. وكلما ذكرت نفسي، مرارًا وتكرارًا، بتوصيات الدكتور كوندور في شأن خطر الموقف، وفداحة مسئوليتي فيما لو خدشت مشاعر هذه المخلوقة التعسة، رحت أحدث نفسي ملحقًا: دعها تحبك، وأخف شعورك الحقيقي أسبوعًا واحدًا، كي تحفظ لها كبرياءها، ولا تدعها ترتاب في أنك تخدعها .. حاول أن تكسب صوتك حرارة، ولمساتك شغفًا وحنانًا!

.. على أن جو اللقاء بقي برغم ذلك مشبعًا دائمًا بتوتر غامض خطر: فإن العاشقة الوالهة كانت لا تفتأ تستشف "حقيقة" شعوري، بعد أن باحت لي بحبها على ذلك النحو .. ثم أن الحب بطبعه لا يقبل الاعتدال، ولا يقر الحدود والقيود، ومن ثم راحت تفسر كل تحفظ أو تردد مني في الاستجابة لحبها، بأنه دليل مقاومة خفية! .. ولابد أن لهجتي قد وشت بشيء من الحيرة والاضطراب، أو أن مسلكي قد نم عن ارتباك مكتوم، فخرجت الفتاة من ذلك بنتيجة واحدة: هي أني لا أبادلها الحب!

.. وعلى هذا المنوال من فشلي في مهمتي، أنقضت أيام ثلاثة من الأسبوع، كانت عذابًا متصلاً، لي ولها! .. وكنت طيلة الوقت أحس بالترقب الأخرس، الظامئ، في نظراتها .. وفي صمتها! .. وفي اليوم الرابع، لاحظت على مسلكها معي أعراض عداء، شبه صريح ! .. كنت قد توجهت لزيارتها بعد الظهر كعادتي، وأخذت لها معي باقة من الأزهار، تناولتها منى دون أن تنظر إليها، ثم وضعتها جانبًا في غير اهتمام، وتحصنت وراء ستار صارم من الصمت المتحدي! .. ولما حاولت أن استدرجها إلى الحديث، في شتى الموضوعات، كانت تجيبني إجابات قصيرة شاردة توحي – في وضوح مهين – بأن وجودي يضايقها! .. أو تتشاغل أثناء كلامي بتقليب صفحات كتاب، أو العبث بأي شيء تجده في متناول يدها .. ثم تثاءبت مرتين، ونادت الخادم لتسأله عن بعض إجراءات السفر، وعادت تسألني: "ماذا كنت تقول؟!"

وبعد ساعات قضيناها في هذا الجو من التوتر، أقبل كيكسفالفا يدعونا إلى مائدة العشاء. وجلست أديث في مواجهتي كالعادة، لكنها لم ترفع عينيها لحظة عن طبق الطعام الذي أمامها، ولم توجه إلى أحدنا كلمة واحدة .. فأحسسنا جميعًا بمدى ما ينطوي عليه صمتها العنيد! وحاولت أنا أن أزيل شيئًا من حرج الموقف، فجعلت أثرثر بقصص شتى عن قائد فرقتنا، ومبلغ ما يرهقنا به من الأعمال في الأيام الأخيرة. وفي أثناء كلامي ذكرت أنني وجدت صعوبة كبرى في إنهاء عملي يومئذ في الوقت المناسب كي أزور الأسرة كعادتي، وأن من الرجم بالغيب أن أجزم بما إذا كنت سأتمكن من تأدية زيارة الغد أم لا؟ ولم أكن أرمي بعبارتي

هذه إلى معنى معين، بل كنت أوجه كلامي إلى كيكسفالفا في لهجة مزاح خالصة، ولكن حدث فجأة أن قطع حديثنا صوت حاد، إذ ألقت أديث سكينها فوق طبقها في عصبة، وصاحت غاضبة: "إذا كان يضايقك أن تحضر، فيحسن أن تبقى في معسكرك أو مقهاك، فنحن نستطيع أن نعيش بدونك!"

.. وأمسكنا جميعا أنفاسنا من هول المفاجأة – وكان شخصًا أطلق رصاصة من الخارج اخترقت زجاج النافذة ! – بينما هتف الأب منزعجًا : "أديث!" .. لكنها مضت في كلامها قائلة: "لعل من المناسب أن نعطيه "أجازه" ولو يومًا واحدا، نعفيه فيه من زيارتنا!".. وتبادل كيكسفالفا وايلونا نظرة فيها كل دلائل الحرج – ولعلهما أحسا أني كنت ضحية بريئة إحدى نوبات انفعال "أديث" الحادة! – ثم نظرا إلى في لهفة توحي بإشفاقهما من أن أرد على خشونة الفتاة بمثلها! .. وحاولت أن أضبط مشاعري، فقلت بقدر ما وسعني من هدوء: "أعتقد أنك على حق يا أديث، فإن إرهاقي بالعمل في الأيام الأخيرة جعلني شخصًا لا تروق الناس صحبته. وقد شعرت اليوم – من مسلكك طيلة الوقت – أنني أضجرتك وضايقتك، ولكن لعلك تستطيعين أن تصبري على زياراتي بضعة أيام أخرى .. أربعة أيام فقط، أو بالأخرى ثلاثة أيام ونصف!"

وعند هذا أطلقت الفتاة ضحكة عصبية حادة، وقالت: "أسمعوا ما يقول: ثلاثة أيام ونصف .. هاها! أنه يحسب باليوم والساعة مدى الزمن الذي سوف يتخلص بعده منا، آخر الأمر! .. وأحسب أنه قد اشترى

خصيصًا أحد التقاويم ووضع علامة باللون الأحمر على يوم رحيلنا .. هاها! .. ثلاثة أيام ونصف .. ونصف؟!" .. وظلت تضحك وتضحك وزهي ترمقنا بعينيها، وجسدها يرتجف كالريشة! وأحسست أنها لو لم يعقها شلل قدميها لقفزت مع مقعدها مندفعة، تنفيسًا عن ثورة انفعالها، فقد كانت من فرط عجزها عن الحركة وهي غضبى أشبه بالوحش الحبيس في قفص! .. ثم أبدت لايلونا حركة تنم عن رغبتها في الانصراف من المكان، فأعانتها وأبوها على الذهاب إلى مخدعها، وخرجت دون أن تتوجه إلي بكلمة وداع أو اعتذار، تاركة إياي في حالة ذعر ودوار، شأن من سقط من حالق .. في هوة سحيقة!

.. وبعد لحظات، عادت أيلونا لتهمس لي في اضطراب: "ينبغي أن تحاول فهم حالتها! أنها لا تكاد تنام ساعة واحدة طوال الليل. إن فكرة السفر تسبب لها بلبلة رهيبة، إنك لا تعرف.. " .. فقاطعتها بقولي: "بل أعرف يا أيلونا .. أعرف كل شيء .. ولهذا سأحضر غدًا أيضًا!" .. ثم انصرفت ليلتئذ وأنا أقول لنفسي: "احتفظ بثيابك ولا تدع صبرك يخور! .. قاوم بأي ثمن! إنك وعدت كوندور بذلك، وبات شرفك معلقًا في الميزان. فلا تجعل نوباتها وثورات أعصابها تفسد مهمتك. وأذكر دائمًا أن هذا العداء والتحدي هما نتيجة اليأس الذي تعانيه مخلوقة تتدله في حبك ولا تجد منك غير فتور مثير، وقلب مفاق! .. قاوم حتى اللحظة الأخيرة. لم تبق غير أيام ثلاثة، ونصف يوم، وتكون قد اجتزت الامتحان بنجاح، وتعفى من عبئك الثقيل أسابيع أو شهورًا طويلة، وربما إلى النهاية! .. فصبرًا مرة أخرى .. ثلاثة أيام .. ونصف يوم ! "

وقد كان كوندور على حق، فإن الأعباء غير المحدودة بأجل هي التي تفزعنا .. ومن ثم شعرت وأنا آوي إلى فراشي في تلك الليلة التي سوف أنجح في تحمل عبئي خلال الأيام القليلة الباقية .. وأمدني شعوري هذا بثقة مجددة في نفسي، فأديت عملي في نهار اليوم التالي بنشاط كامل وجلد مثالي، حتى أني ظفرت بكلمة إعجاب من قائد الفرقة! .. وقبيل الظهر، اقترب مني أحد الجنود وهمس في أذني: "مكالمة تليفونية لسيدي الملازم"، فهرعت إلى حجرة التليفون منزعجًا وأنا أقول لنفسي: "إن مكالمات التليفون والبرقيات والخطابات صارت تعني بالنسبة لي متاعب جديدة، وأنباء سيئة.. ترى ماذا تريد مني في هذه المرة؟!" .. لكني فوجئت بأن أيلونا هي التي تتكلم، وقالت بصوت فيه مسحة من الاضطراب: "لعله يحسن ألا تحضر اليوم، فإن أديث ليست على ما يرام!" .. فقلت لها: "أرجو ألا يكون توعكها خطيرًا؟" .. فأجابت بعد تردد قصير: "ليس في الأمر خطر .. ولكني أرى من الأفضل أن ندعها تستريح اليوم، سيما وأن يومًا واحدًا لن يقدم أو يؤخر، فأكثر الظن أننا سنضطر إلى تأجيل سفرنا!".. وهنا هتفت بها منزعجًا، أسالها دون وعي: "ماذا؟ .. فأجابتني على الفور: "لبضعة أيام فقط، فيما نرجو .. وعلى أية حال ففي وسعنا أن نتحدث في الأمر غدًا، أو بعد غد .. وقد اتصل بك بالتليفون مرة أخرى.. وفي انتظار ذلك أرجو ألا تحضر اليوم، إذا لم تر بأسًا .. و .. و.. إلى اللقاء!".. ثم وضعت السماعة حتى لا تتيح لي فرصة المضي في المحادثة!

عجبًا! لم أنهت المكالمة بمثل هذه المجلة، كأنما تخشى أن أوجه إليها مزيدًا من الأسئلة؟ .. وما علة تأجيل السفر؟ .. لابد أن وراء ذلك سرًا ! .. والأسبوع الذي تنتهي بعده مهمتي، هل معنى ذلك أنه سوف يمد، بعد أن كاد ينتهي؟ مستحيل! .. إني لن أتحمل ذلك، فإن لي أعصابًا أنا الآخر، ومن حقي أن أنال قسطًا من الراحة!

وحين عدت بعد هذه المحادثة، كانت ساعة الغداء قد حانت، فجلست إلى المائدة بين نفر من زملائي، شاردًا، تدق صدغي مطارق متوالية تهتف في وعتيي: "تأجل السفر .. تأجل السفر .. تأجل السفر! .. لابد من سبب لهذا التأجيل. لا بد أن شيئًا قد حدث .. هل أديث مريضة حقًا؟ .. لقد احتملت حرج موقفي نحوها أربعة أيام كاملة، ووطنت نفسي على ثلاثة أخرى .. أما بعد ذلك فلن أستطيع صبرًا .. لن أستطيع ! .. لن أدع القوم يلهون بي .. لن أدعهم يمرقون أعصابي أكثر من ذلك. كفاني ما قاسيت من عذاب بسبب تلك الشفقة اللعينة التي تكاد تقودني إلى الجنون!"

وأحسست أنني يجب أن أفعل شيئًا .. أقوم بحركة عنيفة – مثلاً – تخفف الضغط عن أعصابي، أو أحطم أكواب الماء بين أصابعي، أو أقذف بها فوق بلاط القاعة! .. فنهضت وغادرت المكان دون أن أذوق طعامًا، خشية أن أرتكب حماقة على مرأى من إخواني جميعًا!

وفي الخارج سمعت بعض الزملاء يتراهنون على ترويض جواد جامح، فتطوعت للقيام بالمهمة، كي أشفي بعض غليلي .. وبعد أن أفرغت ثورة نفسي في ركل الحيوان المتمرد مدى ساعة كاملة، وسط صيحات الإعجاب من زملائي، ركضت بالجواد الذي أسلست قياده، منطلقًا به في نزهة طويلة قصدت بها أن أروح عن نفسي! .. وكم كانت دهشتي حين التقيت في الطريق المؤدي إلى البلدة بسيارة كيكسفالفا، تقل صاحبها وصديقة الدكتور كوندور إلى وجهة مجهولة! .. ولمحني الاثنان فحياني من داخل السيارة دون أن يأمرا السائق بالوقوف! عجبًا! .. أيحضر الطبيب من فيينا دون أن يخطرني أو يتصل بي؟ ثم يراني في الطريق فلا يتوقف؟! ثم كيف يحضر في موعد عيادته؟ لابد أنهم قد استدعوه لأمر عاجل .. لابد أن شيئًا قد حدث، شيئًا يحرصون على ألا أعلمه! .. ترى هل ألحقت الفتاة أذى بنفسها؟ .. لقد بدت على وجهها ليلة أمس مسحة من التصميم على شيء، ومن الاحتقار للجميع، شأن من تدبر أمرًا رهيبًا!

وسألت نفسي: "ألا ينبغي أن الحق بكوندور في لمحطة لأستفسر منه عن جلية الأمر؟ .. ولكن لعله ترك لي رسالة في المعسكر، أو لعله ينتظرني بنفسه هناك، فإنه لا يمكن أن يسافر ويتركني فريسة لهذه البلبلة الفظيعة .. فلأسرع بالعودة!

وحين وصلت، استقبلني تابعي قليلاً أن هناك رجلاً بملابس مدنية ينتظرني في غرفتي .. لقد صدق حدسي ولم يخلف كوندور ظني! ..

لكني لم أكد أفتح الباب، حتى وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام! كيكسفالفا!

وأبتدرني الرجل قائلاً، في أدبه المفرط المثير: "أغفر لي إقحامي نفسي عليك هكذا على غير انتظار يا سيدي الملازم، لقد كلفني الدكتور كوندور أن أحمل إليك اعتذاره وأسفه الشديد لعجزه عن التوقف أثناء إسراعه إلى المحطة، خشية أن يفوته القطار!"

كان محدثي واقفًا أمامي وقد أحنى رأسه، كأنما يثقله حمل غير منظور! .. وأدركت من هيئته أن عنده شيئًا آخر يود لو يفضي به إلي سيما وأني لم أعقل أن شيخًا مثله – ضعيف القلب والبنية – يجهد نفسه ويصعد السلم إلى الطابق الثالث، لمجرد إبلاغي تحية كان في وسعه أن يبلغني إياها بالتليفون!.. لكني مع ذلك لم أشأ أن استفسر منه عن شيء، أو أبدأ الحديث، فقد حدثتني نفسي بأن أكون منه على حذر، فلا أقع في فخه كما وقع الشاب في فخ "الجني" في قصة "ألف ليلة وليلة" التي قرأتها منذ ليال .. فاكتفيت بأن قلت له:

– أنه لطف كبير منك يا هر فون كيكسفالفا، أن تجشم نفسك كل هذه المشقة من أجلي .. هلا تفضلت بالجلوس؟

وجلس كيكسفالفا صامتًا .. وبعد أن تشاغل هنيهة بتنظيف زجاج نظارته، بدا كأنه يئس من أن أستدرجه أنا إلى الحديث، فأخذ يتكلم وهو ينظر إلى قاعدة المنضدة التي بينما، متحاشيًا عيني .. قال: "ليس من

حقي أن أغتصب المزيد من وقتك أيها الملازم .. ولكن ماذا في وسعي أن أفعل؟ لم أعد أتحمل أكثر مما تحملت .. الله وحده يعلم ما أصابها في اليومين الأخيرين! .. أنها تأبى أن تصغي إلينا، وتزعم أنها مريضة. لكني لا أعلم ما بها! .. إنها مسكينة تعسة، إلى حد البأس .. وبأسها هو الذي دفعها إلى أن تعدل عن السفر، وتصر على هذا العدول، برغم إعدادنا العدة له وحجزنا أمكنة لنا في عربة النوم! .. والذي يدهشني أنها كانت – حتى أمس – أكثرنا حماسة للسفر، واستعدادًا له. ولكن فجأة، بعد العشاء، ثارت وأعلنت أنها لن تسافر، بأي ثمن، ولو تهدم البيت فوق رأسها! .. وأنها فقدت اهتمامها بالعلاج الجديد، بل يخيل إليها الآن أنه خدعة يراد بها إبعادها! .. أنها تصرخ فينا قائلة: "لن تستطيعوا خداعي وتعذيبي بعد الآن .. لقد سئمت كل هذه التجارب العقيمة .. سئمت هذه الأكاذيب . أني أفضل أن أظل كسيحة .. لست أريد أن أشفى .. ما فائدة شفائي الآن وهو .. لا يشعر نحوي بغير .. الشفقة! "

.. وسرى تيار كالثلج في نخاعي حين نطق كيكسفالفا بالعبارة الأخيرة! .. لم يكن حتى تلك اللحظة قد أظهر لي ما ينم عن علمه بعاطفة ابنته اليائسة، ربما من فرط خجله مني بعد أن رددتها خالبة! .. أما وقد أفصح الآن، فقد انعقد لساني، وحرصت أنا أيضًا على تجنب النظر إلى عينيه! .. وانعقدت في سماء الحجرة كلها سحابة من الصمت الثقيل المرهق!

ومن أنفاس الشيخ اللاهثة أدركت أن هذا الصمت يوشك أن يخنقه، وأن شراايينه توشك أن تنفجر! .. وقبل أن أتنبه، لمحته يسقط فجأة أمام مقعده، وينقلب المقعد وراءه .. فكان أول خاطر ومض في ذهني أنه أصيب بنوبة قلبية، كما توقع له كوندور منذ زمن .. فهرعت من فوري كي أرفعه وأرى ما يمكن عمله لإسعافه .. وعندئذ فقط تبينت الحقيقة: أنه قد انزلق من مقعده عامدًا ليجثو على ركبتيه! .. لم أكد انحنى عليه، حتى تناول يدي وراح يناشدني في توسل: "يجب أن تنقذها .. أنك الوحيد الذي يستطيع إنقاذها .. حتى كوندور يقول ذلك! .. أنت ولا أحد غيرك .. أتوسل إليك، ارحمها! .. لا يمكن أن تستمر الحال على هذا المنوال. إنها سوف تقضي على نفسها في نوبة من نوبات اليأس! إنها تقسم على ذلك وهي تشهق بالبكاء، زاعمه أنها بذلك تريحك وتريحنا جميعًا .. وهي ليست هازلة .. فلقد حاولت الانتحار مرتين من قبل، ابتلعت مرة أقراصًا منومة، وقطعت في المرة الأخرى وريدًا في رسغها. وهي متى اعتزمت أمرًا، لا تتراجع عنه! .. أنقذها بربك .. أقسم لك أن المسألة بانت مسألة حياة أو موت!"

وكنت قد رفعت الشيخ المحطم حتى أوقعته على قدميه، وهو ماض في توسلاته .. ثم قلت له آخر الأمر: "ولكن قل لي ماذا تريدني أن أقول لها .. وماذا ينبغي أن أفعل ؟!" .. وعندئذ أفلت ذراعي من يديه وحدق في كالمأخوذ قائلاً: "ماذا ينبغي أن تفعل؟ أأنت لا تفهم حقًا؟ أم أنك لا تريد أن تفهم؟! .. ألم تفتح هي قلبها لك، وتعرض نفسها عليك؟ ..إن المسكينة تكاد تقتل نفسها خجلاً من أجل الخطاب

الذي أرسلته إليك فلم ترد عليه! .. أنها تعتقد أنك تبغي الخلاص منها، وأنك تحتقرها! .. ألا تدرك أن الموت أهون على مثلها من هذا الشك القاتل الذي تتركها – بصمتك – فريسة له؟ .. لم لا تقول لها كلمة تبث في نفسها شيئًا من الأمل؟ ..

لماذا تعامل المسكينة بهذه القسوة، وتعذبها هذا العذاب الفظيع؟ .. إنك تكاد تقودها إلى الجنون بجمودك، في حين أنها لا تعيش إلا في انتظار شيء واحد، بل كلمة واحدة.. هي الكلمة التي تنتظرها كل امرأة من الرجل الذي تحبه!

.. وهي ما كانت لتأمل شيئًا عندما كان شفاؤها مشكوكًا فيه، أما الآن – وقد بات مرتقبًا في خلال أسابيع – فلم لا تطمع المسكينة فيما تنعم به غيرها من النساء؟ .. لقد أذلت نفسها لك، وأنت تضن عليها بالكلمة الوحيدة التي يمكن أن تسعدها! .. فهل تزعجك الفكرة إلى هذا الحد؟ .. إنك تستطيع أن تنال كل ما يحلم به إنسان على هذه الأرض، إذ لا يخفى عليك أني رجل مريض، طاعن في السن، وسوف أترك كل ما أملك: الضيعة والقصر، والستة أو السبعة ملايين التي شقيت في جمعها طيلة أربعين عامًا .. كلها ستكون لكما، غدًا إذا أردتما، أو اليوم، فما عدت أطمع في شيء! .. كل ما أتمناه شخص طيب القلب يعني بطفلتي ويرعاها بعد أن أموت .. وأنا أعلم أنك تستطيع أن تكون هذا الشخص!"

وخذلته قواه، فمال برأسه على المنضدة وأخفى وجهه بيديه، حتى لقد أحسست نحوه بعطف بالغ .. فقلت وأنا أنحني فوقه: "هر فون كيكسفالفا: لا تضن علي بثقتك. سوف نتدبر الأمر كله في هدوء، وأني أضع نفسي تحت تصرفك .. سأفعل كل ما في وسعي .. لكن الشيء الذي أشرت إليه الآن .. مستحيل، مستحيل إطلاقًا ! .. ضع نفسك مكاني: من أنا ؟ ضابط بسيط يعيش من مرتبه الضئيل الذي لا يكفي شخصين بحال .. أعلم ما تريد أن تقول .. أنك غني .. وأستطيع أن أحصل منك على ما أريد .. ولكني لهذا السبب بالذات لا أستطيع تحمل مجرد التفكير في الأمر! سوف يقول الناس جميعًا أني تزوجتها طمعًا في مالها .. وأديث سوف تعيش حياتها معذبة بهذا الشك ذاته! .. وستشعر أني قبلتها من أجل ثروتها وحدها، وغضضت الطرف عن الاعتبارات الخاصة الأخرى .. صدقني يا هر فون كيكسفالفا أني لا أستطيع، برغم تقديري وإعجابي بابنتك! .. أنك تقدر موقفي، أليس كذلك؟"

وبقي الرجل صامتًا لا يتحرك، ثم تحامل على نفسه ووقف، وبعد أن لبث فترة يترنح –كمن به دوار – قال لي أخيرًا بصوت كأنه آت من بعيد:

– إذن .. فقد انتهى كل شيء!!

ودون أن يخفض بصره الشارد، أخذت أصابعه تتحسس مكان نظارته على المنضدة، حتى اصطدمت بها فتناولتها، لكنه بدلاً من أن يثبتها على عينيه، وضعها في جيبه بغير مبالاة .. ما فائدة النظر بعد الآن، وما جدوى العيش كله .. ثم التقط الشيخ الفاني قيمته – بالطريقة نفسها – واستدار ليذهب، وهو يغمغم، دون أن ينظر إلي: "اغفر لي! .. أني أزعجتك .." .. ثم كأنما تذكر شيئًا، فخلع قيمته وانحنى لي، وكرر العبارة ذاتها!

.. وكانت هذه الحركة من التأدب البالغ، برغم اليأس القاتل، هي التي قلبت موازين قلبي .. فوجدت نفسي – مرة أخرى – فريسة مستضعفة لشفقتي ! .. وشعرت بتيار دافق حار من الرحمة الحانية ينبثق في أعماقي، فيرسل الدمع المحرق إلى عيني .. بل شعرت بقلبي يذوب، وعزمي يضعف وينهار .. ولم أستطع أن أدع الرجل المسن يذهب كسير القلب، وهو الذي جاء ليهبني ابنته، أعز مخلوقة عليه في الأرض! .. لم أستطع أن أنتزع حياته من جسده، وأسلمه لليأس والموت .. لم أستطع أن أ نتزع حياته من جسده، وأسلمه لليأس والموت .. بل وجدت من واجبي أن أقول له شيئًا يرد له بعض أمله، فاندفعت خلفه هاتفًا:

– هو فون كيكسفالفا، لا تسيء فهمي .. لا تذكر لها أني .. أن هذا سوف يضرها أبلغ الضرر في حالتها الراهنة .. ثم أنه .. غير صحيح أيضًا!

لكن الرجل بدا كأنه لا يسمعني ! .. كأن اليأس قد أحاله إلى شبه عامود من الملح، إلى جثة حية! .. فازدادت لهفتي على تخفيف ما به، وأردفت قائلاً:

– أقسم لك أني لم أقصد أن أهين أديث، أو أجعلها تعتقد أنني غير مشغوف بها، فلا أحد يكن لها مثل العاطفة التي أكنها لها .. وكل ما قصدته أن من غير المجدي أن أصرح لها بشيء من ذلك الآن، في الوقت الذي ينبغي فيه أن ينحصر اهتمامها في العناية بنفسها، وفي أن تحصل على الشفاء المرجو!

وهنا استدار الرجل وقد دبت الحياة في عينيه، اللتين كانتا خامدتين، وسألني: "وماذا بعد أن تشفي؟!" .. فأجبتها، وقد تذكرت أن آمالها في الشفاء ليست غير أضغاث أحلام: حين تشفى .. سوف آتي بلا شك وأسألك .." وحدث الرجل في هنيهة، وقد هزت جسمه رعدة قوية، ثم قال: "هل أبلغها ذلك؟"

وأحسست بالخطر التي تنطوي عليه إجابتي، لكني لم أقو على رد نظرته المتوسلة خائبة، فأجبته بصوت حازم وأنا أمد إليه يدي: "نعم، أبلغها ذلك!" .. وإذ ذاك لمعت عيناه وامتلأتا بدموع الشكر والعرفان، وارتجفت يداه في يدي بقوة، لم أحني رأسه بحركة مريبة، وتذكرت فورًا أنه في مناسبة سابقة قبل يدي .. فحسبتها هذه المرة في الوقت

المناسب، وأنا أسمعه يقول: "لست أستطيع أن أشكرك، فليكافئك الله!".

ولم أقدر خطر الوعد الذي بذلته في لحظة ضعفي، إلا بعد ساعة كاملة من انصراف كيكسفالفا، حين جاء تابعي يحمل إلى مظروفا أزرق، فضضته فوجدت فيه هذه الكلمات: "سنسافر غدًا .. اغفر لي مسلكي في الأيام الأخيرة، فقد كان ينتابني الخوف من أن أكون حملاً ثقيلاً على نفسك. أما الآن فإني أعرف لماذا ومن أجل من يجب أن أشفى! لم أعد أخاف شيئًا. تعال غدًا مبكرًا ما استطعت ... فما انتظرتك يومًا بمثل هذه اللهفة! .. المخلصة لك دائمًا .. أديث"

وارتجفت وأنا أقرأ الكلمة التي تربطني إلى الفتاة: "دائمًا"! .. أي "مدى الحياة!". وشعرت بأني لم أعد أستطيع التراجع!.. لقد تغلبت شفقتي مرة أخرى على إرادتي، فلم أعد أملك التصرف في نفسي!

الفصل الرابع عشر

قاومت ترددي بأن تناولت ثلاث كؤوس من الخمر، كان لا بد منها قبل أن أسلك طريقي إلى القصر بعد ظهر اليوم التالي. كنت بحاجة لأن أستمد منها الشجاعة على مواجهة ذلك الموقف الصعب الذي ينتظرني، والتغلب على ما يعتريني من خوف أو خجل، ولكن الأمور أتت بأسهل مما توقعت.

فقد أستقبلني "جوزيف" بوجه بشوش، قائلاً: " الآنسة تنتظر سيدي الملازم في الصالون منذ زمن"، ثم أسلمني إلى أيلونا التي شدت على يدي بحرارة لم أعهدها منها، وقالت ووجهها يشع إشراقًا وودًا: "شكرًا لك يا سيدي الملازم. إنك لا تعرف مدى ما أديت لنا جميعًا من جميل، إنك قد أنقذتها! .. ولكن تعال مسرعًا فإنها تنتظرك ملهوفة!" .. ثم فتح الباب وأقبل كيكسفالفا مشرق الوجه، فابتدرني قائلاً: "أنك ستدهش للتغير الذي طرأ عليها .. أنها منذ مرضت لم تبد يومًا مرحة سعيدة مثلما تبدو اليوم، حقًا إنها لمعجزة!"

هذه الموجة من الشكر والترحيب بددت كل خوفي وخجلي، فأسعدني أن أكون السبب في إسعاد الآخرين على هذا النحو، وهكذا دخلت عليها بقلب هادئ وجنان ثابت، فوجدتها تكاد تطفر من مقعدها

فرحًا ومرحًا، وقد ارتدت ثوبًا من الحرير الأزرق الفاتح، ووضعت على رأسها بضع أزهار بيضاء. وبقدر ما كانت لهجتها صبيانية، كان جمالها أكثر أنوثة من ذي قبل! ولم تكد تراني حتى هتفت بي: "أخيرًا، أخيرًا! .. تعال واجلس بجانبي، ولا تقل شيئًا، فعندي الكثير الذي ينبغي أن أقوله لك!"

وحين فعلت، استطردت قائلة بلهجة من تزن كل كلمة تفوه بها: "اصغ إلي، ولا تقاطعني: لقد عرفت كل ما قلته لأبي، وما اعتزمته من أجلي. والآن صدقني حين أعدك بأني لن أسالك يومًا أو أسأل نفسي: هل فعلت ذلك من أجل أبي أم من أجلي، وبدافع الشفقة أم بدافع .. كلا، لا تقاطعني، فإني لا أريد أن أعرف جواب هذه الأسئلة، لا أريد أن أستمر في تعذيب نفسي وغيري بهذه الشكوك .. ويكفي أن تعلم أني لم أعد إلى الحياة ولن أقوى على الحياة ألا بفضلك، بل أني أحس أن حياتي لم تبدأ إلا أمس!، ولتثق بأني سوف أستسلم لما يريده الأطباء مني استسلامًا مطلقًا، وسأناضل في سبيل الشفاء – وقد عرفت ما يتوقف عليه – بكل عصب وكل ذرة من جسمي، وكل قطرة من دمي. ويخيل إلى أن الإنسان حين يريد شيئًا بمثل هذه الاستماتة الملحة، فإن الله لا يضن عليه به! .. كل هذا سوف أفعله من أجلك، كي لا أحملك تضحية ما في سبيلي، ولكن إذا لم تسر الأمور على ما يرام، أي إذا لم أحصل على الشفاء التام وأصبح مثل بقية الناس، فلا تخشى شيئًا .. فإنك لن تراني بعد ذلك، أو تسمع عني .. ولن أصبح عبئًا عليك، لأني لن أصبح عبئًا على أحد على الإطلاق!

هذا ما أقسم لك عليه. والآن لا تعلق على قولي بكلمة، إذ لم تبق أمامنا غير ساعات معدودات نقضيها معًا قبل سفري، وأنا أريدها أن تكون ساعات هنيئة حقًا!"

وعلى غير شعور مني، وجدتني أدنو بمقعدي من أديث، وأتناول يدها في يدي .. ثم مضينا نتحدث ونثرثر في غير تكلف، في كل موضوع خطر ببالنا .. ثم انتقلنا إلى غرفة المائدة، حيث كان الشمعدان الفضي يعكس أضواء الشموع، والأزهار تشرئب بأعناقها من آنيتها كالشهب الملونة، والمرايا تعكس أنوار الثريات البلورية .. والأشجار في الخارج تتنفس في هدوء، والهواء الدافئ يعبث بالمروج العطرة، ثم يعود محملاً بأريج عذب خفيف! .. كل شيء كان يبدو أبهج من المألوف .. فأكلنا وتحدثنا وشربنا نخب شفاء أديث "من أجلي"! —كما قالت وهي ترفع الكأس إلى شفتيها — بينما طافت الدموع بمقلتي أبيها وهو يرفع عينيه إلى السماء مبتهلاً، ومضى الرجل يرحب بي محييًا محتفيًا، حتى أستخفني التأثر فقمت وعانقته! .. وحين لمحت عيني أديث تتبعانني، وشفتيها تختلجان شوقًا، أسرعت فانحنيت عليها وطبعت قبلة .. على فمها! .. لكنها لم تلصق صدرها بي كما فعلت في المرة الأولى، بل تلقت قبلتي هذه المرة في وقار، كما تتلقى هدية ثمينة! .. وسمعنا صوتًا مكتومًا صادرًا من أحد الأركان .. كان جوزيف يبكي فرحًا لفرحة سيدته، فخلنا دموعه تنحدر ساخنة من أعيننا نحن!
فجأة شعرت بيد أديث فوق يدي، وقالت لي: "أعطني يدك لحظة" وإذا بشيء بارد ناعم ينزلق في خنصري، كان خاتمًا من الذهب. ثم همست

لي بلهجة المعتذرة: "حتى يذكرك بي حين أكون بعيدة!" فتناولت يدها وقبلتها.

طيلة السهرة كان جبينها يلمع بندى الانشراح، وعيناها تعكسان أشعة من السعادة الخالصة وتملكني زهو من يشعر بأنه صاحب الفضل في كل هذا الحبور، والبهجة، والانشراح الذي ساد الجميع! وعندما حان وقت الانصراف ونهضت، خيم على جو المكان ظل من الكآبة والأسف لانقضاء الليلة الرائعة .. ولأول مرة شعرت بضيق من فكرة مفارقة أديث – وكنت قد أجلت انصرافي وأطلت البقاء، عزوفًا عن توديع هذه الفتاة التي تحبني – فلما لم يعد مفر من الرحيل، صافحتها ثم ألقيت ذراعي حولها معانقًا، وقبلتها في فمها! وإذ ذاك شعرت بها تحبس أنفاسها، كأنما لتحتفظ بحرارة أنفاسي أطول مدة ممكنة! وأخيرًا صافحت الباقين وغادرت الحجرة، يغمرني شعور الارتياح الذي يخامر المرء بعد أن يفرغ من تأدية مهمة ناجحة!

لكني لم أبلغ الباب الخارجي، وأتهيأ لتناول قبعتي وسيفي من جوزيف، حتى لحق بي كيكسفالفا وكأنه لا يقوى على أن يفارقني، وراح يكيل لي عبارات الامتنان، وحيائي يعوقني عن أن أقطع حديثه لأنصرف، ولو فعلت لنجوت من رؤية ذلك المشهد الفظيع، إذ لم تمض لحظات حتى سمعنا صوت أديث وأيلونا تتجادلان بعنف. كانت الأولى تصر على شيء والثانية تحاول أن تمنعها، دون جدوى ثم بلغت آذاننا طرقات العكازين على الأرض، وأقبلت أديث تتوكأ عليهما حتى بلغت باب

الردهة التي كنا في أقصاها، فتوكات عليه في حركة من تستجمع قوتها للقيام بمجهود أكبر . ثم أقبلت في اتجاهي تترنح على ساقيها دون سند من عكازيها – مستعينة على حفظ توازنها بحركات ذراعيها – حتى لم تبق بينها وبيني غير خطوتين، ثم خطوة واحدة! وإذ كادت تتم المعجزة، فاضت بها نشوتها ولهفتها على احتصاني، فمدت ذراعيها نحوي قبل الأوان .. وعندئذ، اختل توازنها فسقطت عند قدمي، مهيضة الجناحين!

حدث ذلك كله في لحظات، أقعدتنا الدهشة خلالها عن أن نحول دون وقوع الحادث! فلما وقع، أجفلت أنا إلى الخلف مذعورًا – بدلاً من أن أنحني على الفتاة فأقيل عثرتها! – بينما خف كيكسفالفا وايلونا وجوزيف إلى المسكينة فحملوها، وهي تنشج بالبكاء كمدًا ويأسًا، وخجلاً مني. وفي لحظة انزاح عن عيني ضباب الوهم الذي سيطر على مشاعري طيلة السهرة، فتجلت الحقيقة أمامي سافرة، بكل بشاعتها: أن الفتاة لن تشفى! ستظل كسيحة على هذه الصورة مدى الحياة! وأنا الذي حسبت نفسي اله يزهو على مخلوقاته بالسعادة التي أفاءها عليهم طيلة السهرة، عدت فجأة مخلوقًا ضئيًلا ضعيفًا، في أمس الحاجة إلى من يرثي لحاله!

وفي ظل هذه الصدمة النفسية المروعة، وجدتني عاجزًا عن أن أبقى إلى جانب الفتاة كي أشجعها في محنتها، وأقوى في نفسها إيمانها وأملها في الشفاء: بالكذب، والباطل، والخداع المرير! .. فاختطفت قبعتي وسيفي وفررت من البيت – لثالث مرة – كالمجرم الأثيم! ومضيت في

الطريق استجدى الهواء لأنفاسي، وبي إحساس من يوشك أن يختنق هل كان الهواء محملاً بالغبار، أم كان النبيذ يغلي في عروقي، أم كان حنقي هو الذي يكاد يخنقني .. لست أدري سوى أني فتحت ياقة سترتي، وقد أحسست كأن دمي الحار يريد أن يطفر من جلدي من فرط ما كان يتدفق في رأسي ويدق أذني، وكأنه وقع عكازي أديث!

وجف حلقي من الانفعال والظمأ، فهرعت إلى أقرب حالة صادفتها في طريقي، غير عابئ بحقارتها، وتخصيصها لطبقة الجنود وتحريمها على الضباط، كنت أعتزم أن أتناول قدحًا من الصودا المثلجة ثم أنصرف، لكني تبينت عجز ساقي عن أن تحملاني، من فرط الدوار الذي أصابني، بتأثير الخمر والانفعال والهواجس المحمومة التي تناهبتني، فأشعلت سيجارة واعتمدت رأسي بين كفي، محاولاً تهدئة ثائرة نفسي .

ولكن كيف السبيل إلى الهدوء، وطرقات العكازين تلاحقني، وسلسلة الأحداث التي تتابعت تتخبط في رأسي؟! ألم يربطوني إلى الفتاة برباط أقوى من الخطبة، فيضعوني في موضع المسئول عن حياتها أو موتها؟ .. لكني قبلت الفتاة في فمها باختياري، فورطت نفسي أكثر مما ورطوني! .. رباه! كيف حدث ذلك؟ كيف انتهت الأمور إلى هذا الوضع؟ كيف يمكن أن أتزوج امرأة كهذه؟ .. إنها ليست امرأة حقيقية .. إنها! .. كم كان بشعًا منظرها وهي "تتكوم" عند قدمي كجوال من الحنطة! .. أنني أرفض الزواج من مثلها ولو أعطيت مال الأرض كله، وما قيمة المال، في رفقة حطام بشري كهذا؟ .. ولكن كيف السبيل إلى

الفرار من هذا المأزق؟ غدا سوف تقف البلدة كلها على النبأ، قد يعلنونه في الصحف، وعندئذ يستحيل علي التراجع! .. ثم هناك أسرتي أيضا: ترى كيف تتلقى خبر زواجي من كسيحة، ومن أصل يهودي أيضا؟ .. وهناك زملائي في الفرقة؟ ماذا يقولون عني؟ لسوف يؤكدون ساخرين أني بعت نفسي لبقرة عاجزة تدر ذهبا! .. وسيطلبون جميعا مني– إمعانا في الاستهزاء– أن أقدمها لهم، نعم أقدمها لهم بعكازيها ومقعدها ذي العجلات! .. فلا يقع بصرهم عليها حتى ينفجروا ضاحكين، متصايحين: "ها هاها .. هذا يفسر سر السبعة ملايين .. لقد أعطوه العكازين ضمن المهر!"

يا للهول! .. أين أنا؟ .. نظرت حولي متعجبا. لابد أني أغفيت بعض الوقت، ترى هل لاحظ رواد الخانة في مسلكي شذوذا؟ .. أنهم سيسخرون مني بعد خروجي .. وغدا سوف تسخر البلدة كلها مني وراء ظهري .. ولن يشفق أحد على الغبي الأحمق الذي صار عبدا ذليلا لشفقته، إلى أين أذهب الآن؟ إلى أي مكان عدا غرفتي الخاوية، التي تنفرد فيها هواجسي المروعة! .. خير ما أفعل أن أتناول مزيدا من الخمر، شيئا باردا لاذعا يزيل هذه المرارة من فمي، وهذه الأفكار من رأسي! .. يكتسحها، يحرقها، يقتلها، يبيدها!

وقادتني قدماي دون أن أشعر إلى المقهى المشرف على الميدان الكبير، وكانت أنواره ما تزال مضاءة .. آه، إلى الشراب، إلى الشراب! .. ولم أتذكر إلا بعد دخولي أنني قد سعيت بقدمي إلى حيث تكمن

"العصابة" كلها، عصابة الزملاء والأصدقاء: فيرنز، وستاينهوبل، وجوسي، وطبيب الفرقة .. وبقيتهم!

ولكن لماذا يحدجني جوسي هكذا بنظرة دهشة، بل فزع؟ ثم لماذا يومئ إليهم بعينه فيقطعون نقاشهم الحامي فجأة ويستديرون بأبصارهم نحوي؟ .. وكان محالا أن أنسحب بعد أن رأوني، فحزمت شجاعتي وحييتهم ثم جلست .. لكن الجو ظل ملبدا ساكنا برهة، كأنما قد عكرت عليهم خلوتهم .. وأخيرا قطع جوسي حبل الصمت فسألني: "هل نستطيع أن نهنئك؟" .. فأجبته من فوري قبل أن أدرك مغزى سؤاله: "تهنئوني بماذا؟" .. فانبرى يقول، متشبثا بالفرصة التي أتاحها له تساؤلي: "إن صديقك الصيدلي- وكان هنا منذ هنيهة- ذكر أن كبير خدم كيكسفالفا قد أنبأه بالتليفون منذ قليل- نيابة عن سيده- أنك قد خطبت ال ... فلنقل الآنسة ألتي هناك!"

وتركزت الأبصار كلها على فمي .. وخشيت أن يسخر الجميع مني إذا اعترفت .. فأجبت متنصلا من التهمة: "هذا هراء!" .. لكن جوابي لم يشف غليلهم، فقال فيرنز وهو يربت على ظهري: "إذن فأنا على حق، والخبر غير صحيح، أليس كذلك؟" .. وزادني هذا السؤال تورطا في النفي، وشعرت بسخف محاولتي أن أوضح- في مقهى- أمرا شائكا عجزت عن إيضاحه وأنا في خلوة مع نفسي .. فقلت محتجا، دون ترو: "غير صحيح على الأطلاق!" .. وإذ ذاك ساد الصمت برهة، وتبادل الجميع نظرات الدهشة .. حتى أفتقوا منها على صوت فيرنز يدق

المنضدة بيده ويصيح بلهجة المنتصر: "ألم أقل لكم أني أعرف هو فميلر حق المعرفة، وأن هذا النبأ لابد أن يكون أكذوبة، أكذوبة قذرة من جانب الصيدلي اللعين؟ .. آه، سوف ألقي على التعس درسا لن ينساه، كي يكف عن تلويث سمعة الناس بالباطل! .. ولكن أرأيتم صدق ما قلت لكم، من أن هو فميلر ليس بالشخص الذي يبيع نفسه من أجل حفنة من المال؟" .. ثم استدار صديقي نحوي وضربني على ظهري بيده الثقيلة مازحا، وهو يقول: "لمك أنا مسرور لأن الخبر غير صحيح .. والا للوثك ولوثنا جميعا، بل للوث الفرقة بأسرها!"

.. ثم أضاف ستاينهول قائلا: "كلنا مسرورون بنجاتك من قبضة المرابي، الذي دمر بحيله القذرة "نيو ندورف" المسكين. وأنه لمن سوء الحظ أن يسمح لأمثال هؤلاء بجمع الثروات وشراء الضياع والألقاب!" .. وهنا قال ثالثهم "الواقع أني منذ البداية لم أكن مستريحا إلى كثرة ترددك على أولئك القوم، لا لأني أعرف عنهم شيئا يشينهم، بل لأننا نحن الضباط يجب أن نكون متحفظين في الاختلاط بالناس، فتعرف كل شيء عنهم قبل أن نشرف بيوتهم بزيارتنا .. يجب أن نحتفظ بأيدينا دائما نظيفة!"

.. وتتابعت تعليقات الزملاء اللاذعة على هذا النمط، وتباروا في التعريض بكيكسفالفا وابنته "البشعة"! .. بينما جلست أنا كالأخرس بلا حراك، وأن وددت لو أصرخ فيهم معترفا بأني الكاذب الجبان، وليس الصيدلي! .. لكني أدركت أن فرصة التراجع عن إنكاري قد فاتت، كما

أدركت فظاعة الخيانة التي أرتكبها بسكوتي هذا في حق أديث البريئة المسكينة، فوددت لو تنشق الأرض وتبتلعني! .. ولم أدر إلى أي جهة أنظر، ولا ماذا أفعل بيدي اللتين قد ترتجفان في أية لحظة فتفضحانني .. وانتهزت أول فرصة فخلعت خاتم "الخطبة" من أصبعي وأخفيته في جيبي، قبل أن أمد يدي لأصدقائي مصافحا مودعا! .. وخرجت إلى الميدان الغارق في ضياء القمر، وقد أفقت تماما من سكرتي مبلبلة أفكاري. أدركت حقيقة ما فعلت، وما بات واجبا علي أن أفعل .. ففي الساعة العاشرة مساء ارتبطت بخطبة فتاة .. وبعد أقل من ثلاث ساعات تنصلت من تلك الخطبة في جبن ونذالة! .. وأما سبعة شهود سمحت لنفسي– وخاتم الخطبة في أصبعي– بأن أتلقى المديح والإطناب من أجل أكذوبتي المرذولة .. وامتهنت– امتهانا غادرا– شرف فتاة أخلصت لي الحب، مخلوقة عاجزة مسلوبة الحول والطول، لا ترتاب في شيء! .. بل تركت أباها يهان أمامي ويثلم شرفه، دون أن أحتج أو أدافع، وقبلت أن يرمى شخص بالكذب على مسمع مني، وهو لم يقل إلا الصدق!

.. وهكذا لن يطلع الصباح حتى تكون الفرقة بأسرها قد وقفت على عاري، والذين كالوا لي الليلة المديح سوف يتنكرون لي غدا! .. ومتى أفتضح كذبي فلن ألبث أن أجرد من رتبتي، ويتعذر على أن أعود لرؤية الذين غدرت بهم غيلة! .. وحتى العمل الذي وعدني به "بالنكاي"، في مؤسسات زوجته، سوف يأباه علي بعد افتضاحي .. وهكذا دمرت تلك الدقائق الثلاث التي جبنت خلالها، حياتي كلها .. فلم يبق أمامي غير مخرج واحد: "المسدس!"

وإذ أدركت بوضوح أن لا سبيل يحفظ لي شرف غير ذلك السبيل، وانتقلت إلى التفكير في الطريقة التي أنفذ بها عزمي، فجعلت وأنا أذرع الشوارع المقمرة أدبر أدق تفصيلات الساعتين أو الساعات الثلاث الباقية لي على قيد الحياة! .. قررت أن أكتب أولا خطابا إلى والدى أعتذر إليهما فيه من أجل الألم الذي سوف أسببه لهما .. ثم خطابا إلى "فيرنز" أرجو فيه أن يعدل عن الاشتباك مع الصيدلي بسبب ما قاله، ما دامت المسألة سوف تسوى بموتي! .. وخطابا ثالثا إلى قائد الفرقة، أستحلفه فيه أن يسدل على الموضوع كله ستارا من السرية، ما أمكنه ذلك، وأوصيه بدفني في فيينا، دون جلبة أو مشهد عسكري .. ثم أختم رسائلي بخطاب أخير إلى كيكسفالفا أسأله فيه أن يوكد لأديث عواطفي الحارة نحوها، ويطلب منها أن لا تفكر في كثيرا! .. أما ثيابي وساعتي فتؤل إلى تابعي، وأما خاتمي وعلبة سجائري الذهبية فتعود إلى كيكسفالفا .. وماذا أيضا؟ آه، لابد من حرق خطاب أديث، بل جميع الخطابات والصور التي بحوزتي، كي لا أترك ورائي شيئا ما، ولا أخلف أثر أو ذكرى، وإنما أختفي– كما عشت– دون أن أثير انتباه أحد! .. فإذا ما أتممت هذه الإجراءات، فسوف أتمدد على فراشي وأغطي جسمي ورأسي بكل الأغطية التي عندي، وفوقها اللحاف السميك– كي يحجب صوت الطلق الناري عن الأسماع– ثم أصغ فوهة المسدس على صدغي .. وأطلق الرصاص!

وكنت قد وصلت إلى باب العسكر، بعد أن تجولت على غير هدى حوالي ساعة، أعددت فيها برنامج موتي– بدقة وصفاء ذهن لا أذكر أني

أعددت بهما أي تدبير في حياتي!– ولم يبق إلا أن أعبر الفناء وأصعد طوابق المباني الثلاثة، ثم أخلو إلى نفسي كي أبدأ– وأتم– كل شيء!

و لم أكد أقترب من الباب، حتى برز في الظلام شبح، سرعان ما تبينت في ضوء القمر أنه .. قائد الفرقة! .. ترى بماذا سيعلق على عودتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ .. ولكن إلى الجحيم به وبالفرقة، فأني في الصباح سوف أمثل بين يدي من لا يقاس هو به! .. وناداني الكولونيل بصوته الصارم: "ملازم هو فميلر!"، فوقفت أمامه وأديت التحية، بينما أردف هو قائلا: "لعل أحدث زي ؟ ألحظه عليكم أنتم الضباط الشبان في هذه الأيام أنكم تتركون ستراتكم نصف مفتوحة! .. هل تحسبون أنني أسمح لكم بالتجوال بعد منتصف الليل على هذه الصورة؟ كلا! لن أقبل هذا! إن ضباطي يجب أن يحتفظوا بأناقة هندامهم في كل وقت، أتفهمني؟" .. ثم تركني ومضى دون أن يحييني! رباه، أتكون آخر عبارة أسمعها في حياتي عبارة لوم وتوبيخ؟ كلا! لابد أن ألحق به كي أبرر له مسلكي وأشرح عذري، بمثل الحرص التقليدي المألوف من جانب المنتحرين على أن يلقوا حتفهم بصحيفة بيضاء ناصعة، حتى ليعمد الرجال منهم إلى ارتداء ثياب نظيفة– والنساء إلى التزين بالأصباغ والعطور– قبل أن ينهوا حياتهم، بدقائق معدودات!

وهكذا هرعت خلف القائد .. حتى لحقت به على السلم، فسألته أن يسمح لي بالتحدث إليه ببضع كلمات. وبرغم دهشته، دعاني الرجل إلى الصعود معه إلى غرفته، وكانت في بساطة حجرات ضباط "أسبرطة"

القدامى المتقشفين .. وهناك ابتدرني متسائلا: "أهي مشكلة مالية، تلك التي تبغي أن تحدثني فيها، أم نسائية؟" .. فشرحت له أمري باختصار، وما انتهى إليه عزمي، حرصا على شرفي وشرف الفرقة التي أنتمي إليها! .. وإذ ذاك راح يذرع الحجرة ذهابا وجيئة، في هيئة من يجهد ذهنه في البحث عن مخرج، ثم وقف تجاهي وسألني: "من هم زملاؤك الذين سمعوا إنكارك؟" .. فأمليت عليه أسماء الشهود السبعة. وبعد أن كتبها في مفكرته، التفت إلي قائلا: "الآن اسمع الحل الذي اهتديت إليه: سوف أدعو هؤلاء السبعة لمقابلتي، كلا على حدة، في ساعة مبكرة من الصباح، وأجعلهم يقسمون بشرفهم العسكري أن ينسوا كل كلمة فهت بها أمامهم، مبررا مسلكك بأنك كنت في حالة سكر بين لم تفقه معه حرفا قلت .. وكذلك سوف أقنع الصيدلي- بطريقتي الخاصة- بهذا العذر، والزمه الصمت! .. أما أنت، فينبغي ألا تبقى في هذه البلدة يوما واحدا بعد الآن، والا تعرضت للأسئلة والاستفسارات والمضايقات الحرجة أينما ذهبت، الأمر الكفيل بافتضاح حقيقة أمرك .. لذلك سأصدر في الصباح أمرا بنقلك إلى معسكر "شازلاو"، فعليك أن تحزم الليلة أمتعتك وأمتعة تابعك كي تمثلا أمامي في الساعة الخامسة والنصف من فجر الغد- أو بالأحرى: اليوم- لتتسلما أمر النقل .. هل فهمت؟ .. وهكذا لا يبقى من ذيول حماقتك غير ما يتصل

بتأثيرها في صلتك بكيكسفالفا وأبنته، وهذا أمر أترك لك تصرفه كما تشاء!"

وحاولت أن أعترض على هذا الحل، بحجة أنه لا يزيل غير أثر حماقتي بالنسبة للآخرين، أما أثرها في نفسي وفي قرارة نفوس الشهود السبعة فسوف يظل كما هو، وسوف تظل لوثة تصرفي المخزي عالقة بشرفي ما بقيت على قيد الحياة!.. لكن القائد لم يقرني على مغالاتي "الساذجة" في توهم الأمور.. وحين تظاهرت بطاعته، وأنا أبيت النية بتنفيذ ما اعتزمت، أدرك بحصافته أني أضمر لنفسي شرا.. فاستوقفني بعد أن هممت بالانصراف، ليقول لي: "لا تعجبني نظرتك أيها الفتى، بحيث يخيل إلي أنك تنوي أن تهزأ بكلامي، وأنك تدبر شرا... ولكني لن أسمح لك بمعالجة الأمور في تهور وجنون، سواء بمسدس أو بأي شيء من هذا القبيل.. أتفهمني؟"

فقلت: "نعم يا سيدي القائد!"

قال: "لا تحسب أنك تستطيع خداعي فلست من مواليد الأمس القريب، أعطني يدك، والآن أقسم لي بشرفك العسكري يا "هوفيملر" أنك لن ترتكب حماقة في حق نفسك الليلة، وأنك ستمثل أمامي عند الفجر، ثم ترحل إلى شازلاو"

فقلت: "أقسم بشرفي على ذلك"

قال: "حسنا لقد خشيت أن تقدم على فعلة طائشة، فإنكم معشر الشباب تميلون في هذا السن إلى تعجل إنهاء الأمور، ولو باستعمال

المسدس! .. لكنكم حين تتقدمون في السن، سوف تتعلمون كيف تعالجون الأمور في روية وتعقل... والآن تستطيع أن تذهب!"

منذ اللحظة التي تلقيت فيها أمر القائد "بالتعقل"، كففت–بحكم نشأتي العسكرية التي تقدس طاعة الرؤساء طاعة عمياء– عن أن أفكر في أمري باستقلال في الرأي، بل صار همي أن أطيع، وكفى!.. وهكذا لم تشرق شمس الصباح حتى كنت وتابعي في القطار الذاهب إلى فيينا، ومنها إلى شازلاو.... لكن الشلل "المغناطيسي" الذي أصاب إرادتي وأنا بين جدران المعسكر، تبخر بمجرد تحرك القطار، فألقيت عن ذهني سباته وأفقت على الصورة التي يفيق بها شخص ألقاه انفجار عنيف على الأرض، فلما وقف على قدميه... أدهشه أن يرى نفسه سليما من كل أذى!.. وهكذا كانت أول صدمة تلقيتها مدهوشا، أني وجدت نفسي ما أزال حيا! أحسست كأن شخصا قد أنتزع المسدس من يدي في آخر لحظة، كي أعيش وأوجهه... ماذا؟... لقد وعدني القائد أن يسوي أثار حماقتي فيما يتصل زملائي وأهل البلدة. ولكن ماذا يكون شأن كيكسفالفا وأديث، من الذي سيشرح لهم جلية الأمر، ويفسر لهم غيابي؟... لن تحين ساعة زيارتي المألوفة، بعد الظهر، حين تجلس المسكينة في انتظاري، تضنيها اللهفة المحمومة.. لكني لن أحضر، ولن تلقى مني أي نبأ في رسالة أو بالتلفون... وإذا استفسرت عني في المعسكر فسوف يذكرون لها أني نقلت إلى جهة أخرى بعيدة!.. لكنها لن تفهم شيئا.. بل أنها ستفهم الحقيقة الرهيبة.. وعندئذ..!؟

.. وفجأة خيل لي، أني أرى عيني كوندور تهدداني من وراء نظارته، وصوته يصيح بي: " إنها تكون جريمة قتل!.. قتل متعمد!".. وتلت هذه الصورة في خاطري صورة أخرى محتها: صورة أديث وقد رفعت جسدها من مقعدها، وانحنت على سور الشرفة، المطل على الهاوية السيقة! .. فحدثت نفسي في انزعاج، ينبغي أن أفعل شيء على عجل!.. أرسل لها برقية من أقرب محطة، أحول بينها وبين الأقدام على فعلة طائشة.. ولكن كلا، أنا الذي ينبغي على ألا قدمه على أي تصرف طائش، هكذا أوصاني كوندور، ملحا علي في أن أبادر بالاتصال به قبل أن أخطو أية خطوة! أذن فلأفعل!.. من حسن حظي أن أمامي ساعتان أقضيهما في فيينا، بين موعد وصول قطاري ورحيل القطار الذاهب إلى شازلاو! وهكذا لم يكد يقف القطار في محطة فيينا حتى تركت أمتعتي في حراسة تابعي وركبت سيارة أجرة نهبت بي الطريق إلى منزل كوندور. وقطعت الطريق كلها وأنا أصلي وأبتهل، راجيا أن أجده في البيت.. ولكن رجائي خاب فاضطررت أن أكتب إليه خطابا تسلمه إليه زوجته عند حضوره.. وفيه رجوت أن يهرع من فوره إلى كيكسفالفا بقطار الساعة الثانية، كي يصل قبل موعد زيارتي المنتظرة ويشرح لأديث كل شيء!.. ورويت له تفاصيل حماقتي الأخيرة، راجيا أن يصارح بها الفتاة على حقيقتها، كي لا تراني بصورة تفضل الواقع، لا تراني بريئا وأنا المذنب!.. فإذا استطاعت بالرغم ضعفي– أن تصفح عني، فسوف أعتبر خطبتنا أكثر جدية وقداسة منها في أي وقت مضى–فإنها لم تصبح في نظري مقدسة حقا إلا الآن!– وإذ سمحت لي بأن أصحبها إلى سويسرا فأنا على استعداد لأن أعتزل

الخدمة فورا وأذهب معها، وألازمها في المستقبل، سواء شفيت بعد مدة وجيزة أو طولة، أو لم تشف على الإطلاق! .. ذلك لأني أبغى أن أفعل كل ما في وسعي للتفكير عن جبني وأكاذيبي، وقد صار هدف حياتي الوحيد، الآن أن أثبت لها أني لم أخنها هي بحماقتي، بل خنت الآخرين وحدهم.. كل ذلك ينبغي أن يقوله كوندور لها بصراحة تامة، فإني لم أتبين إلا اليوم كم هي أثيرة عندي، أكثر من أصدقائي، ومن عملي، ومن خدمتي العسكرية! .. وهي وحدها التي تملك أن تقدر موقفي وتصفح– أو لا تصفح– عني .. وفي يدها وحدها مصيري!.. لذلك ألححت عليه في أن يدع كل شيء ويستقل قطار الساعة الثانية بغير إبطاء، كي يصل قبل الرابعة ونصف، موعدي المألو وإلا تعرضت حياة الفتاة للخطر!". ولم أشعر إلا حين وضعت القلم، بما أنا مدين به للقائد الذي أنقذ حياتي، كما شعرت بأني منذ تلك اللحظة مرتبط مدى الحياة بشخص واحد ليس غير، بالمرأة التي أحبتني!

وسلمت الرسالة لزوجة الطبيب، ثم انحنيت على يدها فقبلتها..
وحين رفعت بصري إليها لم أستطيع أن أفهم كيف بدت لي هذه المرأة العمياء في البداية قبيحة الخلقة!.. فقد أشرق وجهها الآن بنور المحبة والعطف الإنساني، حتى لقد أحسست أن تينك العينين اللتين لم تعكسا غير الظلمة الأبدية، تعرفان من حقائق الحياة أكثر من كل العيون المبصرة، المفتوحة على الدنيا بأسرها!

وغادرت البيت وبي إحساس من شفى من مرض طويل!.. لم أعد أرى أن ثمة أية تضحية مني في ارتباطي مدى الحياة بمنبوذة مستضعفة، عديمة الحيلة! .. كلا، فليس الإنسان السليم، الأبي، الفرح، السعيد، هو الذي ينبغي أن نحبه، فمثله ليس في حاجة إلى حبنا! .. إنه في غطرسته وعدم مبالاته يتقبل هذا الحب منا على أنه واجب علينا، نؤديه له صاغرين.. والحب المتفاني من جانب شخص آخر نحوه يكون بمثانة زخرف، لمجرد الزينة.. حلية للشعر، أو سوار للمعصم.. وليس نعمة حياته كلها، وسر وجوده! .. ولا يستحق الحب وينتفع به غير اللذين قست عليهم الحياة، فأذلتهم وحرمتهم نعمة الحواس، أو الجمال، أو الاطمئنان، أو اليقين! .. والذي يكرس حياته لمثل هؤلاء إنما يعوضهم بعض ما سلبتهم الحياة .. وهم وحدهم الذين يعرفون كف يحبون وكيف يتلقون الحب، كما ينبغي للإنسان أن يفعل، في تواضع وامتنان!

ووجدت تابعي ينتظرني حيث تركته، فمضيت به إلى قطار "شازلاو"، وقد غمرني شعور بالارتياح لا يوصف. لقد أنقذت نفسي وأنقذت حياة إنسان آخر، ولم أعد نادما على حماقتي الأخيرة، بل إنها– على العكس– هيهات لم كانوا يثقون بي أن يعلموا أني لست بطلا أو قديسا، أو اله تنازل فرفع إلى سمائه مخلوقة مريضة بائسة! فلئن تقبلت اليوم حبها فما عاد الأمر ينطوي على تضحية أو شبهها. كلا، بل أنا الآن من يستجدى الغفران، وهي التي تمنحه!

ولكن ماذا لو لم يعد كوندور إلى بيته في الوقت المناسب ليلحق بقطار الساعة الثانية؟ ومرة أخرى مثل في خاطري مشهد الشرفة المطلة على الهاوية، فانتظرت بصبر نافذ وصول القطار في المحطة التالية وهبطت منه إلى مكتب "التليغراف" المقام على الرصيف، حيث أرسلت منه البرقية التالية: "أديث فون كيكسفالفا– ضيعة كيكسفالفا: ألف تحية وأطيب التمنيات. انتدبت لعمل بعيد. سأعود قريبا. كوندور سيوضح لك كل شيء. سأكتب حال وصولي– محبك المتفاني هو فميفلر".. وعندئذ فقط أستراح بالي وسكنت مخاوفي، فشعرت مدى الإجهاد الذي أعانيه بعد يومن شاقين وليلتين مسهدتين .. وحين وصلت تلك الليلة إلى "شازلاو" أقتضاني الأمر أن أتحامل على نفسي كي أبلغ غرفتي في الطابق الأول من الفندق، حيث غرقت النعاس من فوري، كما يغرق الإنسان في بئر عميقة!

وأعتقد أني غفيت في اللحظة التي لمس فيها رأسي الوسادة. وبعد فترة ليست بالقصيرة رأيت فيما يرى النائم أني واقف وسط حجرة الانتظار بمنزل كوندور، وفجأة تناهى إلى سمعي ذلك الصوت الخشن المروع الذي ما فتئ منذ أيام يطرق صدغي، صوت طرقات العكازين على الأرض: تاك، تاك، تاك!.. أخذ الصوت يقترب ويزداد وضوحا حتى خلته قد بلغ حجرتي، فهببت من نومي مذعورا، لأسمع طرقات على بابي!

حملقة هنيهة في ظلام الغرفة حتى استوثقت من أني لم أعد أحلم، وعندئذ قفزت من فراشي وفتحت الباب.. فإذا خادم من خدم الفندق ينبئني بأن هناك من يطلبني بالتليفون من فيينا!.. وطار النوم من عيني! لابد أنه كوندور!.. وفي مثل لمح البصر، تبعت الخادم وأنا أكاد أعدو.. لكني حين تناولت السماعة لم أسمع غير أزيز متقطع كأزيز إسراب من البعوض.. فصحت.. وصحت: "ألو.. الو.." ولكن بلا جواب!.. لا شيء غير الأزيز المتقطع!.. ولم أدري هل سرت الرعدة في أوصالي بسبب ثيابي الخفيفة، أم أن خوفا مفاجأ اعتراني فجعل أسناني تصطك؟.. ترى ماذا حدث حتى جعلهم يطلبونني بعد منصف الليل؟.. وعدت أصيح، وأهتف، وأنتظر.. وأخيرا سمعت صوتا يقول: "القيادة العليا في أبراج" تتكلم.. هل أنت وزارة الحرب؟". فصرخت حانقا: "كلا..!" وبعد حين.. خاطبني العامل قائلا: "أسف، لقد أخلى الخط لمحادثة حكومية مستعجلة، سأدق لك الجرس حالما ينتظم الخط مرة أخرى!".. ولبست أنتظر على مقعد خشبي صغير، وأنا أنتفض من البرد والخوف، وجبيني يفصد بعرق الانزعاج .. وانقضى نصف ساعة، وتبعه نصف ساعة أخرى! .. ما معنى هذا؟ لماذا يتركونني أنتظر كل هذا الوقت الطويل؟ .. هذا جرم! هذا جنون! .. في مدى ثانية واحدة من الزمن يمكن أن يموت الإنسان ويتقرر مصير، أو ينهار عالم بأسره!.. وأخيرا دق الجرس، ليقول لي العامل في غير خجل: "لقد ألغيت المحادثة!".. ألغيت المحادثة؟ ما معنى ذلك؟.. أيطلبونني بعد منتصف الليل ثم يلغون الطلب؟.. لا بد أن شيئا قد حدث، شيئا يجب أن أعرفه فورا! ما أفظع

أن يعجز الإنسان أن يخترق الزمن والمسافة!.. ولكن ماذا في وسعي أن أفعل؟

لست أستطيع أن أصف كيف قضيت تلك الليلة، ولا أن أصف بشاعة الأفكار والهواجس التي تنازعتني خلالها، وأنا أنتظر وأنتظر، بكل عصب في جسمي.. وأنصت وأتسمع لكل صوت على السلم، وفي الممر، والشارع، عسى أن تتجدد المحادثة.. حتى انتزعني النعاس والإرهاق من وعي، نعاس شبيه بالموت والعدم!

وحين صحوت، كان نور النهار يملأ الفضاء، فنظرت في ساعتي، يا الله! العاشرة والنصف؟.. كيف هذا؟ لقد كلفني القائد أن أمثل أمام رئيسي الجديد في الصباح الباكر!.. ومرة أخرى وقبل أن يتسع لي الوقت في للتفكير في أمر شخصي، بدأ الجانب العسكري من عقلي يعمل بطريقة آلية، فارتديت ثيابي في لحظات وطرت إلى مقر عملي الجديد.. ووجدت الفرقة بأسرها قد اصطفت في الفناء الفسيح، فسارعت إلى احتلال مكاني على عجل. وبعد قليل أقبل القائد يسير بخطوات بطيئة صارمة، ثم نشر ورقة كانت مطوية في يده، وشرع يقرأ بصوت مفجوع: "لقد وقعت جريمة قتل مروعة أشاعت الذعر والأسى في النمسا وهنغاريا وكل بلاد العالم المتمدن.. هي الاغتيال الآثم لولي العهد المحبوب صاحب السمو الإمبراطوري الأرشيدوقة فرانز فرديناد، وصاحب السمو الإمبراطوري الأرشيدوقة!.. وأن الجيش الإمبراطوري ليشعر!.."

لكني لم أسمع حرفا من بقية المنشور، فإن كلمتي "جريمة" و "قتل" كانت بمثانة طعنة وجهت إلى قلبي!.. حتى لكأنني كنت أنا القاتل! .. إنهما الكلمتان اللتان أستعملهما كوندور في حديثه!.. وتكرت فجأة تليفون الأمس: لم لم يتصل بي كوندور هذا الصباح؟ ترى ماذا حدث الأمس؟ .. وأنتهزت فرصة الهرج الذي ساد المعسكر بعد فراغ القائد من إعلان النبأ فتسللت عائد إلى الفندق. وهناك أستقبلني الحارس وفي يده برقية لي، أو بالأحرى إخطار من مكتب البريد بفيد بأن برقيتي المرسلة من المحطة "..” في الساعة ٥٨ و ٣ من يوم أمس لم يتيسر تسليمها. عجبا! كيف ذلك؟.. هل وجدت في كيكسفالفا من لا يعرف أديث فون كيكسفالفا!.. ولم أطق صبرا، فطلبت الاتصال بكوندور في بيته بصفة عاجلة..!

وجاءت المحادثة بعد عشرين دقيقة، وكان كوندور في البيت– ويا العجب!– بل كان هو الذي رفع السماعة. وفي ثلاثة دقائق سمعت القصة بحذافيرها: لقد تدخل القدر بنشاط عجيب فأفسد كل تدابيري، وتدبير قائد الفرقة: فإن فيرنز وبقية الزملاء قد ألتقوا بالصيدلي في تلك الليلة المشؤمة ذاتها بطريق المصادفة، فأتهمه صديقي علنا أمام الملأ بأنه يذيع أكاذيب مختلفة عني، وحدثت مشادة بينهما كبيرة على الأثر. وفي الصباح كان الحادث موضع ثرثرة أهل البلدة جميعا، وتوجه الصيدلي محنقا إلى المعسكر كي يستشهد بي على صدق أنبائه، فلما فوجئ باختفائي قصد قصر كيكسفالفا حيث أقتحم على الأب التعس مكتبه وأتهمه بأنه جعله موضع سخرية البلدة كلها بسبب تلك الرسالة

التليفونية السخيفة.. ثم أضاف أنه لن يقبل أن بوسعه نفر من الضباط إهانة واستهزاء .. وأنه يستطيع أن يستنتج سر فراري الموصوم بالجبن، ولن يسكت حتى يقتص مني بنفسه، ولو أقتضاه ذلك أن يسعى لدى السلطات المسئولة في وزارة الحرب..

وبعد عناء استطاع كيكسفالفا أن يهدئ من ثائر زائره وصرفه، وكان كل أمله خلال المناقشة المحتدمة ألا يصل طرف منها إلى سمع أديث .. ولكن شاءت الأقدار أن تخترق كلمات الصيدلي الصاخبة، الفضاء بين حجرة المكتب الواقعة في الحديقة وبين الصالون، حيث كانت تجلس أديث، فسمعت الحديث كله بوضوح تام!.. لكنها تظاهرت خلال الساعات القليلة التالية بأنها لم تسمع شيئا، فضحكت وتندرت مع أبيها وأيلونا في مرح ظاهر، وطلبت أن تعرض عليها أثوابها الجديدة، واستفسرت عن مائة تفصيل وتفصيل مما يتصل بالرحلة.. وفي أثناء ذلك كلفت جوزيف سرا بأن يستفسر من المعسكر بالتلفون عن موعد عودتي، وهل تركت رسالة ما، فكان الجواب أني نقلت من البلدة ولم أترك أية رسالة!

وكانت هذه هي الطامة الكبرى التي رجحت في ذهن أديث كفة الإسراع بتنفيذ مشروعها، فأبت في ثورة انفعالها أن تنتظر يوم آخر، أو ساعة واحدة!.. لقد خيبت أملها خيبة مريرة، وأنزلت بها ضربة قاتلة لا طاقة لها بعد على أن توليني مزيدا من ثقتها!.. وأمدها ضعفي بقوة جبارة وعزم وطيد، فطلبت بعد الغداء أن تحمل إلى الشرفة.. وكأنما أوحى

انشراحها الزائد إلى أيلونا بشيء من التوجس، فلم تفارقها طيلة الوقت.. حتى كانت الساعة الرابعة ونصف–موعد زيارتي المألوفة– فطلبت من أيلونا أن تحضر لها كتابا معينا.. وكما يحدث عادة حين تشيء الأقدار، استجابت هذه لذلك الطلب البادي البراءة .. فانتهزت التعسة تلك الفرصة القصيرة لتنفيذ فكرتها المشؤمة، بعد إذا عجزت عن ترويض قلبها الملتهب.. نفذتها على الصورة التي استعرضتها يوما أمامي، والتي طالما رأيتها في أحلامي المزعجة، في يقظتي ومنامي!

ووصل كوندور بعد دقائق، ليجدها ما تزال على قيد الحياة... وكانت ظاهرة خارقة لكل تقدير ألا يحمل جسمها أثر خارجيا لصدمة القاتلة!.. وحملوها في سيارة إسعاف إلى فيينا وهي فاقدة الوعي.. وحتى ساعة متأخرة من الليل ظل الأطباء يأملون أن يستطيعوا إنقاذها، ومن ثم طلب كوندور– في الساعة الثامنة– محادثة عاجلة معي بالتليفون، من المصحة. ولكن في تلك الليلة– ليلة التاسع والعشرون من يونيو سنة ١٩١٤– كانت جميع خطوط التليفون مشغولة بلا انقطاع بمحادثات السلطات العسكرية والمدينة، بسبب مقتل ولي عهد الإمبراطور.. فلبث كوندور أربع ساعات ينتظر الاتصال بي، دون جدوى.. حتى قرر الأطباء، بعد منتصف الليل، ألا أمل في إنقاذ المصابة، فألغى المحادثة، وبعد نصف ساعة أسلمت أديث روحها!

بين مئات الألوف من الرجال الذين جندوا للقتال في شهر أغسطس من ذلك العام، لم يكن سوى عدد ضئيل مضى إلى ساحة

الحرب في غير مبالاة، إن لم أقل في لهفة، مثلي!.. كانت الحرب بالنسبة لي مخرجا، بابا للفرار، ففرت إليها كما يفر المجرم الأثيم إلى قلب الظلمات!.. وكنت قد قضيت الأسابيع الأربعة السابقة على بدء القتال في حال من اليأس، والحيرة، والبغض لنفسي، ما زلت أذكرها حتى اليوم بفزع لا يقاس إليه فزعي من ذكرى أشأم مأزق الحرب!.. ذلك أني كنت مقتنعا تمام الاقتناع بأني– بضعفي وشفقتي المرزولة اللعينة– قد قتلت مخلوقا بشريا، بل المخلوق الوحيد الذي أحبني أصدق الحب وأخلصه!

وفي حمى حيرتي اليائسة كتبت إلى كيكسفالفا أواسيه– مواسه كانت بمثانة الاعتراف بإثمي– فلم أتق منه أي رد!.. وكذلك لم أتلق أي رسالة من زملائي في المعسكر السابق، ولا حتى من أبي –ولعله كان مرهقا بعمله الحربي في تلك الأيام الحرجة– ومن ثم شعرت، مطعونا، كأن هذا الصمت المريب بمثانة إتهام جماعي لي!.. خيل إلي أنهم جميعا يدينونني، كما أدين نفسي، ويعتبرونني قاتلا، لأني هكذا اعتبرت نفسي! .. وفيما كانت أوربا كلها تعاني من حمى الانفعال، وتجند جوشها للقتال، لم يكن لي هم غير التفكير في خيانتي، وندالتي، وجبني! .. وهكذا كان استدعائي للحرب بمثانة الإنقاذ لي من نفسي، ومن يأسي!.. وأنا من الذين يمقتون المغالاة، والعبارات العنيفة، ولهذا لن أزعم أني لم أخش الموت، لكني على الأقل خشيته أقل مما فعل غيري.. فقد مرت بي ساعات كان فيها تفكيري في العودة من الحرب حيا، إلى حيث ألقى أولئك الذين يشاركونني العلم بجرمي، يسبب لي ذعرا يفوق ذعري من

كل أهوال جبهة القتال، ثم إلى أين أذهب، لو عدت؟ من بقى هناك في حاجة إلي؟ ولماذا- ومن أجل من- ينبغي أن أعيش؟ وإذا كانت الشجاعة لا تزيد على كونها محض "عدم الخوف" فإني أستطيع أن أزعم أني كنت شجاعا في الميدان!.. بل إني لم أخشى أن أصير كسيحا، أو تقطع ساقاي، أو غير ذلك من العاهات!.. بل لعلني رأيت فيما عاقبا عادلا وانتقاما ألهيا، القصد منه أن أغدو فريسة لرثاء الناس وشفقتهم العاجزة، الموصوم بالجبن والضعف، مثل شفقتي!

ولئن كان الموت لم يعبر طريقي، فليس الذنب ذنبي .. فلقد ذهبت عشرات المرات لألقاه، بعين الاستخفاف وعدم المبالاة، متطوعا لكل مهمة خطرة ومغامرة مميته.. فكان كل مرة ينحرف عن طريقي، وأعود محملا بأكاليل الغار، وأوسمة المجد والشرف، تقديرا لبسالتي الزائفة!.. فلما أنقضت تلك الأعوام الأربعة الرهيبة، اكتشفت مدهوشا أني ما زلت حيا، وأني عدت من "حمام الدم"، يثقل ضميري وزر عدد لا حصر له من الأرواح التي قتلتها في الميدان.. فكان لذلك بعض الأثر في تخفيف وطأ أثمي الأول الشخصي، الذي استغرقته موجة الآثم العام!.. وزادني ارتياحا- إلى حد ما- إن هذا العالم المغاير الذي عدت إليه لم يبقى فيه أحد من شهود جريمتي القديمة، يستطيع أن يتهم البطل المحمل بأوسمة البسالة، بأنه كان جبانا رعديدا، أو يصيح في وجهي بأني كاذب ندل!

وكان كيكسفالفا قد لحق بأبنته بعد أيام معدودة من موتها... وصارت أيلونا زوجة لمحام بسيط في إحدى قرى يوغوسلافيا.. وأطلق قائد الفرقة رصاصة على صدغه أنهى بها حياته، حزنا على هزيمة وطنه.. وتبعثر زملائي القدامى من ضباط المعسكر: فمات منهم من مات، والذي بقى على قيد الحياة نسى كل شيء عن ذلك الحادث التافه-فإن كل شيء يمت إلى ما قبل الحرب صار بعدها يعد تافها لا وزن له!

لم يبقى من يتهمني أو يدينني!. وهكذا صرت أشبه بالقاتل الذي دفن جثة ضحيته بالغابة، اعتمادا على أن الجليد لن يلبث أن يتساقط بكميات هائلة تطمر معالم جريمته.. وحين يذوب الجليد بعد شهور، يكون كل أثر للجريمة قد أختفى إلى الأبد!

وبدأت أواجه الحياة من جديد.. ولما لم يعد أحد يذكرني بإثمي، فإني كنت قد أوشكت أن أنساه!

حتى أقبل شبح من العالم الآخر أعاد إلى وعي الذكرى المروعة: كنت جالسا في دار أوبرا "فيينا" ذات ليلى، أصغي إلى الموسيقى "جلوك"، وحين انتهت "افتتاحية" الأوبرا فتحت الأبواب-وإن ظلت الأنوار مطفأة- ليدخل إلى القاعة أولئك الذين جاءوا متأخرين.. وأقبل شبحان يتلمسان إلى مقعديهما طريقهما، بجانبي: رجل وامرأة .. ولحظت من مشيتهما أن الرجل يقود مرافقته من يدها في رفق-بحيث لم يبقى لدي شك في أنها عمياء!- ثم أجلسها، وجلس هو في المقعد الملاصق

لمقعدي.. وعندئذ تبينت لفرط دهشتي.. وذعري!– أنه ليس سوى الدكتور كوندور!.. الرجل الوحيد الذي يعرف كل شيء، حتى أعمق أعماق روحي، وأخفى خفايا جريمتي!.. الرجل الذي لم تكن شفقته ضعفا قاتلا– مثل شفقتي!– بل كانت قوى مضحية، منكرة لذات، الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يدينني.. والذي ينبغي أن أحس أمامه بالخجل!

إنه يجلس بجواري، حتى أكاد أسمع أنفاسه، وحين تضاء الأنوار لن يلبث أن يعرفني! وبدأت أرتجف وقلبي يدق صدري كالمطرقة.. ووضعت يدي على وجهي، خشية أن تحين منه نظرة في الظلام فيعرفني.. وكما لو كنت عاري الجسم من الثياب، وسط كل هؤلاء النظارة الوقورين، ارتعدت أوصالي فرقا من اللحظة التي سوف تضاء فيها الأنوار، فتمزق أستار الظلام.. الذي يحميني!

وهكذا انتهزت فرصة اللحظات القليلة السابقة لانتهاء الفصل الأول، والتي تفصل بين فتح الأبواب وإضاءة الأنوار. فدفنت رأسي بين كتفي مطرقا، ومرقت من مكاني متسللا إلى الخارج، قبل أن يدركني النور!

لكني منذ تلك الساعة تبينت أنه ما من إثم ممكن أن يطويه الإنسان.. ما دام ضمير صاحبه يذكر .

الفهرس